د. قاسم عبده قاسم

دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي

عصر سلاطين المماليك



دار المعارف

دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى

عصر سلاطين المماليك

تأليف

دكتور قاسم عبده قاسم

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

١٩٧٩



دار المعارف

تصميم الغلاف : عبد العزيز جمال الدين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع

محتويات الكتاب

الإهـــــــــداء

إلى مصر ... الحب الذى نسيناه

قاسم عبده قاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه مجموعة من الدراسات التي تتناول بعض جوانب الحياة المصرية في عصر سلاطين المماليك . وتهدف هذه الدراسات إلى كشف السمات التي تميز هذا العصر عن غيره من عصور التاريخ المصري . وإذا كانت هذه الدراسات قاصرة عن توضيح كافة جوانب الصورة ، فإننا نأمل أن نضيف إليها مزيداً من الدراسات في المستقبل إن شاء الله ؛ حتى نتمكن من توضيح المزيد من جوانب الحياة المصرية في ذلك العصر الزاخر بالأحداث والتفاعلات .

وفي تصورنا أن هذا الجهد المتواضع الذي نقدمه للقارىء الكريم ، إن هو إلا محاولة لاستكمال الجهود التي سبقنا إليها بعض أساتذتنا الأجلاء (على الرغم من قلة عددهم) ، كما أنه في الوقت نفسه محاولة لتمهيد الطريق أمام اللاحقين ممن اختاروا طريق البحث العلمي قدراً ومصيراً ، وعسى الله أن يجعل من هذا الجهد عطاء نافعاً ، والله الموفق والمستعان .

دكتور قاسم عبده قاسم

الهرم ٨ مايو ١٩٧٩

مدخل

ظروف قيام دولة سلاطين المماليك (من هم المماليك ؟ – الظروف السياسية الخارجية – الحملة الصليبية السابعة – معركة عين جالوت – المتاعب الداخلية) – المفاهيم السياسية للعصر وتعبيراتها : نظام الحكم (القوة العسكرية – الواجهة الدينية) – النظام الاقطاعى – البناء الاجتماعى ومدلولاته

« المماليك » ، كما يتضح من مدلول اللفظ نفسه ، هم الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم حكام الشرق الأدنى الإسلامى ، لاسيما فى مصر والشام ، فى صراعهم ضد بعضهم البعض فى خضم الفوضى السياسية التى نشبت مخالبها فى هذه الأنحاء عقب وفاة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى . وكان أولئك الحكام المتنازعون يشترون المماليك صغاراً فى سن الطفولة ينشئونهم تنشئة عسكرية وسياسية خاصة ليكونوا عدتهم فى الصراع المرتقب . وبدأ عنصر المماليك يتزايد فى جيوش أولئك الحكام مما أدى إلى إزدياد دورهم فى الحياة السياسية فى مصر والشام منذ أخريات القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

ويُعد السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧–٦٤٧ هـ/١٢٤٠–١٢٤٩م) المسئول عن ازدياد نفوذ المماليك على النحو الذى أدى إلى استيلائهم على الحكم عقب وفاته . ذلك أن تجاربه مع الجنود المرتزقة من الخوارزمية والأكراد علمته أن الإعتماد عليهم أمر غير مأمون العاقبة ، ولهذا اشترى عدداً كبيراً من المماليك الذين دربهم ليكونوا غالبية جيشه (١) . وكان هؤلاء المماليك من عناصر مختلفة من الأتراك والمغول والصقالبة والإسبان والألمان والجراكسة .. وغيرهم . إلا أن غالبيتهم فى عصر دولة المماليك

---

(١) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٣٩ .

الأولى (البحرية) كانوا من بلاد القفجاق والقوقاز ، على حين كانت معظم عناصرهم فى الدولة الثانية (الجراكسة) من الجراكسة ..

وجاء العدوان الصليبي على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧ ه (١٢٤٩ م) فرصة لإبراز أهمية فرسان المماليك فى الدفاع عن العالم الإسلامى .فقد كانت للخطة التى وضعها بيبرس البندقدارى ونفذها فرسان المماليك فى شوارع المنصورة أثرها فى هزيمة جيش الصليبين ، ثم استطاع هؤلاء ، بمساعدة المتطوعين المصريين ، القضاء تماماً على الجيش الصليبي ، وأسر لويس التاسع نفسه (١) .

وفى خضم الصراع ضد الصليبيين توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وقامت زوجته شجر الدر بإدارة شئون الحكم والحرب بمساعدة كبار أمراء المماليك . وحين تولى توران شاه العرش أصطدم بطموح شجر الدر من ناحية ، وبقوة المماليك البحرية من ناحية ثانية ، وانتهى الصدام بمصرعه على نحو مأساوى مروع(٢) . ثم تولت العرش شجر الدر أول سلاطين المماليك فى مصر والشام .

هكذا إذن كانت الدولة استجابة لظروف العالم الإسلامى فى منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) . ففى ذلك الحين كان على العالم الإسلامى أن يلتزم جانب الدفاع إزاء الهجوم الذى كان يتعرض له من الشرق ومن الغرب على حد سواء . ففى الأندلس كانت الحرب الاستردادية قد نجحت فى تقليص المساحة لإسلامية على خريطة إسبانيا ، على حين كانت البابوية تسعى لعقد تحالف مسيحى – وثنى بين الغرب

---

(١) عن تفاصيل هذه المعركة أنظر محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، (القاهرة ١٩٦١) ، ص ١٤٥ – ص ٢٠١.

(٢) يذكر المقريزى أن المعظم توران شاه مات « . . جريحاً حريقاً غريقاً » (السلوك ج ١ ، ص ٢٥٩ – ص ٢٦٠).

اللاتيني والمغول لحصار العالم الإسلامي . وفي الوقت الذي كانت قوات لويس التاسع تخوض في مياه البحر المتوسط قبالة دمياط ، كانت جحافل التتار بقيادة هولاكو تطوى بلدان الشرق الإسلامي ، وهي تقترب من عاصمة الخلافة العباسية في بغداد .

وكان انتصار المصريين على الصليبيين بين المنصورة وفارسكور ، بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك ، وإذا كان بعض المؤرخين يعتبر أن الدولة الوليدة مرت بفترة تجربة استمرت عشر سنوات ، فيما بين معركة المنصورة ٦٤٧ هـ (١٢٥٠ م) ومعركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) (١) ، فاننا نرى أن معركة عين جالوت بنتائجها الحاسمة كانت تأكيداً للدور الذى اضطلعت به دولة سلاطين المماليك منذ مولدها ، وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامي . فللمرة الأولى في تاريخ المسلمين يجـدون أنفسهم بدون خلافة بعـد مقتل المستعصم بالله العباسي في بغداد سنة ٦٥٦ هجرية . وانجلى هذا الحدث الذى زلزل أركان العالم الإسلامي عن تغيرات كبيرة في موازين القوى العالمية . وكان على دولة المماليك الناشئة أن تتصدى للخطر التترى ، فانتهز قطز الفرصة ، وعزل السلطان الأيوبي الطفل « المنصور على بن المعز أيبك » وتولى سلطنة البلاد تحت إسم « السلطان المظفر سيف الدين قطز ». وتمكنت جيوش الدولة الجديدة من كسر الموجة التترية الطاغية وبذلك تأكد دورها كقوه حامية للعالم الإسلامي .

ولكن بطولات المماليك في المنصورة وفارسكور وعين جالوت لم تكن لتشفع لهم أو تغير من من نظرة المعاصرين لهم باعتبارهم عبيـداً لا يحق لهم الجلوس على عرش البلاد . فمن المعروف أن النظرية السياسية

---

(١) جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية (دار المعارف ١٩٦٧) ، ص١٧١ - ص ١٧٢ .

الإسلامية تجعل من شروط الحكم أن يكون الإمام « حـراً ». ومن ثم فإنه تعين على السلاطين المماليك أن يواجهوا متاعب عدم الاعتراف بهم كحكام شرعيين منذ البداية . فقد ثارت عليهم القبائل التى كانت قد استقرت فى مناطق مختلفة من مصر منذ زمن بعيد . وقد رفض أبناء هذه القبائل العربية ، التى تركزت فى أقاليم الشرقية والبحيرة والصعيد على نحو خاص ، أن يقبلوا الخضوع لحكم المماليك . وتمثل هـذا الرفض فى ثورتهم التى تزعمها « حصن الدين بن ثعلب » أحد شيوخهم . وثمة عبارة ينسبها المؤرخون إلى هذا الرجل هى : « **نحن أصحاب البلاد ، بل وإنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا على هذه البلاد** » (١). هـذه العبارة تفسر تلك النظرة التى نظر بها المعاصرون إلى المماليك ، وعدم اعترافهم بشرعية حكمهم . وعلى الرغم من أن « عز الدين أيبك » تمكن من القضاء على هذه الحركة ، فإن الدولة الناشئة كانت ما تزال بحاجة إلى تثبيت دعائمها .

ومن ناحية أخرى ، كان من الطبيعى أن يرفض الملوك الأيوبيون فى بلاد الشام الإعتراف بشرعية حكم سلاطين المماليك. كما أن المماليك قد أدركوا منذ البداية عدم قدرتهم على الحكم بأنفسهم لإفتقارهم إلى الشرعية الضرورية للحكم ؛ ويذكر المؤرخ ابن أيبك الدوادار أن المماليك حين واجهتهم المقاومة الأيوبية لحكمهم أيقنوا أن الحكم لن يخلص لهـم بسهولة ، وقالوا : « **لايستقيم لنا الأمر إلا أن نُملّك أحداً من بنى أيوب** » . **فاتفق أمرهم على موسى بن الملك المسعود أقسيس ابن السلطان الملك الكامل . وكان صغير السن فأقاموه . . .** (٢). إلا أن هذه المحاولة لم تخمد نيران الغضب فى صدور الأيوبيين الذين رأوا فى المماليك مجـرد

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٨٦ .

(٢) ابن أيبك الدوادار ، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، ص ١٣.

غاصبين استــولوا على مصر ، درة الأملاك الأيوبيــة . وكان لابد للسيوف أن تحسم الصراع لصالح أحد الطرفين . وبالقرب من مدينة الصالحية فى محافظة الشرقية الحالية دارت المعركة بين المماليك والأيوبيين . وكانت الهزيمة من نصيب الجيش الأيوبى . بيد أن هذه المعركة لم تكن نهاية المطاف بالنسبة للصراع بين المماليك فى مصر وبنى أيوب فى بلاد الشام ، فقد استمر هذا الصراع حتى تم القضاء على المقاومة الأيوبية بشكل نهائى فى عهد السلطان الظاهر بيبرس (١) .

وهكذا كان على سلاطين المماليك أن يبحثوا لسلطنتهم الوليدة عن سند شرعى يدعمون به حكمهم فى نظر معاصريهم، ومنذ البداية حاول السلطان المعز أيبك أن يُعلن تبعيته للخلافة العباسية ، لتكون هــذه التبعية سنداً له فى صراعه ضد ملوك بنى أيوب . ثم كان إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ٦٥٩ هـ . (١٢٦١ م) بمثابة الحل السعيد الذى وجده السلطان الظاهر بيبرس للخروج من أزمته . ففى هذه السنة بويع الأمير أحمد ابن الخليفة الناصــر لدين الله بن المستضىء بالله خليفة فى القاهرة، وقد أصدر الخليفة تقليداً للسلطان الظاهر بيبرس بحكم «... البلاد الإسلامية ، وماينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بــلاد الكفار ...» (٢) . وهو ما يعنى حصول بيبرس على تفويض شرعى من الخليفة العباسى بالحكم . وقد ذكر السيوطى أن بيبرس حصل على لقب «قسيم أمير المؤمنين» الذى لم يحصل عليه أحد قبله (٣).

---

(١) جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٥١ – ص ١٥٤ .

(٢) أنظر نص هذه الوثيقة فى المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٥٣ – ص ٤٥٧.

(٣) السيوطى ، حسن المحاضره ، جـ ١ ، ص ٨٧ ، أنظر عن إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة : ابن أيبك الدوادار ، الدرة الزكية ، ص ٧٢ – ص ٨٠ ؛ النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ ٢٨ ، ق ١٨ (مخطوط) ؛ المقريزى ، السلوك ؛ جـ ١ ، ص ٤٤٨ – ص ٤٥٠ ؛ السيوطى تاريخ الخلفاء ، ص ٣٢٨ – ص ٣٢٩ . ومن الثابت أن الخلفاء العباسيين فى القاهرة لم يكن لهم من الخلافة سوى اسمها . أنظر ابن الصيرفى ، إنباء الهصر بأنباء العصر ، جـ ١ ، ص ١١٥ .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن ظروف قيام سلطنة المماليك من جهة ؛ والوضعية القانونية للسلاطين « كمماليك » من جهة ثانية ، قد حددت أبعاد النظرية السياسية لذلك العصر ، وهو مايعنى أن المفاهيم السياسية لدولة سلاطين المماليك كان نتاجاً لظروف قيـــام الدولة ، وحقيقة أن هؤلاء الحكام لاينتمون إلى أسرة حاكمة ، بل أنهم ليسوا أحرارا وأنما « مسهم الرق » . ويمكن بلورة هذه المفاهيم السياسية فى أن أمراء المماليك اعتقدوا أن عرش البـــلاد حق لهم جميعا يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين . وهو الأمر الذى تأكد منذ بداية الدولة، سواء فى مصرع أيبك وشجر الدر ، أو فى اغتيال « بيبرس » « لقطز » وهـــو عائد بنصره الـــكبير على المغول فى عين جالوت ، وكانت الزينات قد أعدت لاستقباله ، ولكن بيبرس دخل القاهرة ليجلس على عرش السلطان الذى قتله . ولينعم بحفاوة الاستقبال الذى كان معداً لسلفة وضحيته (١) . وهكذا تقرر منذ البداية مبدأ « **الحكم لمن غلب** » .

وقد أدى ذلك إلى اعتماد سلاطين المماليك فى حكمهم على قوة ذات جناحين ، أحدهما يتمثل فى القوة العسكرية للسلطان وهى القوة التى يجسدها مماليكه . ويتمثل الجناح الثانى فى الواجهة الدينية التى حرص السلاطين على التخفى وراءها طوال ذلك العصر .

ونتيجة لهذا — وربما يكون من أسبابه أيضا — كان لابد لنظام الحكم أن يعتمد على نظام الإقطاع العسكرى الذى كان امتداداً لما كان سائداً فى العصر الأيوبى . فقد كان لكل من السلطان والأمـــراء جيش من المماليك الذى يعتمد عليه فى تدعيم سلطته أوفى الصراع ضد الآخرين

---

(١) ابن أيبك الدوادار : الدرة الزكية ، ص ٦١ — ص ٦٣ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٥ — ص ٤٣٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٣ — ص ٨٤ .

وفى ظل هذا النظام كانت أقوى الروابط بين المماليك هى رابطة «الأستاذية» التى تربط الأستاذ (السيد) بمماليكه ، والخشداشية (الخجداشية) التى هى رابطة الزمالة التى تجمع بين المماليك فى طائفة واحدة .

ولما كانت الإقطاعات هى الوسيلة الوحيدة الممكنة لإعالة هذه الجيوش الصغيرة فقد قسمت الأرض الزراعية فى مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا ، استأثر السلطان منها بأربعة قراريط . وخصص للاجناد عشرة قراريط ، على حين وزعت القراريط العشرة الباقية على الأمراء(١). وعلى الرغم من أن الإقطاعات قد أعيد توزيعها أكثر من مرة فيما عرف آنذاك باسم الروك (وهو فك وتعديل زمام البلاد من الأراضى الزراعية) فإن هذه الأراضى ظلت وقفاً على السلطان والأمراء ومماليكهم . ولم يبق للمصريين غير زراعتها وتسليم محصولها إلى الحكام .

وكان من الطبيعى فى ظل هذا النظام الإقطاعى أن يكون مجتمع المصرى فى عصر المماليك مجتمعاً طبقياً فى علاقاته واتجاهاته . وهو الأمر الذى انعكس بوضوح على كافة مظاهر الحياة فى مصر آنذاك . بيد أننا يجب أن نضع فى اعتبارنا أن المجتمع المصرى لم يبق على حال من الجمود والثبات طوال عصر سلاطين المماليك . فالواقع أن ملامح صورة المجتمع المصرى فى عصر الجراكسة قد اختلفت عنها فى عصر البحرية . ذلك أن الصورة الزاهية الزاخرة بالحركة والحيوية للحياة المصرية فى أوائل ذلك العصر كانت تعبر عن مجتمع إقطاعى فى دور صعوده ، فقد كان البناء السياسى متيناً محكماً ، وعلى قمة السلطة تربع السلاطين الأقوياء القادرين من أمثال الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاون ، والناصر محمد بن قلاون الذين استطاعوا أن يحكموا قبضتهم على أمرائهم ومماليكهم ، وأن يرسوا دعائم الأمن والاستقرار . ولذا كانت الدولة قادرة فى الداخل ، مهابة فى الخارج . وساعدهم على

---

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ ١ ، ص ٨٧ .

ذلك نشاط زراعى مزدهر بفضل العناية بمرافق الرى ، وثروة كبيرة من عائد تجارة المرور ، ونظام إقطاعى صارم يحكم المماليك . وأدى ذلك إلى خلق نوع من الإستقرار النسبى (على الرغم من بعض مظاهر الإضطراب التى شابته أحيانا) . ولكن التدهور الذى ألم بالبلاد منذ بداية القرن التاسع الهجرى تقريبا (الخامس عشر الميلادى) جعل الألوان الزاهية فى صورة المجتمع المصرى تتراجع أمام الظلال والألوان القاتمة الحزينة التى جاءت إيذانا بمغيب دولة وسقوط حضارة عاش العالم الإسلامى فى ظلها الظليل زمنا طويلا.

هذا المجتمع الطبقى انقسم فى بنائه إلى طبقتين رئيستين هما : الحكام والرعية ، أى السلطان وجهازه الحاكم بجناحيه العسكرى والمدنى ، وأبناء الرعية من المصريين المحكومين .ومع تسليمنا بوجود الفوارق والاختلافات داخل كل من هاتين الطبقتين ، فإن واقع المجتمع المصرى فى ذلك العصر يكشف أن كلا منهما قد عاشت حياتها الاجتماعية بمعزل عن الطبقة الأخرى تقريبا . وقد قسم المؤرخ « عبد الرحمن بن خلدون » المجتمع المصرى آنذاك إلى « **سلطان ورعية** » (١) وهو ما يكشف عن إدراكه لحقيقة الواقع الطبقى آنذاك . وفى تصورنا أنه يقصد « **بالسلطان** » الجهاز الحاكم والفئات التى تعيش على هامشه من المصريين ، أما « **الرعية** » فهم المصريون بجميع طوائفهم وفئاتهم . ولم تكن العلاقة بين السلطان والرعية قائمة على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة ، فإن ذلك كان أبعد ما يكون عن مفاهيم أولئك الحكام المجلوبين عبيداً فى طفولتهم ، وإنما كان على الرعية أن تقدم ثمار عملها إلى الحاكم الذى لم يكن هو وأمراؤه يرون فى مصر وأهلها سوى وسيلة من وسائل الإثراء السريع . وقد عرفت الضرائب فى هذه العصر بأسماء مختلفة مثل «المغارم» « والكُلَف» « والمظالم » مما يعكس رأى الناس فيها .ومن ناحية أخرى ، فإن حكومة المماليك لم تكن تلتزم تجاه الرعية بمسئوليات

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٨٣ .

عامة فى مجالات التعليم والصحة والتغذية وغيرها على نحو ماسنرى فى الدراسات التى يضمها هذا الكتاب .

وإذا كان المؤرخ تقى الدين المقريزى (ت ٨٤٥ هـ) قد قسم المصريين فى عصره إلى سبع طوائف (١) ، فالواقع أن تقسيمه هذا لم يكن تقسيماً طبقياً ، بل إنه – فى تصورنا – اقترب من التقسيم الذى وضعه أستاذه ابن خلدون إلى حد كبير . ذلك أن المقريزى جعل « أهل الدولة » على قمة التقسيم الفئوى الذى وضعه للمجتمع المصرى ، ثم بين تفاوت المستوى الاقتصادى لكل فئة حسب نشاطها فى المجتمع . والواضح ، أيضا ، أن المقريزى لم يرتب هذه الفئات أو الأقسام وفقا لمستواها الاقتصادى : فقد جعل « أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاعية » على قمة الرعية ، يليهم « متوسطو الحال من التجار » وأرباب السوق ، ثم يضع بعدهم الفلاحين وسكان الريف والقرى ، قبل الفقهاء وطلاب العلم وأجناد الحلقة الذين يجعلهم فى القسم السادس ، على الرغم مما هو معروف عن مدى تدهور الفلاح وحالته التى اقتربت من العبودية فى ذلك العصر (٢) . كما أنه ، من ناحية أخرى ، يجعل الشحاذين والمتسولين « الذين يتكلففون الناس ، ويعيشون منهم » قسماً سابعاً .

ونخلص من هذا إلى أن المقريزى قد رأى أيضا أن مصر فى ذلك الحين

---

(١) المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٧٢ – ٧٣ . وتقسيم المقريزى لأهل مصر فى عصره : أهل الدولة من الحكام المماليك ، ثم أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية ، ثم الباعة أو متوسطو الحال من التجار والسوقة ، ثم أهل الفلح يتبعهم الفقراء الذين يقصد بهم « جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم » . والقسم السادس أرباب الصنائع وأصحاب المهن ، يتلوهم القسم السابع من ذوى الحاجة والمسكنة .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٨١١ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، (النهضة العربية ١٩٦٢) ، ص ٤٨ – ص ٥٢ .

حاكم ورعية ، وهو الأمر الذى تشى به كتاباته وتعليقاته على الحوادث التى يسوقها فى مؤلفاته . ذلك أنه اكتفى بذكر أهل الدولة دون أن يوضح نشاطهم الاقتصادى ، ثم يبدأ يوضح دور كل فئة من فئات الرعية وفقاً لرؤيته الخاصة .

وفى رأينا أن المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك كان مجتمعاً يقوم على بناء طبقى حاد ، فثمة طبقة من الحكام العسكريين لهم كل الحقوق والإمتيازات ، ويملك أفرادها الأرض الزراعية التى قام عليها اقتصاد البلاد ، ولهم فقط حق الحكم والإدارة . فى مقابل الرعية التى اقتصر دور أبنائها على الإنتاج ودفع الضرائب والخضوع المتكرر لإبتزاز المماليك ، دون أن يكون من حق أبنائها المشاركة فى مسئوليات الحكم . وقد انعكس هذا الوضع ، بطبيعة الحال، على صورة الحياة المصرية آنذاك. ومن البديهى أنه كانت هناك فوارق بين الشرائح الإجتماعية داخل كل من هاتين الطبقتين ، بيد أن ذلك لايغير من الحقيقة القائلة بأن المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك قد انقسم إلى طبقتين من الحكام والمحكومين .

وإذا كان بعض الباحثين قد تصور وجود طبقة وسطى فى هذا المجتمع فإن ذلك يرجع ، فى تقديرنا ، إلى أن بعض فئات المصريين كانت على قدر من الثراء بفضل التجارة أو غيرها ، مما جعلهم يتميزون عن بقية الرعية ، وظهروا وكأنهم يحتلون مكانة وسطى بين الحكام بثرائهم الفاحش ، والشرائح الدنيا من الرعية بفقرها المدقع . ولكن الطبقة لاتتحدد بناء على مدى ثرائها فحسب وإنما بعلاقاتها مع السلطة من ناحية ، والرعية من ناحية ثانية . وفى هذا الصدد كانت علاقة المماليك برعاياهم ذات إتجاه واحد أيا كانت درجة ثرائهم ، فقد اعتبروهم مجرد رعايا خاضعين عليهم الغرم دائماً ، وليست لهم قبل الحاكم أية حقوق . ومن ناحية أخرى ، فإن طبيعة النظام الإقطاعى المملوكى قد أدت – على نحو ما سنرى – إلى تدهور إنتاجية الأرض الزراعية ، ومن ثم زاد معدل اعتماد المماليك على الرواتب النقدية التى

يتقاضونها من خزانة السلطان الذى زاد بالتالى معدل اعتماده على الضرائب ، والمصادرات التى أدت إلى تدهور أحوال كثيرين من الموسرين . وهكذا تحول معظم أبناء هذه الفئة إلى معدمين فى الشطر الأخير من ذلك العصر .

على أية حال ، فإن فرسان المماليك ، الذين جاءوا عبيداً إلى مصر وسوريا ، كان لهم وحدهم حق الحكم ، لأنهم كانوا يستأثرون بالرتب العليا فى الجيش المملوكى . وكان على أفراد هذه الطبقة عبء الدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية من جهة ، وحماية عرش السلطان ضد الأخطار الداخلية من جهة ثانية . وكانت هذه الطبقة تقوى نفسها على الدوام بما يجلبه تجار الرقيق إلى مصر من المماليك . وكان من الممكن أن تصل مشتروات السلطان فى عصر المماليك البحرية إلى حوالى ثمانمائة مملوك ، على حين أن مشتروات السلاطين من المماليك لم تزد عن مائتى أو ثلاثمائة مملوك فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر (١) وكان أولئك المماليك من جنسيات مختلفة ، كما أوضحنا من قبل .

وكان مماليك السلطان يعسكرون بالقاهرة حيث تكون القوة الرئيسية فى الجيش المملوكى . وكانت أعداد المماليك السلطانية تتكاثر حين يضم إليهم مماليك أسلافه من السلاطين أو من يغضب عليهم من كبار الأمراء . ولكن العلاقة بين السلطان والمماليك الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم عادة ما تكون أقوى من العلاقة بينه وبين غيرهم من المماليك . وكان السلاطين يولون عناية كبيرة لتربية مماليكهم وتدريبهم ، لأنهم كانوا بمثابة الحرس السلطانى الخاص . كما كان السلطان يختار لهم أعلى الوظائف قدراً وأكبرها إقطاعاً ، سواء فى البلاط أو فى الجهاز الحكومى . وفى البداية يقرر السلطان راتبا نقدياً وعينياً (من اللحوم والتوابل والخبز والأعلاف والزيت وغيرها) لكل من مماليكه فى كل شهر . وبعد أن يدخل الفارس فى زمرة الأمراء أصحاب

---

(١) E. Ashtor, A social and economic history of the Near East in the Middle Ages (Collins, London 1976), p. 282.

الإقطاعات بمنحه السلطان إقطاعاً من الأرض الزراعية تتزايد مساحته تزايداً طردياً مع ترقى الأمير المملوكى من أمير عشرة إلى أمير مائة أو أمير ألف أو غيرها من الرتب الكبيرة . وكان السلطان يمنح الفارس هذا الإقطاع فى إحتفال كبير بموكب سلطانى يطوف شوارع القاهرة وحين يصل الموكب إلى قبة المنصور قلاون يقوم الفارس بأداء اليمين لسيده (١) .

وكان الأمراء الكبار . وولاة الأقاليم ، يمتلكون جيوشا صغيرة من من المماليك تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمائة إلى ستمائة مملوك ، وقد تصل إلى ثمانمائة مملوك . إلا أن تدهور أحوال البلاد فى عصر الجراكسة ترك أثره فى هذا المجال أيضا ، ولم تعد جيوش الأمراء تزيد عن مائتى أو ثلاثمائة مملوك (٢). وكانت جيوش الأمراء تشكل الجزء الثانى من الجيش المملوكى العام ، إلا أنها غالبا ما كانت تتمركز فى الأقاليم خارج القاهرة . أما القسم الثالث من الجيش فكان يتألف من أجناد الحلقة ، وهم المقاتلين الأحرار من « أولاد الناس » (أى أبناء المماليك) والأعراب والتركمان ، وبعض المصريين الذين انضموا للجيش . والجدير بالذكر أن أجناد الحلقة قد فقدوا أية أهمية عسكرية فى عصر الجراكسة ، بل إن الكثيرين منهم تعرض لقطع إقطاعه أو جامكيته (راتبه الشهرى) فى أواخر ذلك العصر (٣) .

وكان المماليك يعتمدون على النظام الإقطاعى كما ورثوه عن سادتهم من بنى أيوب فى البداية . إلا أن النظام الإقطاعى المملوكى خضع لتطورات جوهرية ، لاسيما منذ عصر السلطان محمد بن قلاون (النصف الأول من

---

(١) العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٤٦ يتبع ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٩ .

(٢) Ashtor, op. cit. p. 283.

(٣) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر بأبناء العصر ، صفحات ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٣ ، صفحات ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٧.

القرن الرابع عشر) . وعلى أية حال ، فقد كان المماليك يعيشون على إقطاعاتهم التي كانت تتناسب تناسباً طردياً مع رتبهم العسكرية . وكان الإقطاع يتراوح ما بين نصف زمام قرية لجندى الحلقة ، وزمام عشر قرى للأمير المملوكى (١) . وكان ريع الإقطاع يتراوح ما بين ألف درهم وعشرة آلاف درهم للجندى فى القرن الخامس عشر ، وذلك بخلاف الضيافة التى كانت عبئاً إجبارياً على الفلاحين العاملين فى الإقطاع ، وقدر المقريزى الضيافة بحوالى خمسة آلاف درهم فى « الإقطاع الثقيل (٢) » . وفى بداية عصر سلاطين المماليك كان الإقطاع يتركز فى مكان واحد ، وبعد الروك الناصرى (٣) : أصبح الإقطاع يتفرق فى عدة جهات ، « فصار بعض الجبى فى الصعيد ، وبعضه فى الشرقية ، وبعضه فى الغربية : إتعاباً للجندى وتكثيراً للتكلفة . . . » (٤) وهو ما يكشف عن أن الإقطاع الواحد صار يتفرق فى أقاليم مختلفة من البلاد . والأهم من ذلك أن الإقطاع كان يتغير بتغير وظيفة صاحبه . والراجح أن السلاطين كانوا يقصدون من وراء ذلك عدم التمكين لنفوذ أى من الأمراء إذا ما استقروا فترة طويلة فى إقطاعات دائمة . وهو ما نجحوا فيه بالفعل .

بيد أن هذه السياسة التى سار عليها سلاطين المماليك فى منح الإقطاعات ، أثبتت ، على المدى الطويل ، أنها كارثة على الاقتصاد المصرى ، ذلك أن

---

(١) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٩ .

(٢) المقريزى ؛ الخطط ، جـ ١ ، ص ٨٤ – ص ٨٧ .

(٣) الروك كلمة قبطية الأصل كانت تستخدم فى عملية قياس الأرض وحصرها فى سجلات وتثمينها لتقدير الخراج وفقاً لدرجة الخصوبة . ويقابل الروك حالياً عملية فك الزمام وتعديل الضرائب . والروك الناصرى نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

(٤) المقريزى ؛ السلوك ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ ، الخطط ، جـ ١ ص ٨٩ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣ ، ص ٢٢٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : جـ ٩ ، ص ٤٣ .

الأمير أو الجندى صاحب الإقطاع كان يعلم مسبقا أنه لن يستقر به طويلا ، ومن ثم فإنه لم يكن يولى الأرض الزراعية أى اهتمام أو رعاية حقيقية .ومن هنا أهملت وسائل الرى والصرف . وتجلت النتائج الضارة لهذه السياسة فى الشطر الثانى من ذلك العصر ، حين لم تعد مياه الفيضانات العالية تكفى لرى كافة الأراضى الزراعية ، كما كثرت حوادث إنقطاع الجسور ، وعطش الأرض الزراعية نتيجة إهمال المماليك لوسائل ضبط النهر(١) . وكان لتدهور الإنتاج الزراعى ، بالتالى ، أثره على النظام السياسى الإقطاعى الذى قامت عليه دولة سلاطين المماليك . وبينما قل اعتماد المماليك على عائد الأرض الزراعية ، زاد معدل اعتمادهم على الرواتب النقدية والمخصصات العينية التى كان السلاطين يصرفونها لهم . وحين لم يستطع السلاطين إشباع مطالب المماليك كثرت حوادث الشغب والتمرد والاعتداء على الناس فى الشوارع والأسواق فى أواخر ذلك العصر الزاخر بالأحداث على نحو ماسنوضحه .

والجدير بالذكر أن العلاقات الإقطاعية فى مصر آنذاك كانت تختلف تماما عن العلاقات الإقطاعية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى. ففى أوربا كان هناك سلم إقطاعى حيث نجد سادة إقطاعيين وهم بدورهم أتباع لسادة آخرين ، مما كان يخلق مشكلة ولاء الفصل الإقطاعى لسيده الأدنى أو لسيده الأعلى فى حالة الحرب بينهما . والواقع أن تبعية الفارس الإقطاعى فى أوربا فى العصور الوسطى كانت لسيده المباشر(٢) . أما فى دولة المماليك ، فكانت تبعية الجميع للسلطان الذى كان بمثابة السيد الإقطاعى الأعلى . وبينما تحول الإقطاع فى أوربا إلى إقطاع وراثى ، مما مكن لقيام بيوتات إقطاعية قوية ناوأت الملكية وسلبتها كثيراً من حقوقها وسلطاتها السياسية والقضائية على

(١) قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، (دار المعارف ١٩٧٨) ، ص ١٨-٣٧.

(٢) Norman F. Cantor, The medieval history , (New york 1969), pp. 203 –23 .

الناس فى أوربا فى ذلك الحين ، فإن الإقطاع المملوكى الذى بدأ وراثيا ، مالبث أن تحول إلى إقطاع شخصى بحت ، وللسلطان وحده حق منحه أو إنتزاعه ، الأمر الذى أدى إلى عدم قيام أسرات إقطاعية وراثية قوية على نحو ماحدث فى الغرب الأوربى فى العصور الوسطى .

وإلى جانب الإقطاعات الزراعية كان البعض يأخذون « إقطاعات نقدية » ، هى عبارة عن إيراد ضريبة ما . أو الضرائب المحصلة من أحد الأسواق (١) . وقد حاول الناصر محمد بن قلاون إلغاء هذه الإقطاعات النقدية وقصر الإقطاعات على الأراضى الزراعية ، لكن نظام الإقطاعات النقدية لم يلبث أن فرض نفسه مرة أخرى على النظام الاقتصادى .

وكان طبيعيا أن يحتل هؤلاء المماليك المجلوبون عبيداً فى طفولتهم ، أعلى وظائف الدولة ، وهو الأمر الذى أدى إلى تكريس عزلتهم عن المجتمع الذى حكموه . فقد أحس المماليك أنهم أغراب عن البلاد ولم يحاولوا الإندماج فيها ، وفى حياة المصريين عموما . بل إن منهم من لم يتعلم اللغة العربية على الإطلاق . وثمة لهجة تركية كانت هى اللغة السائدة فى أوساط البلاط المملوكى ، وهى التركية التى كان أهل مملكة القرن الذهبى التركية يتحدثون بها (٢) . وعلى الرغم من أن المماليك بدأوا ينزلون من طباق القلعة ، ويسكنون القاهرة ويتزوجون من المصريات منذ عصر السلطان الظاهر برقوق (أواخر القرن الرابع عشر) (٣) ، فإنهم ظلوا على عزلتهم الاجتماعية . ذلك أن تركز وظائف الحكم والإدارة العليا فى أيديهم ، وكونهم أصحاب السلطة السياسية والقوة العسكرية فى بلد غريب عنهم ، جعلهم يتصرفون كأقلية عسكرية حاكمة تنأى بنفسها عن المشاركة فى الحياة المصرية إلا من خلال المواكب السلطانية والأعياد الدينية والعامة .

---

(١) انظر دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب .

(٢) Ashtor, A Social and economic hist., p.282.

(٣) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٢٣ .

كما أن المصريين ، من جهة أخرى ، لم يروا فى المماليك سوى طائفة من الغرباء الذين يحكمونهم بتفويض من الخليفة العباسى فى القاهرة، ويغلب على الظن أن مشاعر المصريين تجاه أولئك الغرباء ، الذين تولوا حكمهم على مدى أكثر من قرنين من الزمان ، كانت مزيجاً من الكراهية السياسية والعداء الاجتماعى ، والولاء الدينى بفضل الواجهة الدينية التى جعلت من المماليك حكاماً شرعيين مفوضين من الخليفة الذى كان دوره — فى الغالب — قاصراً على إضفاء الصفة الشرعية على من يجلس على عرش البلاد من أولئك المماليك . ولم تكن للخليفة من خلافته سوى الإسم (١)

وظلت جموع المماليك الذين كان تجار الرقيق يجلبونهم من شتى الأرجاء باستمرار تغذى المشاعر الإنعزالية فى نفوس أبناء الطبقة الحاكمة . بيد أن تطوراً حدث فى نظام تربية المماليك فى عصر الجراكسة. وذلك أن السلاطين والأمراء إستعاضوا عن المماليك الصغار الذين كانوا يخضعون لنظام صارم من التربية والتدريب بالمماليك من الشباب اليافع الذين تخطوا سن البلوغ . وقد عرف هؤلاء باسم « الجلبان » أو « الأجلاب » (٢) وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور أن ضعفت رابطة « الأستاذية » التى كانت تربط بين المماليك وسيدهم الذى كان له الفضل فى تربيتهم وتدريبهم منذنعومة أظافرهم، كما تخلخلت أواصر رابطة « الخشداشية » التى تجمع بين المماليك فى طائفة بعينها . ومن ناحية أخرى ، ضعفت سيطرة السلطان والأمراء على أولئك الجلبان مما أدى إلى كثير من حوادث الشغب والاضطراب والاقتتال التى كانت شوارع وأزقة القاهرة وغيرها من المدن المصرية مسرحا لها (٣). وساهم ذلك بمزيد من التدهور لاسيما فى أواخر ذلك العصر؟

---

(١) ابن الصيرفى : إنباء الهصر ، ص ١ ، ص ١١٥ .

(٢) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٢٥ —ص ٢٧ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٨٠ — ص ٢٨٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٦ ، ص ٩٦ — ص ٩٧ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٣ ، ص ٩٦ ، ص ٣٢٥ ، ص ٣٨٨ ، جـ ٥ ، ص ٤٦٥ .

أما أبناء المماليك الذين ولدوا فى مصر ولم يمسهم الرق ، فقد عرفوا فى مصطلح ذلك العصر باسم « أولاد الناس » . وكانت مكانتهم الاجتماعية أدنى من المماليك . وغالباً ما كان « أولاد الناس » هؤلاء ينصرفون عن الحياة السياسية والعسكرية التى يحيا آباؤهم فى ظلها ، ويختارون لأنفسهم حياة السلم والدعة . وقد يساهم بعضهم فى النشاط الثقافى لعصره . وقد برز من «أولاد الناس » عدد كبير من المؤرخين اللامعين فى تاريخ تدوين التاريخ عند المسلمين نذكر منهم على سبيل المثال « إبن أيبك الدوادار » ، « وخليل بن شاهين الظاهرى » ، « وصارم الدين بن دقماق » « و إبن تغرى بردى » و « إبن إياس » وغيرهم (١) . ويمكن تفسير هذه المكانة الاجتماعية لأولاد الناس فى ضوء الحقيقة القائلة بأن المماليك لم تكن لهم حياة أسرية بالمعنى المألوف ، ذلك أن وجودهم فى المجتمع المصرى لم يكن قائماً على أساس الأسرة كخلية أولية فى البناء الإجتماعى ، وإنما إعتمد وجودهم على القوة الذاتية لكل أمير ممثلة فى مماليكه الذين كانوا سنده وعدته فى الصراع المرتقب مع غيره من الأمراء . ومن ثم كان الأمراء يولون عنايتهم ورعايتهم الكاملة لمماليكهم . ولم يكن الأمير يتناول طعامه إلا مع مماليكه ، وكان يغضب ممن لا يأكل عنده منهم (٢) . وهكذا لم يكن لدى أمراء المماليك وقت لرعاية أبنائهم الذين كان يتركونهم لكى ينشأوا فى الحريم بعيداً عن الجو المملوكى ، أو فى « حجور النساء » على حد تعبير ذلك العصر .

وكان « أولاد الناس » يمضون أوقاتهم فى ممارسة بعض الألعاب والرياضات ، مثل الفروسية ولعب الكرة ورمى الرمح والنشاب وما إلى ذلك ، أو يختلفون إلى مجالس العلم ، كما كان بعضهم ينضم إلى الحلقة ليكون من جنود الجيش المملوكى . ومن ناحية أخرى ، كانت الثروات التى يرثونها عن آبائهم ، أو الإقطاعات التى كان السلاطين يمنحونها لهم تمكنهم من الحياة

---

(١) قاسم عبده قاسم وأحمد الهوارى ، الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث ، (الطبعة الأولى القاهرة ١٩٧٧) ، ص ٨٩ ، يتبع .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ ١٠ ، ص ٦٦ - ص ١٧٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ١ ص ٧٨ .

المرفهة الهانئة بحيث يمكن أن نلحقهم بالطبقة الحاكمة ؛ وإن عاشوا على هامشها. بيد أننا يجب أن نشير إلى أن «أولاد الناس» تعرضوا لمتاعب جمة فى غمرة التدهور العام الذى كانت الدولة تعانى منه فى أخريات أيامها(١) .

أما أحفاد المماليك ، فكانوا يحتلون مكانة اجتماعية أدنى من مكانة «أولاد الناس» وسرعان ما كان المجتمع المصرى يمتصهم ليذوبوا فيه بعد جيلين أو ثلاثة ، فيتفاعلون مع الحياة المصرية العامة ويبتعدون عن الطبقة الحاكمة.

وفى فلك هذه الطبقة العسكرية الحاكمة كان يدور بعض المصريين من الفئات التى كانت ترتبط بالمماليك بحكم دور أفرادها فى الحياة المصرية آنذاك. هؤلاء هم «أرباب الأقلام» من أصحاب الوظائف الديوانية الإدارية والمالية والقضائية. ولما كانت العلوم الدينية هى الأساس الذى كان التعليم يقوم عليه فى ذلك العصر ، فقد كان أولئك النفر المصريون من الفقهاء والعلماء بصفة خاصة ، وهو ما جعل بعض المصادر فى ذلك العصر تطلق عليهم مصطلح «أهل العمامة» أو «المتعممون»(٢) . والواقع أن أبناء هذه الطائفة قد لعبوا دوراً هاماً فى مساندة السلطة الحاكمة ، وقد حرصوا ، بشكل عام ، على تأكيد ولائهم للسلطان فقد كان من المعتاد فى ذلك العصر أن يصعد كبار القضاة والفقهاء مع بداية كل شهر إلى القلعة لتهنئة السلطان بالشهر الجديد (٣) . وتشهد تلك الطائفة الكبيرة من الفتاوى التى تضمنتها الوثائق التى وصلتنا من عصر سلاطين المماليك على أن السلاطين اعتمدوا كثيراً

---

(١) يذكر ابن الصيرفى (إنباء الهصر ، ص ٢١ — ص ٢٢) أن السلطان قايتباى لم يستطع فى سنة ٨٧٣ هجرية أن ينفق على أصحاب الجوامك من أولاد الناس ، ولذا فإنه عمد إلى اختبار قوتهم بنفسه لتجنيدهم فى إحدى الحملات أو مطالبتهم ببدل نقدى مما جعلهم يتمنون قطع جوامكهم » . . لأن غالبهم ما يملك عشاه ، ولا فرسا يركبه ، ولا بدلة يلبسها ثانية غير ما هو لابسه إن لم يكن استعاره ، ورمى بعضهم جامكيته (أى تنازل عنها) فلم يقبلوا منه ذلك ، والله الحاكم والمالك .. » . أنظر مزيداً من الأمثلة فى المصدر نفسه ، ص ٢٣ ، ص ٤٣ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ١١ ، ص ٣٧ ، ص ١٢٥ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٢٠٥ .

(٣) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ٨ — ص ٩ ، ابن إياس ؛ بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٤

على هذه الفتاوى فى كافة تصرفاتهم السياسية والاقتصادية والمالية والإدارية(١).

وهنا ينبغى أن نشير مرة أخرى إلى أن حرص سلاطين المماليك على الواجهة الدينية لحكمهم جعلهم يقربون «أهل العمامة» ضمن اهتمامهم بالمظهر الدينى عموما. وإذا كانت هناك بعض الحالات التى عارض فيها بعض الفقهاء أو القضاة أحد السلاطين ؛ فإن ذلك الاعتراض غالباً ماكان بوجه ضد محاولة النيل من إمتيازاتهم ، لا سيما عندما يحاول أحد السلاطين انتزاع الأوقاف المخصصة للمدارس والجوامع والبيمارستان والأسبلة وغيرها من المنشآت ذات الطابع الدينى أو الخيرى ، والتى كان الإهتمام بإنشائها من سمات عصر سلاطين المماليك . فقد حدث سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) أن عقد السلطان قايتباى مجلساً بالقلعة حضره قضاة القضاة والفقهاء وكبار رجال الدولة ، وشكى السلطان من أن الخزانة خاوية ، وإن الجيش يكلفه نفقات باهظة ولا يستطيع مواجهتها ، وأن الحل هو أن يستولى على أوقاف المساجد والجوامع ، وكاد الإجتماع ينتهى بالموافقة لولا أن تصدى أحد الفقهاء لمعارضة السلطان مما جعل المؤتمرون يتفرقون دون أن يتوصلوا إلى نتيجة (٢) ويتضح من هذا المثال ، وغيره ، أنه إذا كانت هناك بعض المواقف التى عارض فيها أحد المتعممين تصرفات السلاطين ، فالواضح من مصادر تلك الفترة أن مثل هذه التصرفات كانت أمثلة فردية تمثل شذوذاً على الموقف العام لأبناء هذه الفئة.

ولعل مما يؤكد ما ذهبنا إليه ما ذكره ابن إياس فى حوادث سنة ٩١٣ هجرية من أن أحد الشعراء المعاصرين كتب قصيدة يهجو فيها وكيل بيت المال لفساد ذمته . فشكاه الأخير إلى القاضى الذى أمر بضربه فهجاه

---

(١) مجموعة وثائق دير سانت كاترين ، وثائق رقم ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ . وانظر كذلك المقريزى ، السلوك ، ج٤ ، ص ١١٨٩ — ص ١١٩٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٥ ، ص ٣٣٨ حيث يذكر هذان المؤرخان أن السلطان الظاهر جقمق استصدر فتوى من القضاة الأربعة بجواز أخذ الضرائب من التجار فى مكة وجدة بحجة أن هذه الأموال تنفق على تجهيز القوات اللازمة لحماية هاتين المدينتين .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٣٤ — ص١٥ ، ص٢٤ ؛ ابن الصيرفى إنباء الهصر ، ص ١٢ — ٣٤ .

الشاعر بقصيدة « دارت بين الناس » فشكاه القاضى إلى السلطان الغورى وتعصب جميع القضاة والفقهاء ضد الشاعر الشعبى وأرادوا ضربه بالسياط وإشهاره بالقاهرة (١) ، ولكن جماعة كثيرة من العوام تعصبوا للشاعر جمال الدين السلمونى وأرادوا أن يرجموا قاضى القضاة . وإزاء ذلك أضطر إلى إعفاء السلمونى من عقوبة التشهير ، وحكم بسجنه مدة طويلة . والجدير بالذكر أن الأبيات التى أوردها ابن إياس من قصيدة السلمونى تحمل نقداً مريراً ولاذعاً لفساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر آنذاك ، فضلا عن فساد ذمم القضاة وقبولهم الرشوة واستيلائهم على أموال الأوقاف (٢).

وسواء كان أهل العمامة يعملون فى الوظائف التى عينهم السلاطين فيها ، أم كانوا يقومون بالتدريس فى مختلف المدارس المنتشرة فى أرجاء البلاد ، فقد كان عليهم أن يتعاونوا مع المماليك . وكان المتعممون يتمتعون بحياة رغيدة هانئة ، ويقتنون الثروات الطائلة التى كانت الأوقاف الكثيرة – التى يشرفون عليها – توفرها لهم .

ولعل من المفيد فى هذا المقام أن نشير إلى أن مصطلح « أهل العمامة » لا يعنى أن هذه الفئة كانت هى الفئة الوحيدة التى كان أبناؤها يرتدون عمامة فوق رؤوسهم ، وإنما يعنى هذا أن عمائمهم كانت أكبر فى حجمها من عمائم الآخرين ، وهو ما يتوافق مع مفاهيم ذلك العصر الطبقية التى كانت تجعل حجم العمامة يتناسب تناسباً طردياً مع مكانة الشخص

---

(١) التشهير عقوبة من العقوبات التى كانت شائعة فى عصر المماليك ، وكان يطاف بالشخص المراد إشهاره على حمار أو ثور ويضرب الجرس على رأسه ، وينادى عليه ليجتمع الناس حوله ، وأحيانا يزفه المغنون « ويوضع فى عنقه ماشة وهون » . وفى نهاية المطاف يجلد بالسياط وسط جمع من الناس . أنظر سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٩٩ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ١١٣ – ص ١١٤ .

الاجتماعية (١) . كما أن بعض الباحثين يذكر أن العمامة لم تكن حتى القرن السابع الهجرى (١٣ م) جزءاً مكملا لزى القاضى ، وإنما كانت القلنسوة تستخدم بدلا منها(٢). بيد أن ملابس المتعممين عموماً كانت تعبر عن مستواهم الاجتماعى ، سواء كانوا من رجال الدولة أو من صغار الفقهاء (٣) . وكان الفقهاء يتمسكون بهذا الزى ولا يجلسون لإلقاء دروسهم إلا به مما أثار استياء بعض المعاصرين الذين رأوا فى تمسك هؤلاء بالمظهر فقط آفة من آفات المجتمع المصرى(٤).

وكان أبناء الشريحة العليا من أهل العمامة يتقاضون مرتبات عينية ونقدية من الديوان السلطانى . وقد تمسكوا بمظاهر الحياة المترفة المنعمة ، فكانو يركبون الخيول المسومة ويرتدون الثياب الغالية ، ويغشون مجالس السلاطين والأمراء (٥). وهو ما يكشف عن أن القضاة والفقهاء – لاسيما الكبار منهم – قد وضعوا مصالحهم فى سلة واحدة مع مصالح الطبقة الحاكمة .

ومن المهم أن نشير إلى أن التدهور العام فى أواخر ذلك العصر ، ترك آثاره السلبية على أهمية كبار المتعممين بالنسبة للمماليك . فكان المتعممون يتعرضون من آن لآخر لمظاهر الإمتهان ، ويمنعون من ركوب الخيول التى كان ركوبها إمتيازاً للطبقة العسكرية الحاكمة فقط (٦). كما

(١) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧٩) ، ص ١٥٧ ص ١٥٩ .

(٢) ل . ا . ماير ، الملابس المملوكية ، (ترجمة صالح الشيتى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢) ، ص ٨٩ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٩٠ – ص ٩٩ حيث يتعرض بالتفصيل لملابس المتعممين .

(٤) ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ص ١٣٦ .

(٥) ابن حجر ، إنباء الغمر بأبناء العمر ، جـ ٢ ، ص ٢٥٩ .

(٦) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، جـ١ ، ص ٧٨ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص ١٣ .

تعرضت مرتباتهم للقطع والمنع مرات عديدة نتيجة عجز ميزانية الدولة المستمر فى أخريات أيامها (١).

وثمة فئة أخرى عاشت على هامش الطبقة الحاكمة بحكم عملها فى الجهاز الإدارى والمالى لدولة سلاطين المماليك ، هم فئة المحاسبين والماليين من أهل الذمة الذين عملوا فى خدمة الديوان السلطانى ودواوين الأمراء . وقد احتل أهل الذمة المصريون مكانهم فى الجهاز الإدارى والمالى للدولة بحكم أنه كانت قد تكونت منهم فئة من الخبراء فى هذه النواحى بحيث لم تكن الدولة قادرة على الاستغناء عنهم على الرغم من كافة المحاولات التى بذلت فى هذا السبيل (٢).

وقد فزع المعاصرون من نفوذ أهل الذمة الناتج عن توليهم لوظائف الإدارة المالية ، فقد اتهموهم باستغلال نفوذهم ضد المسلمين ولصالح أبناء طوائفهم(٣). ومن ناحية أخرى ، فإن ما بلغه أهل الذمة العاملون فى الجهاز الإدارى والمالى للدولة من ثراء ونفوذ كان يسبب لهم المتاعب من قبل السلاطين الذين كانوا يصادرون ثرواتهم . كما كان عامة المصريين المطحونين تحت وطأة الضرائب أو « المظالم » يضغطون على السلاطين لكى يطردوا الموظفين الذميين .

هذه هى الطبقة الحاكمة ، والفئات التى كانت تعيش فى جوارها وتدور فى فلكها من كبار الموظفين العاملين فى الجهاز الحاكم سواء كانوا من الفقهاء أو من أهل الذمة . أما الرعية فكانت تشمل صغار التجار والفقهاء ، وأصحاب الحرف والصنائع والفلاحين ، وعامة أهل المدن . وإذا كان ثمة تدرج فى المستوى الاقتصادى بين الشرائح الاجتماعية داخل الطبقة

---

(١) ابن الصيرفى : إنباء الهصر ، ص ٢٣٠ ، ص ٤٣٠ ، ابن إياس ، بدائع الزهور جـ٣ ، ص ٣٣ ، جـ٤ ، ص ١٤ .

(٢) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة ، ص ٨٤ ، يتبع .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٨٥ .

المحكومة ؛ فإن الجميع كانوا رعايا من وجهة نظر طبقية أفرزها البناء الإقطاعي لمصر فى عصر سلاطين المماليك . هذا البناء الذى حدد لكل فئة من فئات المصريين مكانتها الاجتماعية ، بما يرتبط بهذه الفئة من عادات وتقاليد أو ملابس أو ممارسات اجتماعية . وقد عاش المصريون بكل فئاتهم يمارسون حياتهم اليومية بمعزل عن الطبقة الحاكمة التى لم يكن يربطهم بها شيء سوى الضرائب التى كان يفرضها عليهم السلاطين أو أحداث العنف التى يفرضها المماليك على حياتهم ، وقد يروح بعضهم ضحية لها ، من آن لآخر .

ويمكن أن نتابع بعض مظاهر حياة المصريين اليومية ، وأن نتعرف على بعض عاداتهم وتقاليدهم من خلال بعض الدراسات التى تتناول ، بالتفصيل ، بعض جوانب الحياة المصرية فى ذلك العصر .

الأسواق والحياة اليومية

أسباب النمو السكانى فى بداية عصر المماليك – المدن المصرية وأسواقها – أسواق العاصمة – أسواق الأقاليم – الأسواق المؤقتة – التقسيم النوعى للأسواق – كيفية تنظيم السوق – الباعة الجائلون – علاقة الدولة بالأسواق – الأسواق ومظاهر الحياة اليومية – أسباب تدهور حركة الأسواق منذ القرن الخامس عشر : تدخل الدولة – النظام السياسى – تدهور النقد – حالة الأمن – الأوبئة والمجاعات – التدهور السكانى .

شهدت مصر مع بداية سلاطين المماليك نمواً سكانياً كبيراً ، وكان ذلك النمو السكانى راجعاً إلى حد بعيد إلى أن مصر عاشت فترة سلام امتدت أكثر من مائة سنة . وفى عصر المماليك البحرية ، الذى يمثل خط الصعود فى تاريخ المماليك، كان النظام السياسى راسخا ، كما كانت القوة العسكرية للمماليك بمثابة الدرع الواقى لهذا النظام الذى شاده فى مصر وسوريا أولئك العبيد على أنقاض دولة سادتهم الأيوبيين . *

ومنذ بداية ذلك العصر الزاخر الأحداث استطاعت مصر أن تصد الهجمة التترية الشرسة . قبل أن تستطيع هذه الجحافل الظالمة اختراق الحـــدود المصرية . وهو ما يعنى أن جماهير المصريين نجت من تلك المذابح الجماعية المرعبة التى اقترنت بالغزو التترى ، ومن ثم استطاعت مصر أن تحتفظ بمعدل ثابت للنمو السكانى . وفى الداخل انعكست حالة الرواج والرخاء على خط النمو السكانى الذى بدأ صعوده بشكل مطرد حتى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) .

ومن ناحية أخرى ، فإن حقيقة أن مصر فى ذلك الزمان قد صارت هى المعقل الأخير للحضارة الإسلامية – على حين كان العالم الإسلامى فى الشرق والغرب يتعرض لضربات موجعة من التتر ومسيحيى غرب أوربا – تفسر لنا سبب هذه الهجرات الكثيرة التى جاءت إلى مصر آنذاك : فقد دفعت الغزوات التترية بالكثيرين من سكان العراق والشام إلى مصر ، كما

أن حرب الاسترداد الأسبانية دفعت بعدد آخر من مسلمى الأندلس إلى مصر . كذلك تشير مصادر تلك الفترة إلى بعض الهجرات المغولية والكردية والتركمانية التى وفدت إلى مصر فى عصر المماليك البحرية . فقد جاءت إلى مصر طائفة من المغول أبناء القبيلة الذهبية التى كانت ترتبط مع مصر بعلاقات الود والصداقة فى عصر السلطان السلطان بيبرس . وقد استقدم السلطان العادل كتبغا عدداً كبير منهم(١) . وبالإضافة إلى ذلك جاءت إلى مصر فى بداية عصر المماليك بقايا جيش الخلافة العباسية ، وبعض المحاربين الأكراد الذين تجاوز عددهم بضعة آلاف .

هذه الهجرات كان لهـا تأثيرها ، بطبيعة الحال ، على معدل النمو السكانى . ذلك أن وجود مثل أولئك المهاجرين إلى مصر كان يمثل زيادة طارئة فى أعداد السكان .

على أية حال ، فإن بعض الباحثين المحدثين يقدر عدد سكان مصر فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى بحوالى ثلاثة ملايين نسمة ، على حين يقدر باحث آخر عدد سكان القاهرة فى الفترة نفسها بحوالى سمائة ألف نسمة(٢) . وتبدو لنا هذه الأرقام معقولة تماماً فى ضوء ما نعرفه من مصادر تلك الفترة عن المدن المصرية عموماً ، ومدينة القاهرة بصفة خاصة فضلا عن عدد قرى مصر آنذاك وكان يقترب من ألفين وخمسمائة قرية(٣) .

كانت المدن المصرية فى ذلك الحين مدناً كبيرة واسعة ، كثيفة السكان غاصة بكافة المنشآت الدينية والاجتماعية ، مثل القياسر والخانات والمساجد والأسبلة والأضرحة وغيرها . والواقع أن كتابات الرحالة

---

(١) ابن أيبك ، كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٨ ، ص ٣٦١ ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ، جـ٢ ، ص ١٩٤ – ص ١٩٩ حيث يورد تفصيلات الهجرات المغولية وأعدادها .

(٢) Ashtor, A Social and economic hist., pp.286 – 291.

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٧٣ ، ؛

الشرقيين والغربيين الذين زاروا مصر فى تلك الفترة تشير إلى هذه الحقيقة بشكل أو بآخر . فابن بطوطة ، على سبيل المثال ، يذكر فى رحلته الشهيرة من أوصاف المدن المصرية ما يؤكد انبهاره بها(١) ، كذلك فإن بعض الرحالة الغربيين قد بهرتهم المدن المصرية الكبيرة الحجم . لا سيما وأن مدن أوربا كانت ما تزال مدنا صغيرة المساحة قليلة السكان حتى ذلك الحين . فهاهو بيلوتى الكريتى Pilotê de Crête ، مثلا ، يصف القاهرة بأنها أكبر مدينة فى الدنيا(٢) كما أن الرحالة بيرو تافور Tafur تحدث عن القاهرة بنغمة إعجاب مشابهة (٣) كما تحدث عن غيرها من المدن المصرية مثل دمياط(٤) ورشيد والإسكندرية(٥) وعلى الرغم من أن زيارة كل من بيلوتى الكريتى ، وتافور لمصر قد حدثت فى القرن الخامس عشر فإن كلامهما يكشف عن مدى كبر حجم العاصمة وغيرها من المدن المصرية .

هذا النمو السكانى انعكست نتائجه فى أسواق البلاد المصرية التى كان عددها كبيراً من ناحية ، كما كانت تموج بالحركة والنشاط وتكتظ بأصناف البضائع من ناحية أخرى .

ونستطيع من خلال مصادر ذلك العصر أن نلاحظ أنه كانت لكل مدينة من المدن المصرية أسواقها الخاصة بها . وكان لبعض تلك المدن عدة أسواق ، قد تزيد أو تقل حسب مساحة المدينة . فقد كان لأخميم وإسنا وغيرهما من مدن الوجه القبلى أسواقها المزدهرة . وفى الوجه البحرى

---

(١) ابن بطوطة ، الرحلة ، (دار التراث بيروت ١٩٦٨) ، ص ١٦ ، ص ٢٤ - ص ٣١ . وأنظر أيضا ماذكره عن مدينة القاهرة ص ٢١ - ص ٢٥ .

(٢) Dopp (P.H.), L'Egypte au commencement du quanziémesiécle,p.3.

(٣) تافور ، الرحلة ، ص ٦٢ - ص ٦٤ ، ص ٩٧ - ص ٩٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ٥٩ - ٦٠ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٩٩ - ص ١٠٠ .

كانت لكل مدينة أسواقها الخاصة بها(١) . وقد ذكر ابن دقماق أن مدينة المحلة كانت « قصبة إقليم الغربية من الديار المصرية » ، وهو ما انعكس على أسواقها الكثيرة الرائجة ، كما أن مدينة قليوب كانت تمد أسواق القاهرة بمعظم حاجاتها من الفواكه والألبان ومنتجاتها(٢) .

كذلك فإن ما ذكره بيرو تافور عن المدن المصرية التي زارها(٣) ، وما ذكره ابن بطوطة من أن المسافر على صفحة نهر النيل لا يحتاج إلى أن يحمل معه زاداً « ... لأنه مهما أراد النزول للشاطىء سيجد سوقاً يشترى منه ما يريد ... والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر ومن مدينة مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد ... »(٤) — هذا الكلام يؤكد حقيقة أن مدن مصر فى ذلك الحين كانت لها أسواقها الدائمة والمزدهرة فى بداية عصر سلاطين المماليك . وهى الحقيقة التى يؤكدها أيضاً ما ذكره المؤرخ تقى الدين المقريزى فى خططه وهو يتحدث عن بلاد الوجه البحرى(٥) .

والواقع أن أسواق الأقاليم والقاهرة قد تشابهت من حيث نظامها(٦) ، وإن كان من الواضح أن بعض الأسواق التى وجدت بالعاصمة لم يكن لها نظائر بالأقاليم مثل سوق السلاح ، وسوق المهامزيين وغيرهما من الأسواق التى تخصصت فى بيع لوازم الجيش المملوكى ، وأبناء الطبقة الحاكمة .

ويبدو من مصادر تلك الفترة أن الريف المصرى قد عرف الأسواق

---

(١) ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ٥ ؛ صفحات ٢٥ — ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٧ — ٤٨ ، ٧١ ، ٨١ — ٨٢ ، ٩٢ ، ٩٩ — ١٠١ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ٥ ، ص ٩٩ — ص ١٠١ .

(٣) تافور ، الرحلة ، ص ٦٣ — ص ٦٤ .

(٤) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣١ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٦٢ .

(٦) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى : ص ٨٦ — ص ٨٨ .

الدورية التى كانت تقام فى يوم معين من أيام الأسبوع (١) ، وهذا النوع من الأسواق الدورية مايزال معروفاً فى الريف المصرى ، وبعض مدن الأقاليم حتى يومنا هذا .

وبخلاف أسواق العاصمة وأسواق الأقاليم ؛ عرفت مصر أيام المماليك نوعا من الأسواق الموقتة التى كانت تقام فى مواقع التجمعات حيث يجتمع عدد كبير حول مناسبة بعينها ، سواء فى مولد أو احتفال دينى ، أو لبناء جسر على النيل أو شق ترعة ، أو لبناء جامع أو مدرسة(١) . كما كانت الأسواق تقام فى ميادين الحروب لتقدم المحاربين مايحتاجونه ، نظراً لأن جيوش تلك العصور لم تعرف أسلحة الخدمات التى تعرفها الجيوش الحديثة .

والواقع أن الأسواق المصرية فى ذلك العصر عرفت نوعاً من التخصص فى نوع البضائع التى يبيعها كل منها . وهو مايبدو متسقاً مع طبيعة الحياة الاجتماعية آنذاك ، إذ كان أبناء كل طائفة حرفية يسكنون حارة ، أو حياً ، يعرف بأسمهم . ويضيق بنا المقام عن محاولة إحصاء كل أسواق القاهرة ، ومن ثم فإننا سنكتفى بتقسيمها إلى مجموعات نوعية ، بمعنى أن تكون أسواق المواد الغذائية فى مجموعه ، على حين تكون أسواق الملابس ومستلزماتها فى مجموعة ثانية ، ونضع أسواق تجهيزات السفر فى مجموعة ثالثة ... ، وهكذا .

ويجدر بنا أن أن نلاحظ أن أسواق المواد الغذائية كانت منتشرة فى جميع أنحاء البلاد سواء فى القاهرة أو الأقاليم ؛ وهو أمر يتمشى بالضروة مع توزيع التجمعات السكانية . وفى القاهرة كان هناك عدد كبير من أسواق المواد الغذائية . وقد لفتت انتباه الرحالة « بيروتافور » فقال « ان

---

(١) ذكر المقريزى (الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠٥) أنه كان للجيزة فى كل يوم أحد سوق عظيم « ... يجىء إليه من النواحى أصناف كثيرة جداً ، ويجتمع فيه خلق عظيم ... » .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٥١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ : ص ٢٦ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ص ٢١٤ ، ص ٢٧٥ .

أحسن وأبهى وأروع شيء يراه المرء فى القاهرة هو سوقها الذى تعرض فيه آكداس هائلة وكميات ضخمة من شتى البضائع الواردة من الهند ... » (١) .

وكان سوق باب الفتوح واحداً من أشهر تلك الأسواق ، ويبدو أنه كان سوقاً جامعاً لأن الناس كانوا يقصدونه « ... من أقطار الأرض لشراء أنواع اللحمان الضأن والبقر وشراء أصناف الخضروات ... » . كذلك أشتهر سوق حارة برجوان الذى كان من أكبر أسواق القاهرة بتوفير اللحم بأنواعه ، كما كان به عدد كبير من الزياتين والجبانين والخبازين واللبانين والطباخين والشوائين والعطارين والخضريين ، بل كان بهذا السوق حانوت لايباع فيه سوى حوائج المائدة من البقل والكرات والشمار والنعناع (٢) . والجدير بالذكر أن المؤرخ ابن الصيرفى الذى عاش فى أواخر القرن التاسع الهجرى (١٥م) قد عدد لنا أصناف اللحوم والجبن التى كانت تباع فى مصر آنذاك(٣) . مما يكشف عن حال من الرواج والرفاهية النسبية التى يمكن أن نستنتج أن المصريين عاشوا فى ظلها فى بداية ذلك العصر كما يتضح من تعدد هذه الأصناف وكثرتها . ذلك أن الفترة التى يتحدث عنها ابن الصيرفى كانت فترة تدهور واضمحلال اقتصادى ، ومع ذلك كان هناك هذا التعدد فى منتجات اللحوم والأجبان ، وهو مايدفعنا إلى التساؤل عما كانت عليه الحال أثناء فترة الرواج والإزدهار السابقة .

أما الطيور والدواجن فكانت تباع فى «سوق الدجاجين» الذى كانت تباع فيه كميات كبيرة من الدجاج والأوز ، كما كانت تباع به أيضاً طيور الزينة (٤) .

---

(١) تانور ، الرحلة ، ص ٩٧ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٣ — ١٠٦ .

(٣) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ١٨٧ — ص ١٨٨ — ص ٤٧٧ .

(٤) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٩٣ — ص ١٠٦ .

ويبدو أنه كان فى القاهرة سوق مركزى للفاكهة، هو « دار التفاح » أو « دار الفاكهة » التى كانت الفواكه التى تنتجها البساتين المصرية ، والفواكه المستوردة من بلاد الشام ترد إليها . ومن هذا السوق المركزى يتم توزيع الفاكهة على أسواق القاهرة وضواحيها . وقد بنى هذا السوق بعد سنة ٧٤٠ هـ. ثم بنيت حولها عدة حوانيت لبيع الفاكهة التى كان الباعة يرتبونها فى شكل بديع وحولها الزهور . وكان هناك سقف من القماش يصل ما بين تلك الحوانيت لحماية الفواكه من حرارة الشمس(١).

وتحفل مصادر عصر سلاطين المماليك بأسماء وأخبار عدد كبير من الأسواق التى تخصصت فى بيع المواد الغذائية ، والتى انتشرت بجوار الأحياء السكانية . ولم تكن الحركة تنقطع ليلا أو نهاراً فى بعض الأسواق المقامة فى الأحياء ذات الكثافة السكانية العالية (٢).

أما أسواق الملابس ولوازمها : فقد تنوعت ما بين الأسواق المتخصصة فى بيع الخلع والتشاريف التى كان السلطان يمنحها للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم ، مثل « سوق الشرابشيين » (٣) الذى كان به عدد من التجار يشترون هذه الخلع والتشاريف ويبيعونها لديوان الخاص السلطانى وللأمراء، ومثل « سوق الحوائصيين » الذى كانت تباع به فى بداية عصر المماليك المناطق التى يتمنطق بها الجنود حول أوساطهم، وما بين الأسواق التى كانت تباع بها الثياب المستعملة مثل « سوق الخلعيين » ، والأسواق التى تباع بها لوازم الحياكة مثل « سوق الأبارين » ، الذى كانت تباع به إبر الخياطة وغيرها(٤) كذلك كان هناك سوق متخصص فى بيع الجوخ

(١) المقريزى – الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٣، السلوك، جـ ١، ص ١٨٤ ، جـ ٢، ص ٤٠٠.

(٢) أنظر ما ذكره المقريزى عن « سوق المتعيشين » ، وسوق « خط بين القصرين » على سبيل المثال (الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٤ ، جـ ٢ ، ص ٢٧ – ٢٨).

(٣) الشرابشيين نسبة إلى الشربوش ، وهو لباس رأس مثلث بدون عمامة : وقد بطل استخدامه فى دولة الجراكسة – أنظر الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٧ – ص ٩٨ ؛ ماير ، الملابس المملوكية ، ص ١٠١ يتبع .

(٤) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ص ٩٣ – ص ١٠٦ ، ص ٣٤ .

المستورد من أوربا ، والذى راج إستخدامه نتيجة التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية السلبية فى عصر الجراكسة على نحو ما سنرى فى الصفحات القادمة .

كذلك كانت هناك أسواق خاصة بلوازم الجنود من الأسلحة ومعدات الركوب وما إلى ذلك ، فقد كان سوق السلاح — الذى أنشئ فى العصر الأيوبى بين القصرين — محلا لبيع أدوات القتال من الرماح والقسى والنشاب والزرديات والسيوف والخناجر وغيرها . ويتصل بهذا السوق ويقترب منه « سوق المهامزيين » الذى كانت حوانيته تبيع المهاميز التى تستخدم فى ركوب الخيل . كذلك كان هناك سوق تباع به أدوات اللجم وغيرها من المعدات الجلدية التى تستخدم لركوب الخيل وغيرها من الدواب ، وهو « سوق اللجميين » الذى كان مجاوراً لسوق المهامزيين ، وكان به عدد من صناع الطلاء ، والكفت (التطعيم بالمعدن) ، وصناع السروج ولوازمها(١) .

وفى عصر المماليك كان بالقاهرة عدد من أسواق لوازم السفر ، مثل « سوق المرحليين » الذى كان يزدهر أيام موسم الحج ، وكانت تباع به أدوات تجهيز الجمال التى كانت وسيلة المواصلات البرية الوحيدة للمسافات الطويلة ، وكان هذا السوق من الضخامة بحيث أنه كان يمكن تجهيز أكثر من مائة جمل فى يوم واحد منه . ويماثله فى هذا « سوق المحايريين » ، الذى كانت تباع به المحاير التى يسافر فيها الناس إلى الحجاز وبيت المقدس . وفى مرحلة متأخرة من عصر المماليك أنشئ سوقان آخران لبيع المحاير ، أحدهما بسوق جامع أحمد بن إطولون ، والثانى « بسوق الخيميين » . ويبدو أن تجار ذلك السوق لم يكونوا يهتمون بزبائنهم على اعتبار أن المرء لا يطرق سوقهم سوى مرة واحدة فى العمر (٢) .

---

(١) أنظر المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٦ — ص ٩٧ حيث أورد عدة معلومات مفيدة عن تطور صناعة السروج فى عصر سلاطين المماليك .

(٢) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٩٦ — ١٠٣ .

أما الأسواق التى كانت تباع بها حاجات الناس اليومية ، فكانت كثيرة ومتنوعة . فقد كان هناك « سوق الصنادقيين » الذى كانت تباع فيه الصناديق والخزائن والأسرة وغيرها من المصنوعات الخشبية التى كانت أهم قطع الأثاث الذى يستخدمه المصريون فى بيوتهم فى ذلك الحين . كذلك كان هناك « سوق العنبريين » الذى أنشأه السلطان المنصور قلاوون مكان أحد السجون وفاء لنذر كان قد قطعه على نفسه . وفى البداية كان هذا السوق يموج بالحركة والازدهار والرواج لأن المصريين على إختلاف مشاربهم كانوا مولعين بالعنبر ، ولكن الغش عرف طريقه إليه فى أخريات القرن الثامن الهجرى (١٤ م) حتى بات إسماً لا يعنى شيئاً .

كذلك كان « سوق الشماعين » من الأسواق التى يتعامل معها المصريون فى حياتهم اليومية ، على الرغم من أن هذا السوق كان يزدهر فى مواسم معينة : وكانت حوانيت هذا السوق تظل مفتوحة حتى منتصف الليل مما كان يغرى الناس باتخاذها أماكن للنزهة .

ومن البديهى أن الأسواق التى ذكرناها لا تمثل كل الأسواق التى عرفتها البلاد فى ذلك الحين ، وإنما هى أمثلة على مدى التنوع فى أنماط هذه الأسواق . وربما يكون من المفيد أن نقرر أننا لم نقصد إحصاء هذه الأسواق ، وإنما التعرف على طبيعة أسواق مصر فى ذلك الزمان .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن كثيراً من أسواق القاهرة آنذاك — وأسواق المدن الأخرى بطبيعة الحال — قد تعرضت لتغيرات نوعية ومكانية بحكم التطورات التى طرأت على المجتمع المصرى آنذاك ، مما كان يؤدى إلى إندثار بعض الأسواق القديمة وظهور أسواق جديدة من ناحية ، أو إلى تغيير أسماء بعض الأسواق نتيجة تغير نشاطها أو بسبب سكنى أبناء طائفة حرفية جديدة من ناحية أخرى . مثال ذلك أن « سوق الشوايين » كان يسمى فى البداية « سوق الشرابشيين » ، ولكن بعض بياعى الشواء سكنوا

السوق فى أوائل القرن الثامن الهجرى فأصبح يعرف بهم . ثم تغير إسم السوق مرة أخرى إلى « سوق الغرابليين » (المغربلين) فى القرن التاسع .

كما ينبغى أن نلاحظ أن أسماء الأسواق لم تكن دائماً مشتقة من نوع النشاط الذى يقوم به أصحاب السوق ، بل كانت هناك أسواق إتخذت أسماءها من الأماكن التى أقيمت بها مثل سوق جامع بن طولون ، وسوق الخانكاه ، وسوق حارة برجوان ، وسوق باب الفتوح وغيرها . كما كانت لبعض الأسواق أسماء أشتقت من أسماء بعض الجماعات التى سكنت مصر فى ذلك الحين ، مثل « سويقة العراقيين » ، و« سويقة المغاربة » و« سويقة اليهود » التى ذكر ابن دقماق أنها صارت خربة فى زمانه (١) . وقد حملت بعض الأسواق أسماء أشخاص مثل « سويقة معتوق » و « وسويقة ابن العجمية » و « سوق وردان » التى تنسب إلى وردان مولى « عمرو بن العاص » والتى ذكرها « ابن دقماق » ضمن أسواق الفسطاط (٢) . كذلك كانت لبعض الأسواق فى ذلك العصر أسماء طريفة مثل « سوق البراغيث » و « سوق لحاف (٣)» « وسوق العياطين» (٤) .

ويبدو من كلام ابن دقماق والمقريزى(٥) عن أسواق ذلك العصر

---

(١) تنسب « سويقة العراقيين » إلى العراقيين الذين سيرهم زياد بن أبيه من العراق (ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٦٤) . ولم يشر ابن دقماق إلى تاريخ خراب سويقة اليهود ، كما أنه لم يخبرنا عما إذا كان قد تجدد غيرها أم لا (نفسه ، ص ٢٢) .

(٢) ابن دقماق ، الإنتصار ، جـ ٤ ، ص ١٤ ، ص ٣٢ – ص ٣٤ .

(٣) المصدر نفسه والجزء والصفحة نفسها .

(٤) ذكر المقريزى فى خططه (جـ ٢ ، ص١٠٦) أن السبب فى تسمية السوق بهذا الإسم يرجع إلى أن ناظر الخاص السلطانى فى عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاون طرح على تجار هذا السوق كمية من عسل القصب (أى أجبرهم على شرائها بالسعر الذى يحدده)، وكانت الأسعار التى طلبها باهظة فوقف التجار فى طريق موكب السلطان « وعيطوا » حتى اعفاهم ، وسمى السوق منذ ذلك الحين باسم سوق العياطين . وفى ذلك الوقت كانت كلمة « عياط » عند المصريين تعنى الصياح .

(٥) ابن دقماق ، المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٣٢ يتبع ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

أن هذه الأسواق كانت تقـام فى أماكن يراعى أن تكون للسوق منافذ متعددة حتى يسهل على رواده أن يدخلوا إلى السوق ويخرجوا منه ، كما يتضح أيضاً أنه كانت لبعض الأسواق مخازن خاصة بها . كذلك عرفت الأسواق المصرية فى عصر المماليك نظام الصيارفة ، الذين كانت مهمتهم استبدال العملات وتغييرها لرواد الأسواق ؛ فقد ذكر المقريزى أن الصيارفة كانوا يجلسون فى حوانيتهم طيلة النهار على باب سوق السلاح(١) .

وإلى جانب الأسواق عرفت الحياة المصرية آنذاك الباعة الجائلين الذين كان بعضهم يفترشون أرض الأسواق ببضائعهم ، على حين كان البعض الآخر يتجولون بما يحملونه من بضاعة فى شوارع وأزقة المدن المصرية .

أما الباعة الذين كانوا يفترشون أرض الأسواق ببضاعتهم فقد عرفتهم مصادر تلك الفترة باسم « أرباب المقاعد » . وكان أولئك يبيعون مختلف البضائع من المأكولات و المشروبات والفواكه والخضروات أو الخواتم والأساور وغيرها من لوازم زينة النساء . ففى سوق السلاح كان أولئك الباعة من أرباب المقاعد يفترشون السوق أمام حوانيت بيع السلاح وحوانيت الصيارفة . وإذا ما أقبل الليل أشعلوا المشاعل التى تضفى على المكان جواً بديعاً كان يغرى الناس باتخاذ هذا السوق مكاناً للنزهة فى أمسيات الصيف . وفى القصبة — التى كانت الشارع التجارى الرئيسى فى القاهرة آنذاك — كان أرباب المقاعد يجلسون على طول الشارع « ... **بأطباق الخبز وأصناف المعايش** ... » (١)

وقد وجد بالقاهرة فى ذلك العصر سوق بأكمله خصص لهذا النوع من الباعة الجائلين وهو « سوق القفيصات » الذى كان الباعة يجلسون فيه ، تجاه القبة المنصورية ، على تخوت عليها أقفاص صغيرة (قفيصات) من الحديد ، وقد شبك عليها الخواتم والفصوص ، وأساور النساء وخلاخيلهن

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ص ٩٦ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٣ — ص ٩٥ .

وغير ذلك . وكان أولئك الباعة يستأجرون الأرض التى يجلسون عليها من المشرف على المارستان (المستشفى) المنصورى الذى كان السوق من أوقافه . وفى فترة لاحقة بنى المشرف على المارستان خيمة كبيرة لكى يستظل بها أصحاب القفيصات . ثم نقل هذا السوق إلى مكان جديد بالقرب من الصاغة سنة ٨٣٣ هـ (١) .

ويبدو من كلام المقريزى أن المنافسة بين أولئك الباعة من « أرباب المقاعد » من جهة وأصحاب الحوانيت المقامة فى الأسواق من جهة ثانية ، كانت تشتعل أحياناً لدرجة تتطلب تدخل الدولة من آن لآخر : إذ يذكر ما نصه« . . . **كل قليل يتعرض لهم الحكام لمنعهم وإقامتهم من الأسواق لما يحصل منهم من تضييق الشوارع وقلة بيع أرباب الحوانيت** ... » (٢) .

أما الصنف الثانى من الباعة الجائلين فكانوا يطوفون شوارع المدن وأزقتها ينادون على بضائعهم كما هو الحال اليوم . ويطوفون فى الأماكن البعيدة عن الأسواق فتخرج إليهم النسوة من بيوتهن للشراء ، كما كان بائعو الأقمشة والدلالات يدخلن البيوت لعرض بضائعهم على ربات هذه البيوت (٣) . وقد ذكر تافور أنه شاهد فى شوارع القاهرة الباعة وهم ينادون على كافة أصناف البضائع من مأكولات أو فاكهة (٤) .

كذلك كان أهل المناطق الريفية المجاورة للمدن يفدون إلى أسواقها ببضائعهم من منتجات الريف التى يحملونها على ظهور دوابهم ويعودون إلى قراهم بعد بيعها . وفى فترات الاضطراب كان سكان المناطق الريفية المجاورة للقاهرة يحجمون عن الحضور بمنتجات حقولهم إلى أسواقها خوفا من

---

(١) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٣ يتبع .
(٢) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٣ — ص ٩٥ .
(٣) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ١٠٢ — ص ١٠٣ .
(٤) تافور ، الرحلة ، ص ٩٧ — ص ٩٨ .

أن يستولى عليها فرسان المماليك أو الأعراب أو قطاع الطرق (١).

وكان من الطبيعى أن تخضع الأسواق لرقابة الدولة التى اتخذت عدة أشكال ، منها أولئك الموظفون المسئولون عن مراقبة الأسواق ؛ ومنها الضرائب التى كانت تفرض على أرباب الأسواق ، كما تدخلت الدولة من آن لآخر لتنظيم الأسواق وتخطيطها .

فقد كان لكل طائفة من أرباب الأسواق عريف ، وكان أولئك العرفاء هم الواسطة بين الدولة من ناحية « وأرباب البضائع » من ناحية أخرى. ويبدو أن عرفاء الأسواق كانوا يخضعون لإشراف المحتسب الذى كان يثق فيما ينقلونه إليه (٢) ، كذلك كانت الدولة تتقاضى ضريبة معينة من عرفاء الأسواق ، إذ يذكر ابن تغرى بردى (٣) أن السلطان الناصر محمد بن قلاون ألغى فى سنة ٧٢٠ هجرية ضريبة كانت تؤخذ من عرفاء الأسواق . وفى وسعنا أن نستنتج من صمت مصادر ذلك العصر عن أصحاب هذه الوظيفة ، أن عرفاء الأسواق فقدوا أهميتهم بمرور الوقت .

وذكر القلشقندى وظيفة أخرى هى ، « نظر دار الضيافة والأسواق » ، ويتضح من كلامه أن صاحب هذه الوظيفة لم تكن له سلطة الإشراف على جميع الأسواق ، وإنما كان مسئولا عن الأسواق التى تتبع الديوان السلطانى ، أى أن الضرائب المجباة منها من حق الديوان السلطانى ، كما كان هذا الموظف يشرف على وجوه إنفاق إيرادات هذه الأسواق (٤). أما الأسواق التى لم تكن تابعة للدولة فكانت تدخل ضمن إقطاعات الأمراء ، أو ضمن أوقاف المدارس

---

(١) ابن أياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٦ ص ١٢٦ ، ج ٥ ، ص ٦٧ ؛ قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى ، ص ٦١ — ٦٣

(٢) المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة (نشر الدكتور جمال الدين الشيال) ، ص ٢٨.

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٤٤ — ص ٤٦.

(٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ، ص ٢٣ .

والجوامع والمارستان . وعلى أية حال فقد أورد لنا المقريزى أسماء بعض من تولوا وظلفة نظر الضيافة والأسواق (١) .

أما الموظف الذى كثيرا ما رتبط إسمه بالأسواق فهو المحتسب الذى كان له الإشراف الفعلى على الأسواق ، وكانت وظيفة الحسبة من الوظائف الجليلة فى ذلك العصر فقد كانت تأتى فى المرتبة الخامسة بين الوظائف الدينية . ولم يكن يتولاها فى أوائل عصر المماليك إلا وجوه الناس وأعيانهم من المتعممين « . . لأنها خدمة دينية . . »(٢)

وكانت هناك ثلاثة مناصب للحسبة فى مصر آنذاك هى : حسبة القاهرة ، وحسبة الفسطاط وحسبة الإسكندرية . وكان محتسب القاهرة هو أعلى الثلاثة قدراً ، إذ كان يحضر المواكب السلطانية ويجلس مع السلطان فى دار العدل ؛ كما كان نفوذه يشمل القاهرة والوجه البحرى. أما محتسب الفسطاط ، فكان يشرف على الوجه القبلى ، بينما اقتصر نفوذ محتسب الإسكندرية على مدينته . وفى بعض الأحيان ، ولاسيما فى أواخر عصر المماليك ، كان من الممكن أن يجمع شخص واحد بين حسبة القاهرة وحسبة الفسطاط(٣) .

وفى الشطر الأخير من ذلك العصر صار من الممكن أن يتولى الحسبة

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٤٤ ص ٣٧١ ، ص ٤١٢ .

(٢) عن شروط المحتسب أنظر ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، ص ٧ . و من تطورها منذ العصر الفاطمى حتى عصر سلاطين المماليك أنظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٥١ — ص ٤٥٢ ؛ السبكى معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٩٢ . وعن مهام المحتسب أنظر القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ ١١ ، ص ٦٨ — ٦٩ حيث يورد وثيقة من العصر الأيوبى تحدد مسئوليات المحتسب التى لانعتقد أنها تغيرت كثيرا فى عصر المماليك .

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ص ٢٠٧ ، ص ٣٤٩ ، السلوك جـ ٤ ، ص ٥٦٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهره ، جـ ١٦ ، ص ٢٤٩ .

أحد المماليك (١) .كذلك صار من المألوف أن يجمع شخص واحد بين الحسبة وغيرها من الوظائف ، كما صارت وظيفة الحسبة تشترى بالرشوة وبعد أن كان يتولاها الفقهاء وأولاد الناس صار المماليك يتنافسون عليها ويسعون إلى توليها بالمال » . .وهذه الأموال العظيمة التى سعى بها هؤلاء مايستخلصونها إلامن اضلاع المسلمين والأمر لله» (٢) .

وبهمنا فى هذا المقام أن نوضح أن المحتسب كان مسئولا عن الأسواق من النواحى الصحية والسعرية ، كما كان مسئولا عن حالات غش البضائع والسرقة فى الموازين والمكاييل ، وكان له مجموعة من الأعوان يطوفون الأسواق فيما يشبه الحملات التفتيشية التى نسمع عنها اليوم ، للكشف على نظافة القدور والأوانى التى تباع فيها الاطعمة ، ومعاقبة من يغش البضائع ، ومصادرة المأكولات الفاسدة وإعدامها ، على نحو ما حدث سنة ٧٤٢ هجرية حين ضبط المحتسب أحد البواردية (تجار الطيور المحفوظة بالتمليح والتى كانت من المأكولات الشائعة بمصر حينئذ) ، وكان يخفى كميات كبيرة من الطيور الفاسدة فعاقبة المحتسب وشهره كما أعدمت الكمية المضبوطة (٣) .

وتبدو أهمية هذه الوظيفة فى استقرار الأسواق واضحة من خلال الحقيقة القائلة بأن السلطان « المؤيد شيخ » تولى الحسبة بنفسه سنة ٨١٨ هـ لمواجهة ارتفاع الأسعار (٤) : بيد أن هذه الوظيفة كانت لها هيبتها ومكانتها فى

---

(١) يذكر ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة : جـ ١٦ ، ص ١٥٣) أن المدعو « تنم من تخشباى ، المعروف برصاص » تولى الحسبة سنة ٨٦٥ هـ . . فكان أول تركى ولى الحسبة بالبذل . . . ولم نسمع ذلك قبل تاريخه لاقديما ولاحديثا . . . » وهو ما يكشف عن أن الرشوة قد أصبحت هى السبيل لهذه الوظيفة الهامة .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١٦٥ ، ص ٢٣٣ ، جـ ٥ ، ص ٢٧ ، أنظر كذلك السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٢٦١ ؛ ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ٤٢ — ص ٤٣ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ : ص ٩٦ ، السلوك ، جـ ٢ ص ٦١٣ .

(٤) العينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، ص ٣٤١ — ص ٣٤٢ .

بداية عصر المماليك : ثم فقدت رونقها وسطوتها فى خضم التدهور العام الذى كانت البلاد تعانى منه فى عصر الجراكسة . كما سنرى فيما بعد .

وبالنسبة للمجتمع كان المحتسب يحتل مكانة هامة ويعد مسئولا فى نظر الناس عن حالة الأسواق . فإذا ما كانت الأسعار معقولة والأسواق مستقرة كان المحتسب يلقى رضاء الناس عنه وربما يحملون بغلته وهو راكب عليها ويصبون عليه ماء الورد ويشعلون له الشموع والقناديل على طول الطريق ، على حين تقف الفرق الموسيقية الشعبية والمطربون الشعبيون يحيونه بالأغنيات ويزفونه حين يمر بهم (١) . أما إذا كان المحتسب دون دون مستوى المسئولية فإنه كان يتعرض لكافة ضروب المهانة ؛ وقد يلزم بيته فترة طويلة خوفا من غضب الناس الذين ينسبون إليه سوء الأحوال وغلاء الأسعار (٢) .

ولم يكن المحتسب وغيره من الموظفين المسئولين عن الأسواق هم التعبير الوحيد عن سلطة الدولة ورقابتها على الاسواق فى عصر المماليك ، بل إن الضرائب على كافة أنواعها كانت تكشف عن مدى تدخل الدولة فى شئون الأسواق وأربابها ، وتكشف عن حقيقة العلاقة بين الدولة التى كانت تفرض هذه الضرائب ؛ وأرباب الأسواق وروادها الذين كانوا جميعا من رعايا هذه الدولة . والواقع أن هناك كثيرا من الضرائب التى كانت تفرض وتلغى ، أو تزيد وتنقص دون سبب واضح . وقد زاد معدل هذه الضرائب فى عصر الجراكسة (٣) . والواقع أننا لا نقصد حصر هذه الضرائب ، لأن هذا

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ يتبع .

(٢) إبن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، جـ ٩ ، ص ٤٣٥ ؛ العينى ، عقد الجمان تاريخ أهل الزمان ، (مخطوط) ، جـ ٢٥ ، ق ٤١٣ — ق ٤١٤ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٣٩٥ .

(٣) أنظر على سبيل المثال ابن تغرى بردى (النجوم جـ ٨ ، ص ٤٦) حيث يتحدث عن ضريبة نصف السمسرة التى كانت تفرض على كل من باع شيئا بما قيمته ٢ ٪ من ثمن البيع ،

يتطلب أن نفرد له بحثا مستقلا ، وإنما نهدف إلى توضيح أحد وجوه سيطرة الدولة فى ذلك الزمان على الأسواق .

ومن ناحية أخرى ؛ ارتبطت الأسواق بالكثير من عادات المصريين الاجتماعية ، كما كانت تعبيرا عن جوانب هامة من حياتهم اليومية .

ففى داخل كل سوق من هذه الأسواق كانت تقام مجموعة من الحوانيت . ولكن صغر مساحة الحانوت كان يستدعى بناء مصطبة أمام كل حانوت يجلس عليها البائع لمساومة المشترين أو للحديث مع زواره . وقد أثار استياء أحد المعاصرين أن أصحاب الدكاكين فى الأسواق كانوا يمازحون بعضهم بعضا ؛ وقد يجلس البعض فى الدكاكين التى تفد عليها النساء لشراء حاجياتهن . وقد لاحظ أيضا أن إقبال النساء يكثر على دكاكين باعة القماش (١) .

وفى ذلك العصر كان من عادة النساء أن تخرجن إلى الأسواق لشراء حاجياتهن وربما يمازحن الباعة أثناء المساومة على الأسعار . وقد يحدث أن تأتى المرأة بصحبة زوجها إلى الدكان ثم يتركها ويذهب إلى مكان آخر . وغالبا ما كانت النساء تشترى لأزواجهن ما يحتاجونه من ملابس (٢) .

كذلك كانت النساء تمثلن غالبية رواد الاسواق فى بعض المواسم مثل خميس العهد الذى كان المصريون جميعاً يحتفلون به على الرغم من

= وكذلك المقريزى (السلوك جـ ٣ ، ص ٢٤٤ (حيث يتحدث عن ضرائب سوق الجمال ، والسخاوى التبر المسبوك ، ص ٢٦٨) عن « مكس الجلود » الذى كان يؤخذ من سوق النعال ، أيضا ابن اياس (بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٢٥ – ص ٧٧ ، ص ٣٠٤ – ص ٢٠٥ ، جـ ٥ ، ص ١٧) حيث يتحدث عن ضريبة جديدة كان يتعين على التجار فى الأسواق أن يؤدوها إلى المحتسب مع بداية كل شهر .

(١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٤ ص ٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٤٥ ، جـ ٢ ، ص ٥٥ ، جـ ٤ ، ص ٢٢

كونه عيداً مسيحياً . وفى هذا اليوم كانت النساء تخرجن إلى الأسواق ، التى تزدحم بهن ، لشراء البخور والخواتم . ويذكر ابن الحاج أنه لا يمكن لأحد أن يمر بالسوق فى هذا اليوم إلا بمشقة لزحمة النساء » . ولو ان رجلا منع اهله من الخروج فى ذلك اليوم لوقع التشويش بينهما ، وقد يؤول الأمر إلى الفراق ... » (١) . والجدير بالذكر أن بعض المعاصرين كانوا يرون فى خروج النساء إلى الأسواق أمراً منكراً ، وكثيراً ما ثارت المناقشات فى الدوائر الحاكمة ، بحضور الفقهاء والقضاة ، لمنع النساء من إرتياد الأسواق لاسيما فى أوقات الازمات الاقتصادية أو الاوبئة . وهو ما يكشف عن المفاهيم الاخلاقية التى كان أهل ذلك الزمان يفسرون بها أسباب الكوارث و الشدائد (٢) .

و من مظاهر إرتباط الأسواق بعادات المصريين وسلوكياتهم الاجتماعية أن الناس كانوا يتوجهون صباح كل يوم جمعة إلى سوق الدجاجين » بالقاهرة ، وهو سوق كانت تباع به الدواجن بكميات كبيرة كما كانت يباع به طيور الزينة من العصافير الملونة وغيرها من الطيور المغردة ، وهناك يشترى الناس لأطفالهم العصافير لكى يطلقونها حباً فى عمل الخير لان الناس كانوا يعتقدون أن العصافير تسبح بحمد الله (٣) .

كذلك ارتبط « سوق الحلاويين » بعادات المصريين و مواسمهم . ويبدو من اسم هذا السوق أنه كان مخصصا لبيع الحلوى المصنوعة من السكر . ويذكر المقريزى أن هذه الحلوى كانت تصنع على هيئة الحيوانات من قطط وسباع وغيرها . وقد عرفت هذه التماثيل السكرية باسم العلاقات (مفردها علاقة)

---

(١) المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٥٤ .

(٢) قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى ، ص ٧١ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٣ يتبع .

لأنها كانت تعلق بخيوط على أبواب الحوانيت ، ويتراوح وزن كل منها بين ربع رطل وعشرة أرطال . وكان هذا السوق يزدهر فى مواسم أول رجب ونصف شعبان. وعيد الفطر الذى كان الاستعداد له يبدأ من منتصف شهر رمضان . وكان الناس يحرصون على شراء هذه التماثيل السكرية — التى تمتلىء بها أسواق القاهرة والأقاليم فى هذه المواسم - لأطفالهم . كذلك كان الناس يهادون الأقارب والأصهار بهذه الحلوى ، لاسيما إذا كانت المصاهرة جديدة ، أو إذا لم يكن العريس قد دخل بعروسه . وفى البيوت كان لابد من شراء هذه الحلوى لأهل المنزل (١) على نحو ما يحدث الآن فى احتفال المولد النبوى .

وكان« سوق الشماعين »الذى تخصصت حوانيته فى بيع الشموع بأنواعها المختلفة ، من الشموع الموكبية والطوافات والفوانيس يزدهر أيضاً فى شهر رمضان ، وفى غطاس النصارى . والواقع أن هذا السوق — الذى يرجع تاريخ إنشائه إلى عصر الدولة الفاطمية — يمدنا بصورة رائعة من صور الحياة الاجتماعية فى مصر أيام المماليك . ففى موسم شهر رمضان ، وغطاس النصارى ، كانت تباع فى هذا السوق كميات كبيرة من الشموع الموكبية التى كانت الواحدة منها تصل إلى عشرة أرطال ، بل أن بعض الشموع كانت تصل فى وزنها إلى أكثر من قنطار . وكان الناس يقبلون على حوانيت هذه السوق التى تظل مفتوحة حتى منتصف الليل ، وقد حولت الشموع ليله إلى نهار ، لشراء الشموع أو تأجيرها : ذلك أن الشموع الضخمة، التى كانت تؤجر ، كانت تحمل على عجلات ويجرها الصبيان فى موكب لصلاة التراويح « . يعجز البليغ عن حكاية وصفه . . » . ومن المهم أن نشير إلى أن تقدم صناعة الشموع قد تمثلت فى هذا السوق . كما أن حالة الرخاء التى عاشها [المصريون فى عصر المماليك البحرية ، من ناحية أخرى ، قد انعكست على اهتمامهم بصلاة التراويح وشراء الشموع الضخمة أو استئجارها لهذا الغرض ،

(١) المصدر نفسه ، والجزء والصفحة ، ابن الحاج ، المدخل ، ج ، ص ٢٩٣ .

وهى صورة أختفت فى أواخر ذلك العصر نتيجة التدهور الاقتصادى كما سنرى .

وعلى الجانب الآخر ، يكشف « سوق الشماعين » عن جانب معتم من الحياة المصرية فى ذلك العصر ، ففى هذا السوق كانت بنات الليل تجلس فى الحوانيت حتى ساعة متأخرة من الليل وقد ارتدين زياً مميزاً هو الملاءات الطرح و السراويل الحمراء . وقد عرفت أولئك البغايا باسم « زعيرات الشماعين (١) .

ونستطيع من خلال المعلومات التى أمدنا بها المقريزى عن « سوق الجوخيين » أن نتعرف على بعض التطورات التى جرت على الحياة الاجتماعية فى مصر آنذاك ، فقد كان التجار فى هذا السوق يبيعون الجوخ المستورد من أوربا لكى يستخدمونه فى صناعة المقاعد والستائر والسروج . ذلك أن المصريين لم يكونوا يلبسون الجوخ سوى فى الأيام المطيرة فوق ثيابهم لكى يقيهم مياه المطر . ولكن تدهور الأحوال الاقتصادية ، وارتفاع أثمان الثياب الحريرية وغيرها من الثياب الفاخرة ، جعل المصريين يتخلون عن نظرتهم تلك ، ويقبلون على ارتداء الملابس الجوخية ، مما أدى إلى إزدهار « سوق الجوخيين (٢) .

وتكشف دراسة الأسواق أيضا عن أنه لم يكن من عادة المصريين بشكل عام أن يعدوا الطعام فى منازلهم ، بل إن العامة كانوا يتناولون طعامهم خارج منازلهم التى يبدو أنها كانت منازل متواضعة فى الغالب (إذا ما استثنينا بيوت الأثرياء التى حفظ الزمن آثارها) . وانتشرت فى القاهرة آنذاك عدة آلاف من المطاعم التى كان المصريون يأكلون فيها (٣) . والحقيقة أنه قد وجد

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٩٤ . يتبع .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٨٧ .

فى ذلك العصر نوعان من المطاعم : المطابخ التى كان الطباخون يعدون فيها الأطعمة التى يبيعونها لحسابهم ، وحوانيت « الشرائحيين » ، أو « الشرائحية » التى كان الناس يرسلون إليها ما يريدون طهيه من لحوم وخضروات وغيرها ، ويقوم الشرائحية بطهيها بعد خلطها بالتوابل وغيرها ثم يرسلونها مع صبيانهم إلى المنازل فى قدور مغطاة ، وذلك مقابل أجر معين يأخذونه من زبائنهم (١).

وإلى جانب هذه المطاعم كان هناك عدد كبير من الباعة يغدون فى الشوارع جيئة وذهابا حاملين المواقد والنيران ، وأطباق الطعام المعدة للبيع على حين ترى سواهم حاملين صحاف الفاكهة (٢) . كذلك كان بعض الباعة يفترشون الأرض فى الأسواق والشوارع وبجوار الجوامع وأمامهم طبليات عليها شتى صنوف الطعام التى يبيعونها للناس (٣) .

أما الخبز ، فكان منه ما يباع جاهزاً فى الأسواق ، ومنه ما يعد فى البيوت ثم يرسل إلى الأفران . وكان بعض الناس يخبزون فى الفرن مشاهرة (أى يدفعون أجر الخبز كل شهر) ، على حين كان البعض الآخر يدفع نقداً عن كل مرة . والجدير بالذكر أن « الخباز » فى ذلك العصر كان يعنى من يصنع الخبز لبيعه فى السوق ، أما « الفران » فهو الذى يخبز الخبز الخاص بالبيوت لقاء أجر معلوم (٤) .

وكانت المياه تجلب من نهر النيل ، ويحملها السقاوون على ظهور الجمال ، ويمرون بها على بيوت عملائهم لتفريغها فى الأزيار وغيرها من الأوانى ؛ وكان الماء يباع بالقربة ، وربما يأخذ السقاوون الأجر مقدما ، ثم يرسلون صبيانهم بقرب المياه إلى المنازل ؛ وكان من المناظر المألوفة والتى تسترعى

---

(١) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٣ ص ١٨٦ - ص ١٨٩ .

(٢) تافور ، الرحلة ، ص ٩٧ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٣ ، ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ٧٩ - ص ٨٠ .

(٤) تافور ، المصدر السابق ، ص ٩٨ ، ابن الحاج ، المصدر السابق ج ٤ ، ص ١٨٢ .

انتباه كل غريب في شوارع القاهرة ، ذلك العدد الكبير من السقائين الذين يروحون ويجيئون لبيع المياه التي يحملونها على ظهور الجمال والحمير أو في القرب على ظهورهم وينادون عليها بالصلاة على النبي حتى يفسح الناس لهم الطريق .

كذلك كانت الأسواق تعتبر بمثابة « مراكز إخبارية واجتماعية » ، على حد تعبير أحد الباحثين المعاصرين (١) . فالواقع أن السوق كان بؤرة اجتماعية هامة نظراً لأن عدداً كبيراً من الناس يتواجدون فيه ، إما كمشترين وزبائن للسوق ، وإما بقصد النزهة كما أوضحنا من قبل ، وإما باعتبارهم من أصحاب الحوانيت أو غيرهم من أرباب السوق . ومن الطبيعي أن يتداول الناس الأخبار ، ويتناقشون حول ما يشغلهم من أمور سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية . ومن ثم فإننا يمكن أن نقول إن السوق كان مركزاً من مراكز تكوين الرأي العام على حد تعبيرنا المعاصر .

ومما يؤكد الفرض الذي طرحناه أن مصادر عصر المماليك التاريخية كثيراً ما تحدثنا عن النداء في الأسواق لسبب أو لآخر (٢) ، فقد كان المنادون يقومون بالدور الذي تقوم به وسائل الإعلام في حياتنا الحالية من حيث توصيل أوامر الحكومة أو قراراتها إلى أفراد الرعية . والانطباع الذي تتركه أخبار هذه النداءات هو أن المنادين كانوا يختارون أماكن التجمع ومنها الأسواق لإعلام الناس بمضمون النداء . كذلك تتحدث هذه المصادر عن تكرر النداء في الفترة الأخيرة من ذلك العصر ، بألا يتحدث الناس في الأسواق في أمور الدولة وأخبار الحكام وإلا تعرضوا للعقاب (٣) .

---

(١) سعيد عاشور ، المجتمع المصري ، ص ٨٧ .

(٢) أنظر على سبيل المثال : المقريزي ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٣٠ ؛ العيني ، عقد الجمان (مخطوط) ، ق ١٨٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ٢٦ – ص ٢٩ ، ابن الصيرفي ، إنباء الهصر ، ص ٢٠٥ ، ص ٢٢٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٢٠ ، ص ١٠٥ – ص ١٠٦ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ – ص ١٥ ، جـ ٥ ، ص ٦ – ص ٧ .

ومن ناحية أخرى ، كانت أسواق ذلك العصر تعكس جوانب متعددة من العلاقة بين الحكام والرعية ، فقد كان لابد من الحصول على ترخيص رسمى من الدولة مقابل مبلغ من المال لبناء الحوانيت والمصاطب وإقامة السقائف فى الأسواق (١) . كذلك كان الوالى يلزم الباعة فى الأسواق بكنس الشارع ورشه بالمياة ، ويعاقب كل من يمتنع عن ذلك ، وكان على كل حانوت أن يعلق قنديلا يضىء طوال الليل . كما كان على أصحاب الحوانيت فى الأسواق أن يزينوا حوانيتهم فى الأعياد والاحتفالات العامة ، فضلا عن مظاهرات استقبال سلاطين المماليك التى كان يفرض على الجميع المشاركة فيها (٢) .

وكان طبيعياً فى ذلك العصر - كما هو الحال الآن - أن يؤدى أصحاب الحوانيت فى الأسواق الصلاة أمام حوانيتهم ، كما كان من المألوف أن تفرش الحصر والبسط أمام الحوانيت لأداء الصلاة (٣) . وكان أرباب الأسواق يؤدون صلاة الجمعة فى السوق مما أثار إستنكار بعض المعاصرين (٤) .

إلا أن هذه الصورة الزاهية الألوان للحياة المصرية كما تعكسها الأسواق خلال الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك لم تلبث أن تلاشت بفعل عوامل التدهور التى عانى منها المجتمع المصرى منذ أواخر القرن الثامن الهجرى وأوائل القرن التاسع (١٤ ، ١٥ م) . ونجد فى مواجهتنا سؤال يفرض نفسه عن عوامل تدهور الأسواق . ومن الضرورى أن نوضح منذ البداية أن بعض عوامل التدهور كانت نتائج فى حد ذاتها ، وهو ما يشـ

---

(١) المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٢٧ ، جـ ٥ ، ص ١٤ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٥٧ - ص ٥٨ ؛ المقريزى ، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص ١١ ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٨٧٠ - ص ٨٧٥ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٦٥١ .

(٤) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧

إلى أن مشكلة السببية فى التاريخ مشكلة صعبة الحسم ، إذ أن استمرارية العملية التاريخية تجعل من الصعب تتبع جذور هذه العوامل من ناحية ، أو الفصل بين العوامل والنتائج من ناحية أخرى . بيد أن هذا لايمنع من أن نحاول رسم صورة صادقة — بقدر الإمكان — لهذا التدهور والأسباب التى أدت إليه .

وقد تأثرت حركة أسواق مصر بعدة عوامل متباينة فى أواخر ذلك العصر ، وكان لبعض تلك العوامل آثارها السلبية على حركة الأسواق التى انكمش حجمها وتوقفت فيها حركة البيع والشراء وغير ذلك من مظاهر الكساد . ويكفى للدلالة على ذلك أن نشير إلى ما قاله المقريزى فى هذا الشأن ونصه : « .. كان بمدينة القاهرة ومصر وظواهرها من الأسواق شىء كثير جداً قد باد أكثرها ، وكفاك دليلا على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمقس إثنان وخمسون سوقا أدركناها عامرة فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتا ، وهذه من جملة ظاهر القاهرة الغربى ، فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر . . . »(١).

ومن الممكن أن نفسر كلمات المؤرخ الكبير فى ضوء الحقيقة القائلة بأن مصر شهدت هبوطاً كبيراً فى عدد السكان منذ منتصف القرن الرابع عشر ، وقد انعكس هذا على أسواق البلاد ، من حيث عددها وحركة البيع والشراء بها . فقد ذكر المقريزى أيضا أن كثيراً من أسواق القاهرة التى شهد بنفسه مدى رواجها تقلصت بعد القرن الخامس عشر إلى مجرد عدة حوانيت لاتزيد عن أصابع اليد الواحدة . فقد آل أمر «سوق الحوائصيين» مثلا ، إلى بيع الطواقى التى يلبسها الصبيان . كذلك تدهور «سوق الشماعين» ، ولم يتبق منه فى أربعينيات القرن التاسع الهجرى (١٥م) سوى خمسة حوانيت ،

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٦٥١ .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة يسوقها المقريزى فى خططه على مدى التدهور الذى أصاب أسواق مصر آنذاك (١) .

والواقع أن هبوط عدد السكان فى حد ذاته ، كان نتيجة لكثير من العوامل المتشابكة التى انعكست أيضا على الأسواق التى اختفى بعضها وانكمش حجم البعض الآخر ، كما قلت حركة البيع و الشراء وارتفعت الأسعار ، فضلا عما نتج عن ذلك بالضرورة من كساد .

وتتصل بعض العوامل والأسباب المؤثرة فى حركة الأسواق بالدولة نفسها ، من حيث مدى الاستقرار السياسى ، ومن حيث الإجراءات الاقتصادية المختلفة ، وحالة الأمن فى البلاد ، والنظام النقدى ، وغير ذلك من الأسباب .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الاضطراب السياسى الداخلى لم يكن ظاهرة قاصرة على عصر الجراكسة فقط ، وإنما كان ظاهرة عامة طوال ذلك العصر . وتفسير ذلك فى تصورنا هو أن المفاهيم السياسية لدولة سلاطين المماليك ، والتى جعلت العرش من حق الجميع ، قد أدت إلى تنافس أمراء المماليك على عرش السلطنة الذى اعتبروه حقا للأقوى . وبين الآونة والأخرى كان بعض الأمراء الطموحين يترجمون طموحهم إلى عمل عسكرى فى شوارع القاهرة التى تتحول إلى ميدان قتال لجيوش المماليك المتحاربة ، وقد تمتد على مدى عدة أيام تضطرب أثناءها الأحوال ، وتموج البلاد بالفوضى والفزع . وسرعان ما تخلوا الطرقات من روادها ، وتقفر الأسواق ، ويهجرها الباعة لتكون ميدانا لقتال فرسان المماليك ومعاركهم الدموية . وتحفل مصادر ذلك العصر بالأمثلة التى تؤكد ذلك ، فقد حدث ، على سبيل المثال ، أن أغلق التجار حوانيتهم عدة مرات فيما بين سنة ٧٨١ هـ وسنة ٧٨٣ هـ ، أثناء النزاع بين الأميرين برقوق وبركة حول العرش (٢) .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ص ٩٣ — ص ١٠٦ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٣٥٢ — ص ٣٥٣ ، ص ٣٨٦ ، انظر كذلك ابن أيبك ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٢٧٢ .

بيد أن هذه الحوادث العنيفة زاد معدل وقوعها في الشطر الأخير من ذلك العصر، إذ كانت مثل هذه الحوادث في عصر البحرية مرهونة بتصارع الأمراء الكبار حول عرش البلاد في الغالب. ولكن نظام تربية المماليك الصارم (١) كان يكفل للسلاطين والأمراء السيطرة القوية على مماليكهم، وساعدهم على ذلك مواردهم التي وفرتها الزراعة المزدهرة والتجارة المربحة. ومنذ أواخر عصر الدولة الأولى بدأ شراء المماليك بعد سن البلوغ، وعرف أولئك المماليك في مصطلح ذلك العصر باسم «الجلبان» أو «الاجلاب». وقد أدى ذلك إلى إنهيار نظام تربية المماليك الذي كان يشكل ركناً من أركان النظام السياسي آنذاك، إذ أن رابطة الأستاذية، التي كانت تربط بين المماليك وأستاذهم (سيدهم) الذي أشرف على تربيتهم منذ نعومة أظفارهم، قد أنهارت. كما تفككت عرى رابطة الخشداشية التي كانت تجمع بين المماليك من أبناء الطائفة الواحدة. كذلك رفع الحظر على نزول المماليك من ثكناتهم في القلعة والسكن بالقاهرة منذ عصر السلطان الظاهر برقوق في أواخر القرن الرابع عشر، وكانت النتيجة أن ضعفت الرقابة عليهم، وقلت فرصة السيطرة على حركتهم.

وفي الشطر الثاني من عصر سلاطين المماليك زاد معدل التدهور السياسي الداخلي بفعل النفوذ المتنامي للمماليك الجلبان، وعدم قدرة السلطان والأمراء على ردعهم. ومن ثم تكررت حوادث الشغب والاضطرابات التي كانوا يثيرونها، فضلا عن حوادث نهب الأسواق وخطف البضائع والاعتداء على الناس في الشوارع والأسواق حتى أمست تلك الحوادث بمثابة النغمة الدالة في حياة المصريين آنذاك، وكانت النتيجة الطبيعية لمثل تلك الحوادث دائماً أن يسرى الفزع في النفوس، وتضطرب البلاد وسكانها بالفوضى والخوف، وتتوقف بالتالي حركة البيع والشراء وتغلق الأسواق.

ولعل من المفيد أن نورد بعض الأمثلة ذات الدلالة في هذا المجال. ففي

(١) عن هذا الموضوع أنظر سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٢١ – ص ٣٨.

سنة ٧٦٨ هجرية (١٣٦٨ م) حدث صراع بين «السلطان الأشرف شعبان» «والأمير يلبغا» الذى لجأ إلى تولية سلطان آخر هو «الأمير آنوك» شقيق السلطان ، وبذلك صار هناك سلطان على كل من حافتى النيل فيما بين جزيرة الروضة والقاهرة ، ولكل منهما أتباعه من الأمراء والمماليك واستمر القتال بين الطرفين عدة أيام « . . وأسواق القاهرة طوال هذه الأيام مغلقة والأسباب متعطلة ، وليس للناس شغل سوى التفرج فى شاطىء النيل على المقاتلين من السلطانية واليلبغاوية . . » (١) .

أما الحوادث التى أثارها الجلبان فالأمثلة عليها كثيرة ومتواترة ، بيد أن ابن أياس يذكر أن أول حوادثهم قد وقعت سنة ٨٧٧ هـ حين هاجموا أحد كبار موظفى الدولة (٢) . وتعددت اعتداءاتهم بعد ذلك على الأمراء وكبار موظفى السلطنة دون أن يجدوا قوة تردعهم أو تقف فى طريقهم ، ففى العام التالى هاجم جماعة من الجلبان « الأمير يشبك الدوادار» ففر منهم إلى مدينة الجيزة حيث ظل بها طوال خمسة عشر يوما ، وكانت النتيجة أن امتنع الأمراء من الصعود إلى القلعة ، على حين اعتكف السلطان قايتباى احتجاجاً على تصرف مماليكه(٣). ولكن الجلبان تأكدوا من عدم قدرة السلطان أو كبار الأمراء على كبح جماحهم فعادوا إثارة الشغب فى العام التالى رغبة منهم فى قتل يشبك . وهنا أمر السلطان قايتباى أمراءه بالأستعداد لقتال الجلبان فاضطربت الأحوال وماجت القاهرة بالفوضى وأغلقت الأسواق (٤) . ويورد لنا ابن أياس مزيدا من أمثلة الحوادث التى أثارها الجلبان فى العقود الأخيرة من ذلك العصر ، وهى الحوادث التى كانت تتسبب دائماً فى تعطل

---

(١) المقريزى ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ — ص ٢٨٢ .

(٢) ابن أياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩٣ — ٩٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٩٦ .

الأسواق وإثارة الرعب والفزع نتيجة لما كان يصحبها من أعمال النهب والقتل وغيرها من مظاهر العنف(١) .

وعلى الرغم من أن الأوامر كانت تصدر من حين لآخر بعدم تعرض المماليك الأجلاب للناس والباعة والتجار : فإنه يبدو أن تدهور سلطة الحكومة وعجز السلاطين جعل مثل تلك الأوامر « .. كضرب رباب أو كطن ذباب » على حد تعبير المؤرخ ابن تغرى بردى . ومع مرور الزمن تزايد عبث الجلبان بمقدرات الناس وأمنهم .مما أدى بالتالى إلى ارتفاع الأسعار « .. فى سائر الاشياء من المأكول والملبوس والغلال والعلوفات . . فضر ذلك بحال الناس قاطبة ، رئيسها وخسيسها . . » (٢) . وهو ما يشير إلى مدى النتائج الضارة والآثار السلبية الناتجة عن تدهور سلطة الدولة الداخل . وانعدام السيطرة على الجلبان الذين كثرت حوادث اعتداءاتهم وتزايد شرهم ؛ بحيث صاروا يخطفون القماش والبضائع من الأسواق ؛ كما أظهروا استخفافهم بالسلطان وكبار الأمراء (٣) .

وعلى الرغم من تدهور أحوال الدولة ، وانهيار الاقتصاد ، فإن مرتبات المماليك تزايدت نتيجة لكثرة أعدادهم من ناحية ، وتفشى الفساد من ناحية ثانية ، على حين لم تعد الدولة قادرة على الوفاء بهذه المطالب مما كان يدفع بالمماليك إلى التمرد وإثارة الشغب . فقد كانت جامكية المماليك السلطانية أحد عشر ألف دينار فى عهد السلطان المؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ) ، ثم وصلت إلى ثمانية عشر ألف دينار ، فى عهد الأشرف برسباى (٨٢٥-٨٤١ هـ) وفى أيام الظاهر جقمق زادت إلى ثمانية وعشرين ألف دينار ثم

---

(١) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ١٤٧ ، جـ ٤ ، ص ١٢ - ص ١٣ ، ص ٣٦٢ - ص ٣٦٣ ، جـ ٥ ، ص - ص ٧ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٦ ، ص ٩٨ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٣٣٢٥ ، ص ٣٨٨ .

وصلت إلى ستة وأربعين ألفا فى زمن قايتباى (٨٧٢ — ٩٠١ هـ) (١) ونتيجة لهذه الزياده جمع قايتباى مجلساً بالقلعة حضره قضاة القضاةونوابهم وعدد من شيوخ العلماء ، وأخذ السلطان يدعوعلى نفسه بالموت ويتبرم من السلطنة نظراً لأن الخزانة خاوية ومطالب المماليك كثيرة .(٢) .

وعلى الرغم مما يحمله هذا المثال من دلالات واضحة على مدى تدهور الأحوال المالية فى أواخر ذلك العصر ، فإن الأمثلة التى تؤيده كثيرةومتواترة فى مصادر تلك الفترة . ففى سنة ٩٠٦ هجرية تأخرت رواتب المماليك الأجلاب وثاروا على السلطان قنصوه الغورى الذى اشتكى من أن الخزانة خاوية وقد كثر العسكر من سائر الطوائف ما بين « ظاهرية وأشرفية وإينالية وخشقدمية ، وقايتبايهية وناصرية ، ومماليك الظاهر قانصوه ومماليك الإشراف جانبلاط ، ومماليك العادل طومانباى ، ومماليك النواب والأمراء الذين قتلوا .. فمن أين أسد هؤلاء المماليك ؟ » (٣) .

وفى العام التالى تأخرت رواتب المماليك ثلاثة أشهر : فتمردوا على السلطان وهددوه ، فأخذ يستولى على أموال الناس قسراً ، ونتيجة لذلك طالب أصحاب الأملاك من السكان أن يدفعوا أجرة مساكنهم ودكينهم عشرة شهور مقدماً « .. فحصل لهم بسبب ذلك الضرر الشامل ، وتعطلت الأسواق من البيع والشراء ، وغلقت غالب دكاكين القاهرة ، ووقع الاضطراب

---

(١) ابن الصيرفى : إنباء الهصر ، ص ٣٣ — ص ٣٧ . وقد ذكر هذا المؤرخ أن من أسباب هذه الزيادة أن الاستادار كان يبيع الجامكية (المرتب) ويهبها ، كما كان يزيد فى جوامك المماليك السلطانية ويرتب لأولادهم جامكية حتى ولو لم يكن لهم أولاد ، مقابل رشوة يأخذها .

(٢) المصدر نفسه ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٢٩ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١٣ — ص ١٨ . والجدير بالذكر أن كل طائفة من طوائف المماليك المذكورة تنسب إلى السلطان الذى اشتراها وكانت تعمل فى خدمته .

للغنى والفقير ، وصار الناس بين جمرتين : . » (١)

وليت الأمر كان يقتصر على ذلك ، ففي بعض الأحيان كان المماليك ينزلون إلى الشوارع والأسواق يسرقون وينهبون . ففي سنة ٩١٦ هجرية ، عجز قنصوه الغورى عن دفع مرتبات المماليك فنزلت جموعهم إلى شوارع القاهرة ونهبوا سوق جامع ابن طولون، وسوق الصليبة، وسوق تحت الربع ، وسوق البسطيين «... **حتى كادت مصر أن تخرب عن آخرها في هذا اليوم**» وأغلقت بقية الأسواق . وثبت أن عدد الحوانيت التي نهبها الجلبان في ذلك اليوم خمسمائة وسبعين حانوتاً ، وقدرت خسائر التجار بحوالى عشرين ألف دينار (٢) .

ومما يؤكد أن العبث والإفساد اللذين سببهما المماليك الأجلاب في حياة المصريين اليومية ، قد تركا تأثيراً مدمراً على الاستقرار الضرورى لرواج الأسواق ، ما يذكره ابن تغرى بردى في حوادث سنة ٨٦٠ هـ — موضحا مدى استهتار هؤلاء بالمصريين والأثر الذى تركوه في نفوسهم — فقد حدث أن خرج جهاز إحدى العرائس محمولا على رؤوس الحمالين وعلى ظهور البغال ليزفوه كما كانت عادة المصريين آنذاك . وتصادف أن مر أحد فرسان المماليك بجوار الموكب ثم وقعت قطعة نحاس أحدثت صوتاً جعل الحصان يجفل ، مما أحنق الفارس فضرب حصانه وساقه مسرعاً . وهنا حدث أمر غريب « .. **فلم تشك العامة في أن المماليك نزلوا إلى نهب حوانيت القاهرة ، فأغلقت الأسواق في الحال . .** » (٣) .

ويبدو أن عجز الحكام عن منع المماليك الجلبان من الاعتداء على الناس

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٨ ، ص ١٦ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٦ ، ص ٩٦ — ص ٩٧ .

قد جعل الأخيرين يعتمدون على أنفسهم فى التصدى للمماليك ، ويبدو أيضاً أن المماليك قد نالهم بعض الأذى من الناس . فقد نودى فى القاهرة سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥م) بأن « . . لا سوقى ولا تاجر يبهدل مماليك السلطان ، ولا يمسك لأحد منهم فرس ، ومن فعل ذلك قطعت يده . » (١) ومن ناحية أخرى كانت هذه المناداة من أكبر أسباب الفساد ، إذ صار المماليك يدخلون الأسواق ويخطفون القماش دون أن يتمكن أحد من التصدى لهم .

وهكذا ، بينما كانت الاضطرابات السياسية الداخلية فى الشطر الأول من ذلك العصر راجعة إلى المنافسة بين كبار الأمراء والتنازع على العرش ، فإن فساد المماليك الأجلاب وهجماتهم المتكررة على الأسواق صارت أمراً مألوفاً فى الحياة اليومية أواخر ذلك العصر ، مما ترك أسوأ الآثار على الأسواق والتجارة الداخلية .

ومن بين العوامل المؤثرة فى حركة الأسواق والتى تتصل بالدولة نظام طرح البضائع الذى تراه آثاره الوبيلة على حركة الأسواق آنذاك . ويمكن أن نستدل من المصادر التاريخية المتاحة على مدى ما كان هذا النظام يحمله فى طياته من مؤشرات دالة على مدى تدخل الدولة فى حركة الأسواق من جهة ، والنتائج السلبية لهذا النظام من جهة ثانية .

وتقوم فكرة نظام طرح البضائع — التى كانت تختلف وتتنوع تنوعاً كبيرا ما بين الأبقار والماشية والأقمشة والثياب والفراريج والزيت والعسل وغيرها — على أساس أن تفرض الدولة ما يتوفر لديها من سلع وبضائع ، لسبب أو لآخر ، على التجار بالسعر الذى تراه وبالكمية التى تريدها ، بغض النظر عن حاجة الأسواق ، كما أن التاجر لم يكن له حق الرفض أو حتى المساومة على الأسعار .

أما مصادر تلك البضائع ، فإنها تنوعت ما بين الهدايا الواردة صحبة

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٤٦٥ .

السفارات التى كان الحكام المعاصرون يرسلونها إلى سلاطين المماليك ، والأسلاب والغنائم التى غنمتها الجيوش والأساطيل المصرية أو الحملات التأديبية التى كان الأمراء يقومون بها ضد العربان فى شتى أنحاء مصر . وفضلا عن ذلك كان نظام طرح البضائع يعتمد على احتكار بضاعة بعينها(١) .

ويبدو أن إجراء طرح البضائع كان يتبع من حين لآخر نتيجة لرغبة الدولة فى مواجهة متاعبها المالية . ومن ناحية أخرى ، كانت الدولة تلزم التجار بتسديد أثمانها فى الحال مما كان يسبب لهم كثيراً من المتاعب . ويتضح من النصوص التاريخية المتاحة أن أسلوب الحكام فى معاملة التجار عند طرح البضائع عليهم كان من القسوة والشدة بحيث كان التجار يتمنون الموت لأنفسهم فى بعض الأحيان (٢) .

وقد تتعطل الأسواق نتيجة انشغال التجار بشراء ما تطرحه الدولة من بضائع مثلما حدث سنة ٨٢٧ هجرية ، حين عاد بعض رجال الأسطول بغنائمهم التى غنموها من قبرص وكان من بين الغنائم كميات كبيرة من الجوخ ، وكان نصيب السلطان برسباى منها مائة وثلاث قطع طرحت كلها على التجار وفقاً للسعر الذى حدده السلطان . وكما حدث سنة ٨٢٩ هـ بعد الاستيلاء على جزيرة قبرص وأسر ملكها جانوس ، إذ أمر « السلطان برسباى » بجمع التجار لشراء الغنائم فتعطلت أسواق القماش عدة أيام لإنشغال التجار بشراء الغنائم (٣) . وقد يهرب التجار حين يعجزون عن الوفاء بالثمن المطلوب كما حدث سنة ٩١٧ هـ ، حين طرح السلطان قنصوه الغورى على التجار فى الأسواق « زيتاً وعسلا وزبيباً وأصناف بضائع يخسرون فيها الثلث . . » :

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : ج ٩ : ص ٤٦ — ص ٤٧ . حيث ذكر فى حوادث سنة ٧١٠ هجرية أن السلطان الناصر محمد بن قلاون قد أبطل « ما كان مقرراً من طرح الفراريج » ، ويبدو من خلال النص أنه كان يوجد بكل إقليم ضامن مهمته طرح الفراريج على التجار « ولا يقدر أحد يشترى فروجاً إلا من الضامن » .

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٩٥ : ج ٣ ، ص ٧٣٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٧٢٢ — ص ٧٢٦ ، ص ٧٢٨ .

وكانت النتيجة أن هرب التجار وأغلقت الأسواق عدة أيام (١) .

وهكذا فإن نظام طرح البضائع : كإجراء اقتصادى تعسفى من قبل الدولة ، سبب كثيراً من المتاعب للتجار (٢)، كما كان من عوامل انكماش حركة الأسواق الداخلية . إذ كان من الطبيعى أن يحاول التجار تعويض ما تكبدوه من أموال فى هذه البضائع المفروضة عليهم فضلا عن تحقيق نسبة من الربح ، وهو ما كان يؤدى بالضرورة إلى ارتفاع الأسعار وكساد حركة الأسواق .

والجدير بالذكر أن بعض كبار الأمراء كانوا يقومون بفرض حمايتهم على بعض الحوانيت مقابل إمتياز معين ، وكان وجود « رُنك » الأمير (أى شارته) على أى حانوت هو رمز هذه الحماية التى تحمى صاحب الحانوت من قبول البضائع التى كانت الدولة تطرحها على التجار . بيد أن رغبة السلطان برسباى فى الحصول على الأموال من أى وجه جعلته يلغى تلك الحمايات فى سنة ٨٢٩ هـ فأمر بمنع الأمراء والأعيان من الحمايات ومحيت رنوكهم عن الحوانيت والطواحين والمعاصر« حتى يتمكن مباشرو السلطان من رمى البضائع ما بين سكر وأرز وغير ذلك .. فشمل الضرر كثيراً من الناس لما فى ذلك من الخسارة فى أثمانها .. » (٣) .

كذلك كانت الدولة تحاول تسعير البضائع لاسيما فى أوقات الأزمات الاقتصاديه . ومن الناحية القانونية اختلف الفقهاء حول شرعية نظام التسعير ، فبينما قال البعض أنه يحرم على المحتسب التسعير فى كل وقت أجاز البعض

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ص ٢٤٢ .
(٢) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ٢٦١ ، حيث يذكر فى حوادث سنة ٨٧٥ هـ . أن الأساكفة قد طرح عليهم من ديوان الدولة جلود مقابل بعض المصنوعات الجلدية ، كما تعطل تجار الحوانيت لانشغالهم فى بيع تركة أحد كبار الأمراء .
(٣) المقريزى، السلوك ؛ جـ٤ ، ص ٦٢١ .

الآخر التسعير فى زمن الغلاء ، كما رأى بعض الفقهاء أن التسعير يجوز فى حالة إذا ما كانت البضائع الخاضعة للتسعير من إنتاج البلاد وليست من الواردات (١) . وعلى أية حال فإننا نستطيع أن نستنتج من نصوص المصادر التاريخية أن نظام التسعير قد طبق بالفعل بقصد الحد من ارتفاع الأسعار ، بيد أنه تميز — كغيره من تصرفات الحكام — بالعشوائية والارتجالية . على أننا يجب أن نلاحظ أن الدافع إلى التسعير كان يختلف من وقت لآخر . ذلك أنه بينما كان الدافع فى أوائل ذلك العصر هو الرغبة فى تخفيف وطأة الأزمة الاقتصادية (٢) ، تمثل الدافع فى السنوات الأخيرة من العصر نفسه فى الخوف من تمرد المماليك الجلبان وغضبهم إذ أنهم كانوا قد أخذوا يتدخلون فى شئون الأسواق (٣) .

وينبغى أن نلاحظ أن التسعير كان يأتى بنتائج عكسية لما كان مرجواً منه فى بعض الأحيان ، وهو ما يكشف عن حقيقة أن تدخل الدولة فى شئون الأسوق من خلال التسعير لم يكن يؤتى ثماراً إيجابية دائما ، لاسيما وأن المحتسب المسئول عن مراقبة الأسعار لم يكن دائما على المستوى المطلوب من الكفاءة والأمانة ، لاسيما فى عصر الجراكسة (٤) . بل إن الحسبة كانت تظل شاغرة فترة طويلة . وكان المحتسب عادة من أمراء المماليك فى أواخر ذلك العصر . وكان غالبية هؤلاء يجهلون حقيقة مسئولياتهم ، كما أنهم غالبا ما كانوا يعتمدون على أعوانهم الذين أستغلوا مناصبهم فى تكوين الثروات . وكان البائع الذى لا يدفع لهم الرشوة يتعرض للضرب والإهانة على الرغم من

---

(١) السبكى ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٩٢ .

(٢) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٠٦ — ص ٥٠٧ ، جـ ٢ ص ٦٦٩ .

(٣) يذكر ابن أياس فى حوادث سنة ٩١٩ هـ . وسنة ٩٢٢ هـ أن عدة محاولات قد جرت لتسعير البضائع كلها حتى الكنافة خوفا من الجلبان . أنظر بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٣٣٨ ، جـ ٥ ، ص ٦ — ص ٧ ، ص ١٨ .

(٤) أنظر ما سبق عن المحتسب .

أن جميع الباعة فى الأسواق كانوا يبيعون بسعر أعلى من السعر الذى يحدده المحتسب (١).

وكانت الضرائب الطارئة التى كان سلاطين المماليك يفرضونها على تجار الأسواق نتائج لاتقل من حيث ضررها عن طرح البضائع أو التسعير التعسفى، فقد تعين على التجار أن يدفعوا هذه الضرائب الطارئة والتى كانت تزيد بشكل مطرد مع زيادة معدل التدهور فى مالية الدولة . ومن الطبيعى أن تساهم هذه الضرائب فى ارتفاع الأسعار من جهة ، وزيادة محاولات الغش والسرقة فى الموازين والمكاييل من جهة ثانية .

ومنــذ بداية دولة سلاطين المماليك استحدثت عدة ضرائب سميت « الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية » (٢) . وأخذت أسواق البلاد تعانى من الضرائب التى ازداد عددها و تضاعفت قيمتها على مر السنين .وكان لهذه الضرائب الشهرية (مشاهرة) والأسبوعية (مجامعة) تأثيرها المدمر على الأسواق والتجارة الداخلية بوجه عام . ومن الأمور ذات الدلالة ما ذكره السخاوى فى حوادث سنة ٨٤٧ هجرية من أنه « ...**كثر التطفيف فى الموازين والغش فى البضائع . وفشى ذلك فشواً منكراً وطمع السوقة لما جعل عليهم من الرواتب الشهرية والجمعية ...** » (٣) وهو ما يؤكده ابن إياس فى مرحلة لاحقة، ففى سنة ٩٠٧ هجرية احتاج السلطان قنصوه الغورى لبعض الأموال لمواجهة مطالب المماليك ، فبدأ يفرض « مغارم» جديدة على الناس،وكانت النتيجة أن تعطلت حركة البيـــع والشراء فى الأسواق ، وأغلقت أغلب

---

(١) ابن الصيرفى ، أنباء الهصر ، ص٤٢ – ص ٤٣ ، ص ١٢٥ ، ص ٢٠٣ – ص ٢٠٤ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٨٤ . كان ذلك سنة ٦٥٠ هجرية فى عهد السلطان المعز أيبك وتنسب هذه الضرائب إلى وزيره « هبة الله بن صاعد الفائزى » .

(٣) السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٧٧ .

حوانيت القاهرة (١) .

وكانت مثل هذه الضرائب تدفع بالباعة إلى رفع الأسعار عدة مرات فى بعض الأحيان ، دون خشية أو خوف من العقاب ، لأنهم كانوا يجدون المبرر والعذر فى تلك الضرائب التى تزايد عبؤها على كواهلهم على مر السنين . ومن ناحية أخرى ، كان الباعة يلجأون إلى الغش فى الموازين والمكاييل ونوع المبيعات رغبة فى تعويض الأموال التى غرموها من جهة ، وتحقيقاً لمزيد من الأرباح من جهة ثانية . والنتيجة أن تقفز الأسعار ، ويظهر ما نسميه « السوق السوداء » بتعبيرنا المعاصر ، ويتزايد الضغط على المستهلك العادى مما يدفعه إلى الاقتصار على شراء الضروريات فقط ، ومن ثم تنكمش الأسواق من حيث حركتها ، ومن حيث حجمها وعددها على حد سواء .

كما تكشف هذه الضرائب ، من ناحية أخرى ، عن طبيعة العلاقة بين سلاطين المماليك ورعاياهم فى ظل المفاهيم السياسية التى حكمت ذلك العصر ، وهو ما قد يدعم ما ذهبنا إليه فى مدخل هذا الكتاب من أن مصر فى ذلك الزمان كانت « سلطان ورعية » ، على حد قول بن خلدون .

ومن المنطقى أن يكون للنظام النقدى أثره الخطير على حركة أسواق مصر . ففى بداية عصر سلاطين المماليك ، كان رصيد الدولة من الذهب والفضة كبيراً . فعلى مدى مائة وثلاثين عاما تقريباً لم تحدث أية أزمة نقدية خطيرة تسبب ارتفاعا مفاجئا فى الأسعار إذ كانت دور سك النقود تجد كفايتها من الذهب والفضة اللازمين لسك الدنانير الذهبية والدراهم الفضية . وكان الذهب يأتى أساسا من بلاد غانا والتكرور (مالى الحالية) ، التى كانت تربطها بمصر علاقات وطيدة فى ذلك الحين على المستوى الإقتصادى والدينى والثقافى ، إذا كانت القوافل التجارية تتردد بين مصر ومناطق

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ١٦ . والجدير بالذكر أن الضرائب الشهرية والأسبوعية تعرضت للالغاء والإبقاء عدة مرات (المصدر نفسه ، ص٤ ، ص٢٥ ، ص ٧٧ ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ جـ ٥ ، ص ٦-٧ ، ص ١٧) .

غرب إفريقيا بشتى المصنوعات المصرية مقابل الذهب وغيره من منتجات هذه البلاد . وقد تحدث ابن بطوطة فى رحلته عن توفر الذهب بهذه المناطق ، وعن كرم « منسى موسى » — سلطان مالى الذى زار مصر — كما تحدث عن رحلات التجار من أبناء هذه البلاد إلى مصر(١) أما الفضة فكانت تصل إلى مصر بشكل أقل انتظاماً ، ولكنه كان كافياً لسد حاجة البلاد وضمان استقرار النظام النقدى . وكانت ترد إما من أوربا أو من وسط آسيا . وبفضل توفر الفضة استطاع السلطان الظاهر بيبرس ، المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك ، أن يجعل نسبة الفضة فى الدرهم سبعين فى المائة من وزنه . وقد تمكن سلاطين البحرية من سك دراهم فضية ثابتة القيمة وصل متوسط وزنها إلى ٢ر٩٧ جم(٢)

ولكن اختفاء العملات الفضية منذ أواخر القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) كان إيذانا بالخراب الإقتصادى والتدهور السياسى الذى أودى بدولة المماليك فى نهاية الأمر فقد تناقص رصيد البلاد من الفضة بالتدريج ، ومن ثم قلت نسبة الفضة فى الدرهم مما أدى إلى انخفاض سعره فبعد أن كان ١/٢٠ من الدينار فى بداية ذلك العصر ، وصل إلى ١/٢٤ ثم إلى ١/٢٥ من الدينار فى فترة لاحقة . وكان السبب فى ذلك راجعاً إلى ازدياد الطلب فى الجمهوريات الإيطالية التجارية على الفضة ، مما أدى إلى شرائها وسحبها من أسواق الشرق ؛ وهو ما أشار إليه المقريزى بقوله إن النصارى كانوا يصدرون الفضة من بلاد الشرق إلى أوربا . وعلى أية حال فقد توقفت الدولة عن سك الدراهم الفضية مع مطلع شمس القرن الخامس عشر ، وقد استعاض المماليك عنها بالنحاس الذى كان إنتاجه قد زاد فى أوربا ، ولا سيما فى البلاد الواطئة والمجر والبوسنة والهرسك(٣)

---

(١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٦٧٢ ، ص ٦٧٨ .

(٢) Ashort, Asocial and economic hist., pp. 291 – 93 .

(٣) I bid, pp. 305, f.

و حين كان رصيد الدولة من الذهب والفضة كبيرا ، كان النظام السعرى يستند على قاعدة ذهبية وفضية ضمنت للأسواق حالة من الاستقرار والرواج .ولكن ظهور الفلوس النحاسية منذ وقت مبكر ، ثم حلولها محل النقود الذهبية والفضية كأساس للسعر فى مرحلة لاحقة، كان علامة على مدى تدهور الأحوال الاقتصادية . ويقدم لنا المقريزى تقريراً مطولا عن بداية تدهور النظام النقدى ، واستمرار هذا التدهور فى الشطر الثانى من هذا العصر . ويتضح من كلام مؤرخنا أن الفلوس النحاسية ضربت سنة ٧٥٩ ﻫ على أساس أن تكون قيمة كل فلس ١/٢٤ من الدرهم الفضة الذى كانت قيمته آنذاك ١/٢٠ من الدينار الذهبى ، ثم وصل سعر الدرهم – نتيجة لإنخفاض كمية الفضة به – إلى ١/٢٥ من الدينار . ويذكر المقريزى أن الدراهم فى عصر برقوق كانت تسبك ثلثها نحاس وثلثاها فضة. وفى ذلك الحين كانت الفلوس قاصرة على شراء البضائع التى لاتصل فى قيمتها إلى الدرهم .ومنذ أواخر القرن الرابع عشر أكثر الظاهر برقوق من سك الفلوس النحاسية، وكادت الدراهم الفضية أن تختفى من السوق . ثم أصبحت الفلوس هى القاعدة السعرية (١) .

وعلى الرغم مما تحمله المصادر التاريخية من المؤشرات الدالة على تدهور النظام النقدى والتدهور الاقتصادى بصفة عامة ، وكساد التجارة الداخلية والأسواق بصفة خاصة ، فإن الأمر لم يقتصر على حلول الفلوس النحاسية محل الذهب والفضة كقاعدة لنظام الأسعار ، بل إن محاولات تزييف هذه الفلوس اتخذت شكلا دائما . واتخذ تزييف العملة مظهرين أساسيين هما : انقاص وزنها ، وخلط الفلوس النحاسية بمعادن أخرى أقل قيمة ، خاصة حين أصبح التعامل بالفلوس على أساس الوزن وليس العدد . وكان لعمليات التزييف هذه أسوأ الأثر على حركة الأسواق ، إذ كان الناس يمتنعون عن التعامل بها ، ومن ثم تصاب الحركة التجارية الداخلية بالكساد ، كما ترتفع

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص٩٤١ – ص ٩٤٤ .

الأسعار في موجة تضخم جنونية تصل إلى حد أن تغلق الحوانيت و تتعطل الأسواق .

ولابأس من أن نورد بعض الأمثلة الدالة على ذلك ، ففي سنة ٧٢٠هـ تعرض السوق الداخلي لهزة مؤقتة بسبب الزغل (أي التزييف) في الفلوس . وعلى الرغم من تسعير الحكومة للفلوس على أساس الوزن تارة ، وضرب وتشهير عدد من الباعة لإجبارهم على التعامل بهذه الفلوس تارة ثانية ، ثم الأمر بعدم تداول الفلوس مالم تكن عليها علامة دارسك النقود تارة ثالثة ، فإن الأسعار ظلت ترتفع حتى عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون من سفره ، وأمر بسك فلوس جديدة بسعر جديد ، كما تحدد سعر الفلوس القديمة على أساس الوزن فانفرجت الأزمة (١) .

كذلك حدث في سنة ٧٢٤ هـ أن أكثر غش الفلوس «.. **فتوقف الناس عن أخذ الفلوس ، وكثر ردها وعقوبة الباعة على ذلك بالضرب والتجريس إلى أن فسد الحال ، وغلقت الحوانيت وارتفعت الأسعار ..»** وتكررت مثل هذه الأزمة في سنة ٧٤٥ هـ وفي سنة ٧٤٩ هـ (٢) .

وكانت الدولة تلجأ في بعض الأحيان إلى إصدار عملات جديدة بأسعار جديدة لمواجهة التزييف وما ينتج عنه من آثار سلبية على الأسواق الداخلية. بيد أن حرص السلاطين عن تحقيق المكاسب من سك النقود الجديدة بأسعار تفوق قيمتها الشرائية من ناحية ، وعدم وجود سيـ [illegible]
من ناحية ثانية ، فضلا عن تعود الناس على عدم
من ناحية ثالثة — كل هذا كان يؤدى بالضرورة إ
بمرور الزمن .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٠٥ — صـ
(٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٢٥٣ ، ص٦٦٩ ، ٠
النجوم الزاهرة ، جـ٩ ، ص ٧٧ .

وفى عصر الجراكسة تفاقمت أزمة النقد فى مصر ، وأخذ الناس يخلطون الفلوس النحاسية — التى كان التعامل بها على أساس الوزن — بقطع الرصاص والحديد . ونتيجة لأنهيار سلطة الدولة تمادى الناس فى ذلك حتى أن الفقة التى تزن مائة رطل « . . **لايكاد يوجد بها عشرين رطلا من الفلوس** . . » بل إن هذه الفلوس النحاسية كانت تهرب إلى الخارج حيث تباع بسعر أعلى ، كما كان الناس فى الداخل يصهرونها ليصنعوا منها القدور والأوانى النحاسية التى كان سعر الرطل فيها أغلى من السعر الذى حددته الحكومة لرطل الفلوس (١) .

والنتيجة التى نخرج بها من تحليلنا لهذه المعلومات هو أن الحكومة كانت تخفض من قيمة العملة المتداولة فى الأسواق رغبة فى تحقيق المكاسب للسلاطين من فروق السعر بين هذه العملات ، وبين العملات الجديدة التى يصدرونها ويؤكد ذلك ما تذكره مصادر تلك الفترة عن تسعير العملات المتداولة ، أو إصدار عملات جديدة بأسعار تفوق أسعار جميع العملات المتداولة ، أو منع تداول العملات الأجنبية مثل الدينار الأفرنتى الذى حاز ثقة الناس وسيطر على سوق النقد فى مصر (٢) .

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج٣ ، ص ٦٢٩ — ص ٦٣٠ ، ص ٦٣١ .

(٢) يذكر المقريزى فى حوادث سنة ٨٢٦ هـ أن السلطان برسباى خفض قيمة الدينار الأفرنتى عشرة دراهم فخسر التجار كثيراً (السلوك ، ج٣ ، ص ٦٣٨) ، كما يذكر ابن الصيرفى فى حوادث سنة ٨٧٣ مانصه : « نودى على الفلوس العتق المنقاة من الرصاص والحديد بأربعة وعشرين درهما الرطل على عادتهم ، وضربت فلوس جدد كل أربعة بدرهم ونصف ، والرطل بستة وثلاثين درهما . وهذا فيه ضياع أموال المسلمين ليحصل الشياطين أهل دار الضرب مقصودهم من جمع المال فإنهم يأخذون من الناس الفلوس بأربعة وعشرين ويخرجونها بستة وثلاثين فيخسرون المسلمين الثلث فى أموالهم . . » (إنباء الهصر ، ص١٣٣) ، وذكر ابن اياس (بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٠ ، ص ٢٩) أن الأسواق تعطلت عدة أيام سنة ٩٠٧ هـ بسبب فلوس جدد سكها السلطان الغورى تخسر فى المعاملة الثلث ، كما كانت البضائع تباع بسعرين وفقاً للفلوس القديمة والفلوس الجديدة .

لمزيد من الأمثلة أنظر المقريزى ، السلوك ، ج٣ ، صفحات ٧١٠ — ٧١٢ ، ٨٠٥ ، ٨٥٤ ، ٨٥٣ ، ٩١٢ .

وهكذا ، كان تدهور النظام النقدى فى مصر زمن الجراكسة ، عاملا حاسما فى تدهور الأسواق والتجارة الداخلية . فإن نضوب رصيد الدولة من الذهب والفضة أدى إلى تخفيض قيمة الدراهم الفضية بشكل مطرد ، ثم اختفائها من الأسواق المصرية تماما ، على حين سيطرت العملات الأجنبية الذهبية (الدينار الأفرنتى) على السوق الداخلى ، ثم ظهور الفلوس النحاسية كقاعدة لنظام التسعير ، وما لحق بهذه الفلوس من غش وتزييف أو تهريب أو صهر لأغراض ذات ربح أكبر — نقول إن هذا كله انعكس على الأسواق بشكل سلبى فركبها الكساد ، وأغلق منها عدد كبير ، كما انكمش العدد الباقى إلى عدد هزيل من الحوانيت ، بل إن بعض البلاد ، لاسيما فى الصعيد ، عادت إلى نظام المقايضة البدائى (١) .

وثمة عامل هام ارتبط بالأسواق من حيث تأثيره السلبى على الأسوا ، ونقصد به حالة **الأمن الداخلى فى البلاد**. فمن المعروف أن التجارة وحركة الأسواق لاتزدهر وتروج إلا فى ظل استقرار الأمن واستتبابه ، سواء على طول الطرق التجارية أو فى داخل البلاد . والعكس صحيح تماماً . وتنسحب هذه المقولة على حركة الأسواق المصرية فى عصر المماليك كما تنسحب على غيرها فى العصور التاريخية الأخرى .

ذلك أن تدهور النظام السياسى تمثل فى فشل الدولة فى السيطرة على كافة شئون البلاد ، وانعكس هذا الفشل على حالة الأمن فى البلاد فى عصر الجراكسة على نحو خاص . بيد أن الواقع التاريخى يقتضى منا أن نقرر أن عصر المماليك البحرية ، قد شهد هو الآخر ، فترات من اضطراب الأمن لاسيما فى عهود السلاطين الضعاف ، أو حين يتنافس الأمراء على

---

(١) يذكر المقريزى (السلوك ، ج٣ ، ص ٧٠٥) مانصه « ... وقد شمل الخراب أقليم مصر ، مدينتها وأريافها ، لاسيما الوجه القبلى ، فمن شدة فقر أهله وسوء أحوالهم لايتبايعون إلا بالغلال لعدم الذهب والفضة ، بعد أن كانوا من الغنى والسعة فى الغاية ... » .

السلطة كما أوضحنا من قبل . ولكن التدهور الأمنى اتخذ صفة الدوام والثبات فى أواخر القرن الرابع عشر ؛ ومنذ ذلك الحين فصاعدا باتت هذا التدهور نغمة دالة فى حياة المصريين اليومية .

فإن حوادث سرقات الأسواق على أيدى عصابات كبيرة العدد من الفرسان والمشاة أصبحت مادة ثابتة فى حولية ابن أياس التى تؤرخ لأواخر عصر المماليك فيما يشبه اليوميات ؛ وكانت تلك العصابات تنهب البضائع من الأسواق وتقتل الخفراء دون أن تجد من يتعقبها (١) .

كذلك فإن العربان – الذين سببوا كثيرا من المتاعب طوال عصر المماليك – كثيراً ما تسببوا فى اضطراب الأحوال ، وإنعدام الأمن فى سائر أنحاء البلاد . إذ تتحدث مصادر تاريخ هذا العصر عن كثير من هذه الحوادث فى عصر الجراكسة والتجاريد التى خرجت لردعهم دون أدنى فائدة (٢) . بل إن البدو كانوا يهاجمون المدن أحياناً فى وضح النهار وينهبون الناس وقد يقتلون البعض ، أو يطلقون المساجين من السجن (٣) .

ومن مظاهر إنهيار الأمن أيضا هروب السجناء ، كما حدث سنة ٩١٣هـ ، واضطراب الأحوال فى البلاد ، أو حوادث العثور على قتلى دون التوصل إلى الجناة (٤)

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٣٣٤ ، جـ٤ ، ص ٢٠ ، ص ٢٥٩ – ص ٢٦٠ .

(٢) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، صفحات ٩ ، ١٠ ، ٣٧ ، ٧٩ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ صفحات ١٢ ، ١٣ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٤٣ ، ٧١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ٣٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٦ ١٦٩ .

(٣) ابن الصيرفى ، المصدر السابق ص ٤٤٣ – ص ٣٤٤ ، ابن اياس ، المصدر السابق جـ٣ ، ص ١٠٥

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٣٣٥ ، ص ٢٠٠ .

ومن نافلة القول أن نكرر أن هذه الحوادث والاضطرابات كانت تسبب نوعا من الكساد فى حركة الأسواق ، مما كان يساعد ، مع العوامل الأخرى ، على مزيد من التدهور . وهكذا نصل إلى صورة عامة للعوامل الاقتصادية والسياسة والأمنية والاجتماعية التى أثرت بشكل أو بآخر ، وبدرجة أو بأخرى على حركة الأسواق الداخلية فى مصر زمن المماليك . بيد أن هناك من العوامل والظروف الطبيعية ما كان يساهم ، بدرجة تتزايد باطراد، فى التأثير السلبى على حركة الأسواق والتجارة الداخلية . هذه العوامل الطبيعية تتداخل فى بعضها البعض ومنها نقص مياة الفيضان عن منسوبها العادى ، وما كان ينتج عن ذلك من مجاعة قد يتبعها الوباء ، ومنها تلك الأوبئة والطواعين التى حصدت بمنجلها الفتاك نسبة كبيرة من السكان . وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا الضمور الديموجرافى على الأسواق من حيث أعدادها التى تناقصت بدرجة كبيرة ، ومن حيث حركتها التى أصبحت أقرب إلى الكساد منها إلى الحركة التجارية . وإن نظرة على الإحصائية التى أمدنا بها كل من ابن دقماق(١) (ت ٨٠٩ هـ) والمقريزى (ت ٨٤٥) (٢)، لأسواق القاهرة والفسطاط وماخرب منها لتؤكد ما ذهبنا إليه .

وأخيراً ، فإننا لانستطيع أن نحصر العوامل المؤثرة فى حركة الأسواق فى إطار واحد بعينه ، سياسياً كان أم اقتصاديا ، واجتماعيا كان أم طبيعيا ، فالواقع أن هذه العوامل كلها تداخلت وتشابكت فى حركتها بحيث يصعب تحديد دور كل منها ولكن أبرز مظاهر التدهور هو انخفاض السكان بشكل ملحوظ نتيجة لسلسلة الأوبئة والمجاعات المتتالية (٣) . ولعل قيمة المؤرخ تقى الدين المقريزى تتجسد من خلال ربطه للظاهرة الاقتصادية المتمثلة فى

---

(١) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٣ ص ٣٢ – ص ٣٣ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ص ٣٤١ – ص ٣٣٢ ، جـ ٢ ، ص ٩٢ – ص ١٠٦ .

(٣) أنظر دراستنا عن الأوبئة والأزمات الاقتصادية فى هذا الكتاب .

كساد الأسواق ، بفساد الجهاز الحاكم وظلم رجال الدولة ،فضلا عن فساد الجهاز القضائى وإهمال وسائل الرى والزراعةوزلزلة القيم الاجتماعية وتدهور الأمن وتخلخل البناء الاجتماعى(١) . ولعل مؤرخنا كان يتنبأ بنهاية الدولة التى جاءت فى العقد الثانى من القرن السادس عشر .

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٧٨ .

الأقليات الدينية في المجتمع المصرى

طوائف النصارى واليهود (المسيحيون : الملكانية واليعقاقبة - اليهود : الربانون ، والقراءون ، والسامرة) - طبيعة العلاقة بين سلاطين المماليك والأقليات الدينية - نفوذ أهل الذمة في الجهاز الإدارى والمالى للدولة - دور اليهود والنصارى في الحياة الاجتماعية - التأثيرات المسيحية واليهودية في عادات وتقاليد المصريين - موقف المجتمع من أبناء الأقليات الدينية (الأعياد) - دور اليهود والمسيحيين في الحياة الثقافية .

لم يكن هناك من الأقليات الدينية في مصر زمن المماليك سوى المسيحيين واليهود . بيد أن المسيحيين كانوا ينقسمون ، آنذاك ، إلى فرقتين أساسيتين هما : الملكانية (أو الملكية) (١) ، واليعاقبة . أما اليهود ، فكانت طوائفهم ثلاث هي : الربانون (أو الربانيون أو الربيون) ، والقراءون ، والسامرة . ومن الطبيعي أن يكون سبب تعدد الطوائف في أية ديانة راجعا إلى الخلافات والمنازعات التي تنشب بين أتباعها حول تفسير أمور معينة ، وهو مايصدق ، بالضرورة ، على كل من الديانة اليهودية والديانة المسيحية .

وفيما يتعلق بالمسيحيين ، فإن أنقسامهم إلى طائفتين في مصر زمن المماليك ، إنما هو إمتداد لذلك النزاع الذى كان قد أندلع في أنحاء العالم المسيحي حول

---

(١) تستخدم المصادر العربية كلا اللفظين ، ولكن لفظ « ملكية » هو الأكثر شيوعا فيها . وذكر القلقشندى أن أبناء هذه الطائفة ينسبون إلى « ملكان » الذى ظهر ببلاد الروم « وقيل مركان أحد قياصرة الروم » ، كما ذكر أنهم يدينون بطاعة « الباب » الذى هو بطرك رومية (صبح الأعشى ، جـ١٣ ، ص ٢٧١ - ٢٧٦) . والواضح أن القلقشندى أقترب من حقيقة اشتقاق الاسم ، ولكنه جانب الصواب حين ذكر أنهم يدينون بالولاء للبابا في روما . إذ أنه من المعروف أن كنيسة القسطنطينية كانت خاضعة لسلطة الإمبراطور البيزنطى ، كما بدأت العلاقة تتدهور بين بيزنطة وروما بشكل مطرد منذ بدأ نجم البابوية في البزوغ نتيجة للفراغ السياسى الناجم عن سقوط السلطة الامبراطورية في الغرب - أنظر :

Norman F. Contor, Med. Hist., (2nd. ed. Macmillan, New York 1969) pp. 171 – 79.

طبيعة السيد المسيح ، لاسيما بعد أن انحسرت موجة الاضطهادات التي شنها أباطرة الرومان ضد المسيحية وأتباعها ، وبعد مرسوم ميلانو الشهير الذي أصدره الأمبراطور قسطنطين الأول وشريكه ليكينيوس في سنة ٣١٣ بإباحة حرية العقيدة للمسيحيين. فمنذ ذلك الوقت المبكر بدأ الصراع حول طبيعة المسيح عليه السلام ، وهل هو إله أم بشر؟ وكان مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م هو أول المجامع المسكونية (العالمية) المسيحية التي تتصدى لمناقشة هذا الموضوع. ومنذ ذلك الحين تفرق المسيحيون حول طبيعة المسيح ولم يجتمعوا بعدها قط. وفي سنة ٤٥١ م دعا الأمبراطور البيزنطي « مرقيانوس » (مركيان Mericianus ٤٥٠ – ٤٥٧ م) إلى ذلك المجمع الديني الذي عقد في خلقدونية لمناقشة المذهب الذي قال به ديوسقوروس Dioscorus ثامن بطاركة الاسكندرية ، وهو المذهب الذي يتلخص في أن للمسيح طبيعة واحده هي الطبيعة الإلهية . وقد حاول ذلك المجمع تبني وجهة نظر الأمبراطور البيزنطي في المصالحة بين مختلف المذاهب المسيحية ، وتمثلت تلك المحاولة في تخريج مذهب عام وشامل كحل وسط ينهي النزاع حول طبيعة المسيح . ومن ناحية أخرى قرر مجمع خلقدونية عزل ديسقوروس وتكفيره ونفيه . وكانت النتيجة أن التف الأقباط حول بطريركهم ، ووجدت في مصر وسوريا حركة مقاومة قوية ضد المذهب الجديد الذي تبنته الدولة . ونشأ عن ذلك أن تباعد الشرق المونوفيزيتي عن الغرب الكاثوليكي من ناحية ، وبدأت حركة اضطهاد عنيفة من جانب الأمبراطورية البيزنطية ضد الأقباط من أنصار مذهب الطبيعة الواحدة من ناحية أخرى .

ولكن بعض المصريين اعتنقوا المذهب الملكاني (الذي نادى به الأمبراطور مركيانوس) كما أن العائلات البيزنطية والموظفين البيزنطيين الذين استقروا بمصر كانوا – بطبيعة الحال – يدينون بهذا المذهب . ومن هؤلاء وأولئك تكونت الطائفة الملكانية (الروم الأرثوذكس) في مصر . ويستفاد من النصوص التي أوردها المؤرخون المصريون أن طائفة النصارى الملكية في عصر

المماليك لم تكن كبيرة العدد ، كما أنهم فى غالبيتهم لم يكونوا من أصول مصرية (١) .

وكان لأبناء هذه الطائفة بطريرك خاص بهم ، وقد حددت الوثائق سلطات هذا البطريرك الذى كان عليه تنظيم العلاقة بين الطائفة من جهة ، والدول من جهة أخرى . كما كان له حق الإشراف على الكنائس والأديرة الملكانية بمصر ، فضلا عن تعيين رجال الاكليروس التابعين له (٢) . بيد أن وثائق دير سانت كاترين تكشف أن هذا البطريرك لم تكن له أية سلطة على دير سانت كاترين ورهبانه ، على الرغم من أنه دير ملكانى (٣) . بل إن هذه الوثائق تكشف عن أن مقدم دير سانت كاترين كان يحمل لقب بطريرك فى بعض الأحيان (٤) .

والحقيقة أن المصادر العربية لم تذكر البطريرك الملكانى إلا قليلا ، ويبدو أن ذلك كان راجعا إلى قلة عدد أتباعه مما جعل دوره فى أحداث تلك الفترة ضئيلا . وفى سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) توجه بطريرك الملكية فى سفارة إلى الأمبراطورية البيزنطية ، بناء على طلب من الأمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن (٥) . ولم تتحدث هذه المصادر عن بطريرك الملكانية مرة أخرى سوى فى سنة ٨٤٦ هـ حين كان البطريرك الملكانى فيلوتاس ضمن زعماء الأقليات الدينية الذين حضروا اجتماعا برئاسة السلطان الظاه

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١١ ، ص ٣٩٢ ، تاريخ ابن الوردى ، جـ ١ ، ص ٢٨٩ . .

(٢) ابن فضل الله العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٤٤ — ص ١٤٥ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١١ ص ٣٩٢ — ص ٣٩٣ .

(٣) مجموعة وثائق سانت كاترين ، مرسوم رقم ٨٣ (قنصوة الغورى) .

(٤) س . ك ، مرسوم ٥٥ (خشقدم) .

(٥) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، جـ ٧ ، ص ١٧٩ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٧١ — ص ٤٧٢ .

جقمق لمناقشة بعض الأمور المتعلقة بطوائفهم (١) .

وكان لأبناء هذه الطائفة عدد قليل من الكنائس فى أنحاء البلاد ، منها «كنيسة مارنقولا» بخط البند قانيين ، «وكنيسة غبريال الملاك» بالفسطاط . وكان مسكن البطريرك الملكانى يقع على مقربة من هذه الكنيسة . وفى الفسطاط أيضاً كانت لهم كنيسة تسمى «بكنيسة السيدة» ، وكنيسة أخرى هى «كنيسة مار يوحنا» (٢) . كذلك كانت الأديرة التابعة لأبناء هذه الطائفة قليلة هى الأخرى ، وهو ما يبدو منطقيا فى ضوء الحقيقة القائلة بأن أعدادهم كانت ضئيلة بالفعل (٣) .

أما اليعاقبة ؛ فهم الأقباط اتباع مذهب الطبيعة الواحدة monophysite ، وهم ينسبون إلى يعقوب البراذعى أحد زعمائهم . وقد ذكرت المصادر التاريخية أن هذا الإسم نسبة إلى البطريرك ديسقورس نفسه لأن اسمه كان قبل تولى البطريركية «يعقوب» ، كما ذكرت هذه المصادر أنه يحتمل أن يكون الاسم نسبة إلى أحد تلاميذ ديسقورس واسمه «يعقوب» (٤) . على أية حال : فقد كان اليعاقبة (الأقباط الارثوذكس) — ولايزالون — يمثلون غالبية المسيحيين فى مصر .

وكان لهذه الطائفة بطريرك هو المسئول عن تنظيم الشئون الداخلية لجماعته ، وتحديد العلاقة بين أبناء هذه الطائفة والدولة . وقد تركت للجماعة القبطية حرية انتخاب البطريرك . ولم تكن الدولة تتدخل فى هذا الخصوص إلا بدافع

---

(١) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٣٩ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥١٨ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥١٠ .

(٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٢٧١ ، الخالدى ، المقصد الرفيع ، (مخطوط) ، ق ١٣٩ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ص ٤٨٨ .

من الرغبة فى الحصول على المال ، أو بسبب شكاوى المنافسين(١)

وقد أحصى المقريزى فى خططه مايزيد على أثنتين وثمانين كنيسة لليعاقبة فى الوجه القبلى بعضها مستحدث بخلاف الكنائس التى تهدمت لأسباب مختلفة (٢) . ونستطيع من خلال التركيز الشديد لكنائس الأقباط فى الوجه القبلى أن نستنتج أن غالبية الأقباط كانوا من سكان الصعيد . ونستدل على صحة هذا غرض بما جاء فى بعض المصادر التاريخية من أن غالبية سكان بعض قرى الصعيد مثل أبنوب ، كانوا من النصارى (٣) . كذلك ذكر المقريزى أن « طنبدى » كانت تسكنها غالبية مسيحية ، وأن « درنكه » بالقرب من أسيوط كانت قرية قبطية وأن أهلها يتحدثون اللغة القبطية ، كما ذكر أن المسيحيين من رعاة الأغنام كانوا يشكلون أغلبية سكان « بومقروفة » بالقرب من أسيوط أيضاً (٤) . وكان لليعاقبة — كما ذكر المقريزى — تسع عشرة كنيسة فى القاهرة والفسطاط ، أما كنائس الوجه البحرى فقد ذكر منها خمس عشرة كنيسة ، على حين ذكر من كنائس الاسكندرية أربعا فقط(٥)

ومن المنطقى أن الأعداد التى أوردها المقريزى ليست سوى صورة تقريبية. كما يجدر بنا أن نشير أن هذا العدد لم يظل ثابتا طوال عصر سلاطين المماليك بسبب هدم بعض الكنائس أو بناء كنائس أخرى جديدة .

أما الأديرة : فقد أحصى المقريزى منها ستة وثمانين ديرا ، كان من بينها عدد قليل للسوريان والأحباش اليعاقبة(٦) .

---

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، (دار المعارف ١٩٧٩ ط . ثانية) ، ص ١٠٦ يتبع .

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥١٦ — ص ٥١٨ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، جـ ٩ ، ص ٤٦٩ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥١٧ — ص ٥١٨

(٥) المصدر نفسه ، جـ ٢ ص ٥١٠ — ص ٥١٨ .

(٦) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥٠٠ — ص ٥١٠ . ، قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة ، ص ١٣١ — ص ١٣٦ . حيث توجد تفصيلات عن الأديرة ومبانيها ونظمها .

وعرف تاريخ اليهود الطويل انقسامهم إلى عدة فرق دينية تزعم كل منها أنها صاحبة المذهب الأمثل والأقرب إلى أصول الديانة اليهودية. وتركز الخلاف بين تلك الفرق حول الاعتراف بأسفار التوراة والتلمود أو إنكار بعض هذه الأصول. وكانت الفرق اليهودية الثلاث بمصر زمن المماليك هي : **الربانون ، والقراءون ، والسامرة**

أما **الربانون** (الربيون . الربانيون) ، فقد كانوا يمثلون غالبية يهود مصر آنذاك. وهذه التسمية تحريف للكلمة العبرية « ربانيم » التي تعني الإمام أو الحبر أو الفقيه. وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في قوله تعالى « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . . . الآية » (١) ويعود سبب هذه التسمية إلى أن « الربانيين » أخذوا بتفسيرات أحبار اليهود وعلمائهم التي تضمنها التلمود (٢) و المشناة (٣) . وقد ذكرت

---

(١) سورة المائدة : آية ٤٣ .

(٢) التلمود كلمة مشتقة من مصدر عبري هو « لمد » التي اشتقت منها كلمة « تلميد » العبرية التي تعني « تلميذ » في اللغة العربية . وذلك لأن التلمود يعلم الفقه والدين وتفسير التوراة . وهو جزءان : « المشناه » و « الجمارا » ، الذي هو شروح « المشناه » . ويضم التلمود بحوث أحبار اليهود التي كتبوها على مر السنين ، وهو يتألف من ثلاثة وستين سفرا . وهناك تلمودان : أورشليمي ، وبابلي . والتلمود الأورشليمي أقدم من البابلي ، وكان يضم أربعة أسفار فقط من المشناه ، ثم اكتشف السفر الخامس مؤخراً وأضيف إليه ، كذلك فإن الجمارا فيه ناقصة في مواضع كثيرة .

أنظر حسن ظاظا ، الفكر الديني الإسرائيلي (معهد الدراسات العربية ١٩٧١) ، ص ٩٥ ، ص ١٠٨ ، مراد فرج ، القراءون والربانون (القاهرة ١٩١٨) ، ص ٣٦ — ص ٤١ .

(٣) المشناه ، كتاب عبري بمثابة التفسير للتوراة ، ويعتقد الربانون أنه سنة عن موسى أوحى بها الله إليه أثناء الأيام الأربعين التي قضاها في طور سيناء وأمره ألا يكتبها وأن يبلغها شفويا . ولذا فإنها تعرف باسم « التوراة الشفوية » . والمشناه تعني « الثاني » ، أي الكتاب الثاني بعد التوراة وظلت المشناه تتداول شفويا حتى عصر « يهودا الناسي» الذي جمعها ودونها خوفا من النسيان أو التحريف وهي ستة أسفار .

المصادر العربية أن الربانيين فى مصر زمن المماليك تميزوا عن غيرهم من الفرق اليهودية بشروح لغوامض التوراة كتبها أحبارهم ، كما أنهم انفردوا بتلك التفريعات المنسوبة إلى النبى موسى عليه السلام . كذلك ذكرت هذه المصادر أنهم أباحوا تأويل نصوص التوراة ، ولم يكونوا يعتقدون بسابق القدر (١) .

وقد ذكر ابن الوردى أنهم يشبهون المعتزلة فى الإسلام . والحقيقة أنه قد جانبه الصواب فى هذا التشبيه لأسباب كثيرة لانرى مجالا لذكرها ، بيد أننا نعتقد أن السبب فى هذا التشبيه بين الربانيين والمعتزلة هو أن هذا المؤرخ قد خلط بين الربانيين والفريسيين الذين كانوا يشكلون ما يشبه الجمعية من كبار أحبار اليهود وفقهائهم . وكلمة « الفريسيون » (تنطق فروشيم فى اللغة العبرية) تعنى المفروزين ، أو المعزولين . والسبب فى هذه التسمية أن أعضاء هذه الجماعة كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر معرفة من أى إنسان آخر بالشريعة اليهودية كما جاءت فى النصوص المقدسة . وثمة اسم آخر كان أعضاء هذه الجماعة يطلقونه على أنفسهم ، وهو أسم « حسيديم » أى الأتقياء ، كما كانوا يسمون أنفسهم «حبريم » بمعنى الرفاق والزملاء . كذلك فإن الفريسيين أطلقوا على جمهور اليهود اسم « عوام الأرض » نظراً لأن الأفراد العاديين من اليهود كانوا يجهلون أصول الدين ، ومن ثم فإنهم كانوا بحاجة إلى القيادة والتوجيه من جانب «الفريسيين» . والجدير بالذكر أن أحد الباحثين المحدثين قد خلط بين جماعة الصفوة هذه من أحبار اليهود ، وبين عامة اليهود من أبناء الفروقة المعروفة بالربانين أو « الربيين » ، وذلك على اعتبار أنهم فرقة واحدة من الفرق اليهودية التى عرفها تاريخ اليهود الطويل (٢) .

---

(١) الخالدى ، المقصد الرفيع ، ق ١٤٠ – ق ١٤١ ، تاريخ ابن الورى ، ص ٧٥.

(٢) على عبد الواحد وافى ، اليهودية واليهود (القاهرة ١٩٧٠) ص ٨٤ – ص ٨١ . وعن الفريسيين أنظر حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ٢١٢ – ص ٢١٦ ، إسرائيل ولفنسون ، تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام (القاهرة ١٩٤١) ص ٢٠ – ص ٢١ .

أما الفرقة الثانية ، من فرق اليهود فى مصر آنذاك ، فهى طائفة « القرائين » الذين اشتق اسمهم من الكلمة العبرية التى تعنى « قرأ » . وذلك لأنهم لا يؤمنون بغير التوراة المكتوبة التى يمكنهم قراءتها . ومن ثم فإنهم لم يكونوا يعترفون بما جاء فى التلمود أو فى غيره من الكتب التى اعترف بها الربانون (١) .

ويرجع بعض الباحثين أصل هذه الفرقة إلى « عنان بن داود » (ت ٨٠٠ م) الذى دعا إلى مذهب جديد بسبب الخلاف الذى نشب بينه وبين أخيه الأصغر « حنانيا » حول تولى منصب رأس الجالوت (أى رئيس الطائفة اليهودية فى العالم الإسلامى) . ويرى هؤلاء الباحثون أن بعض علماء اليهود ، الذين تأثروا بالمعتزلة والمتكلمين المسلمين ، كانوا فى ذلك الوقت قد أخذوا ينقدون تعاليم الربانيين ، ويخرجون على أحكام التلمود . وتزعم هذه الحركة الجديدة ثلاثة من علماء اليهود ، ووجد هؤلاء فى « عنان » ضالتهم المنشودة ، نظراً للمكانة والنفوذ اللذين كان يتمتع بهما فنصبوه زعيما لحركتهم الانشقاقية . وقامت قيامة الربانيين فأسرعوا بالشكوى إلى الخليفة العباسى « أبى جعفر المنصور » الذى أمر بحبس « عنان » . ويروى أحد مؤرخى اليهود أن « عنان بن داود » التقى فى سجنه بالإمام « أبى حنيفة النعمان » الذى أشار عليه أن يدعى أنه صاحب دين جديد وليس ثائراً على رأس الجالوت . وقيل إن أتباع « عنان » بذلوا أموالا جمة وجهوداً كبيرة حتى أطلق سراحه بشرط أن يرحل إلى فلسطين ، وانتقل عنان ورفاقه إلى فلسطين حيث شيدوا لأنفسهم معبداً ، وألف « عنان » كتابين ضمنهما أسس المذهب الجديد (٢) . إلا أن الدكتور حسن ظاظا يرفض رواية السجن ويقرر أنها

---

(١) مراد فرج ، القراءون والربانون ، ص ٣٦ — ص ٤١ ، الخالدى ، المقصد الرفيع ، ق ١١٠ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢١٧ ، رحلة بنيامين التطيلى (ترجمة عزرا حداد بغداد ١١٨١ هـ) ص ١٩٢ .

(٢) عزرا حداد ، رحلة بنيامين التطيلى ، ص ١٩٢ ، على عبد الواحد وافى ؛ اليهودية ص ٩١ — ص ٥١ ، أنظر أيضاً : U.J.E. , Art. Karoiteo

رواية مختلقة من أساسها ، وينفي مازعمه علماء الربانيين من تأثر القرائين بالشيعة ، وفى رأيه أن « عنان بن داود » كان تلميذاً للمعتزلة الذين وقفوا موقف الحذر من الروايات الشفوية فى الإسلام ، وتحرجوا من اعتبار الحديث النبوى مصدراً أساسيا من مصادر التشريع الإسلامى ، وذلك هو جوهر رفض عنان للتلمود ، وليس حقده على الربانيين بسبب الصراع على منصب رئيس الجالوت (١) .

وثمة مؤرخ من اليهود القرائيين يعود بنشأة هذه الفرقة إلى عصر قديم سابق على العصر الذى عاش فيه « عنان » ويرى أن جذور القرائين : كفرقة دينية يهودية ، تعود إلى أعماق التاريخ اليهودى . حقيقة أن عنان لعب دوراً هاماً فى تاريخ هذه الفرقة ، كما أنه أعاد القرائين إلى التقويم القمرى ، مما زاد من اتساع الفجوة بين القرائين والربانين ، ولكن ذلك الانقسام لم يكن هو أول أدوار الانقسام التاريخى بين الطائفتين ، ولكنه جاء مكملا الإنقسام الذى حدث منذ عصور موغلة فى القدم . (٢) ومما يؤكد كلام هذا المؤرخ أن المقريزى الذى كان صاحب دراية واسعة بهذا الأمور ذكر أن « العانانية » (نسبة إلى عانان بن داود) فرقة أخرى غير القرائين الذين أرجع تاريخ نشأتهم إلى فترة سابقة فى تاريخ اليهود . (٣) وتتفق دائرة المعارف اليهودية مع المقريزى فى هذا . (٤)

وعلى أية حال ، فإن مؤرخى عصر سلاطين المماليك اعتبروا أن كلا من الربانيين والقرائين يمثلا الفرقة اليهودية الواحدة ، على الرغم من تفهمهم لحقيقة الخلافات بين الجانبين .

---

(١) حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص٢٩٥ – ص١٠٦ .

(٢) مراد فرج ، القراءون والربانون ، ص ٤١ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٤٧٢ – ص ٤٧٦ .

(٤) U. J. E., Art. Karaites

أما « السامرة » فقد كانوا أقلية صغيرة العدد فى مصر أيام سلاطين المماليك كما يتضح من الوثائق . (١) وعلى الرغم من أن الباحثين اليهود (قراءون وربانون) لا يعتبرون السامرة فرقة يهودية ، فالواضح أن الدولة آنذاك قد عاملتهم على أساس أنهم فرقة يهودية تنطبق عليهم شروط أهل الذمة . (٢)

ويرجع تاريخ هذه الفرقة إلى الفترة التى أعقبت تدمير مملكة إسرائيل التى أنشقت على مملكة سليمان بعد وفاته . وقد تم تدمير هذه المملكة على يد الملك الآشورى « تغلت فلاسر » فى سنة ٧٣٨ ق . م . وقد أجلى اليهود عن فلسطين وأسكنهم فى منطقة شمال إيران الحالية . وجلب بعض القبائل لتسكن فى مدينة السامرة القديمة بدلا من اليهود . ويعتمد أصحاب هذا الرأى فى نشأة السامرة على نص الكتاب المقدس الذى يحكى هذه الحادثة (٣) وهم بهذا يصمون السامرة بأنهم حثالة من الأجانب المتعاونين مع أعداء اليهود .

ويذهب البعض إلى أن نشأة السامرة ترجع إلى أيام السبى البابلى سنة ٥٨٦ ق.م لأنهم بنوا هيكلهم المقدس فوق جبل جرزيم القريب من مدينة نابلس فى هذا التاريخ . (٤) ويتهم اليهود أبناء هذه الطائفة بأنهم تعاونوا مع الرومان ضد اليهود أثناء ثورتهم ضد الحكم الرومانى ، وأن المكافأة التى منحها الرومان للسامرة لقاء هذا هى إعادة بناء مدينة السامرة القديمة (شيكيم) وأطلق عليها اسم « فلافيا نيابوليس Flavia Neapolis » التى عرفت باسم نابلس فيما بعد .(٥)

إلا أن التطورات التى أعقبت انتصار المسيحية بحيث صارت هى الديانة الرسمية لأباطرة الرومان ، سببت الكثير من المتاعب والاضطهادات التى شملت

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، التعريف ، ص ١٤٤ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج١١ ، ص ١٩١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الملوك الثانى : ١٧ .

(٤) مراد فرج ، القراءون والربانون ، ص ١٣ – ص ١٨ ، حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ٢٤٧ – ص ٢٤٠ .

(٥) عزرا حداد ، رحلة بنيامين ، ص ١٨٥ – ص ١٩٠ .

اليهود والسامرة . ومن ثم تقارب الطرفان ، واعتبر اليهود أن السامرة فرقة يهودية ذات صبغة خاصة ، وأضيف إلى التلمود فصل خاص بالسامرة هو سفر « الكوتيين » الذى ينظم العلاقات بين السامرة واليهود من أبناء الطوائف الأخرى.

ولايعترف السامرة سوى بأسفار موسى الخمسة مما جعل بعض المصادر العربية تقول بأن لهم توراة خاصة غير توارة القرائين والربانين . كذلك انكر السامرة نبوة من أتى بعد « موسى » فيما عدا « يوشع » « وهارون» . أما قبلتهم فهى جبل الجرزيم قرب نابلس ، وهم يقدمون أضاحيهم على هذا الجبل الذى يزعمون أن الله كلم موسى عليه ، ولهم لهجة عبرية خاصة ، ولغة خطية متمايزة يزعمون أنها العبرية الصحيحة كما وصلتهم من عهد موسى عليه السلام (١)

أما زعيم الطائفة اليهودية فى مصر ، فقد عرفته المصادر والوثائق التى ترجع إلى عصر سلاطين المماليك باسم « رئيس اليهود » ، كما أطلقت عليه أحيانا إسم « الريس » . أما الإسم العبرى فهو « الناجد » ، ومعناها الزعيم أو الأمير . وبينما يرى بعض الباحثين أن وظيفة الناجد أو رئيس اليهود فى مصر كانت من نتائج الفتح الفاطمى الذى ترتب عليه استقلال مصر عن الخلافة العباسية ، وبالتالى عدم تبعية يهود مصر لرأس الجالوت فى عاصمة الخلافة (٢) ، يرى البعض الآخر أن هذه الوظيفة قد أنشئت فى مصر فى فترة لاحقة (٣) .

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٦٨ – ص ٢٦٩ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ج ١ ، ص ٩٠ – ص ٩٢ ، عزرا حداد ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ – ص ١٩٠ ، حسن ظاظا ، المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

(٢) Mann, (J.), The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs (Oxford 1920), I, pp. 251 – 252.

(٣) Bosworth (C. E.), « Christian and Jewish dignitaries in Mamluk Egypt » (J.M.E.S., Jan. 1972) II, p.p. 210 – 211.

وعلى أية حال ، فقد تمتع رئيس اليهود بسلطات واسعة على أبنـــاء الطائفة اليهودية ، كما كان له حق الإشراف على شئون الطوائف الثلاث فى بداية ذلك العصر . كذلك كان عليه تنظيم علاقة اليهود بالدولة . كما كان من حقه تنظيم شئونهم الدينية واختيار واحد من كل فرقة يهودية لتنظيم شئون الفرقة (١). ويبدو أنه قد أصبح لكل من السامرة والقرائين رئيس مستقل فى فترة متأخرة من عصر سلاطين المماليك (٢).

وقد أحصى المقريزى أحد عشرا معبداً يهوديا فى القاهرة والفسطاط والأقاليم (٣). ويبدو من بعض وثائق الجينيزا التى نشرها « مان Mann » أن أعمال صيانة وإصلاح المعابد اليهودية كانت تتم عن طريق الهبات والتبرعات التى يدفعها بعض أثرياء الطائفة اليهودية (٤). وتكشف أعداد المعابد اليهودية الضئيلة عن أن يهود مصر آنذاك كانوا أقلية ضئيلة بالفعل.

هذه هى طوائف الأقليات الدينية التى عرفها المجتمع المصرى زمن المماليك ، ويبقى علينا أن نناقش موقف سلاطين المماليك من هذه الأقليات ، ومحاولة تفسير هذا الموقف فى ضوء النظرية السياسية التى قام عليها حكم أولئك السلاطين من جهة والمفاهيم السياسية التى كانت تحركهم من جهة ثانية . وهو ما يسهل علينا دراسة دور أبناء هذه الأقليات فى الحياة الاجتماعية ومدى تفاعلهم مع المجتمع الذى ينتمون إليه .

فعلى الرغم من أن النظرية السياسية للدولة الإسلامية ظلت تمثل الإطار العام لكل من الدول التى قامت فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى فى العصور

---

(١) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور ، ص ٢١٦ – ص ٢١٧ ، ابن فضل الله العمرى ، التعريف ، ص ١٤٢ – ص ١٤٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١١ ص ١٨٨ – ص ١٠٠ .

(٢) أنظر مناقشة هذا الموضوع بالتفصيل فى كتابنا ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، ص ١١٥ – ص ١١٧ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ص ٤٦٣ .

(٤) Mann, op. cit., I, p. 247.

الوسطى ، فإن طبيعة نظام الحكم فى دولة سلاطين المماليك جعلت لهـــذه الدولة خصائص ميزتها كظاهرة متفردة (١). فلم تكن النظرية السياسية لهذه الدولة قائمة على مبدأ الوراثة فى الحكم ، أو التفويض الشعبى أو الإنتخاب بل قامت على أساس التنافس بين الأمراء على السلطنة . ومن ثم اتخذت العلاقة بين سلاطين المماليك ورعاياهم من أهل الذمة ؛ وفى هذا المجال حرص السلاطين على تقرير التزامهم العدالة تجاه أبناء الأقليات الدينية ـ عملا بتعاليم الدين الإسلامى ـ من ناحية ، كما أنهم مارسوا عليهم ضغوطا شتى إرضاء لأهل العمامة الذين اعتمد عليهم السلاطين كثيراً نظراً لنفوذهم الواسع من ناحية أخرى ، كما أن الثروات التى إقتناها بعض اليهود والنصارى ـ نتيجة عملهم فى الجهاز الإدارى ـ كانت تسيل لعاب السلاطين ، لاسيما فى أوقات الشدة ، فيبادرون إلى مصادرتهم . وهنا ينبغى أن نشير أن المصادرة كانت سمة عامة من سمات السياسة الداخلية فى عصر المماليك ولم تكن إنطلاقا من دوافع دينية ، وإنما كانت تعبيراً عن طبيعة علاقة أولئك الحكام العسكريين برعاياهم من المسلمين وأهل الذمة على السواء .(٢)

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الحروب الصليبية قد خلفت فى العالم الإسلامى كله تراثاً يفيض بالمرارة والعداء تجاه الغرب المسيحى ، كما جعل الدولة تتشكك كثيراً فى ولاء رعاياهم من المسيحيين الملكانيين على وجه الخصوص . وقد زادت الحملات الصليبية المتأخرة من هذه الشكوك(٣). كما أن علاقات الدولة بالقوى العالمية المعاصرة كانت تؤثر على أحوال المسيحيين ، بالذات ، إما سلباً أو إيجاباً.

---

(١) أنظر مدخل هذه الدراسات .

(٢) عن تفاصيل بين السلاطين ورعاياهم من اليهود والمسيحيين أنظر كتابنا ، أهل الذمة ، ص ٦٣ — ص ١٠١ .

(٣) Atiya (A.S.), The Causades in the latter Middle Ages (London 1938) pp. 272 – 73 ,

ومن ناحية أخرى ، احتل أبناء الأقليات الدينية مكانة هامة في جهاز الدولة الإدارى. والواقع أنه منذ سمح المسلمون للمسيحيين واليهود بأن يحلوا محل الموظفين البيزنطيين تكونت منهم فئة من الخبراء فى شئون المال والإدارة — لا سيما من الأقباط — لم تستطع الدولة الاستغناء عنهم على الرغم من كل المحاولات التى بذلت فى هذا السبيل ،والحملات الضارية التى شنها ضدهم القضاة والفقهاء المسلمون . فقد أمسى وجودهم فى الإدارة الحكومية ضرورياً بحيث لا يمكن الاستغناء عنهم فى دواوين السلطان والأمراء

وقد فزع المسلمون من نفوذ أبناء هذه الاقليات الناتج عن توليهم لوظائف الإدارة والمالية ، فاتهموهم بالتحكم فى مقدرات المسلمين ، وبأنهم استخدموا نفوذهم « .. فى دفع من يتعرض لهم .. »، وغير ذلك من التهم (١)

وعلى أية حال ، فإنه يهمنا أن نركز فى هذه الدراسة على دور الأقليات الدينية فى الحياة الاجتماعية آنذاك . فقد شارك اليهود والنصارى فى نشاط المجتمع المصرى الذى كانوا جزءاً لا يتجزأ منه ، يتأثرون بأحداثه الجارية ويؤثرون فيها ، كما يخضعون للظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية التى يخضع لها المجتمع.

ففى مظاهرات الاستقبال السياسية — التى كانت سمة عامة من سمات الحياة المصرية فى عصر المماليك — كان أبناء الطوائف اليهودية والمسيحية يشاركون المصريين المسلمين فى استجابتهم لأوامر السلطات الحاكمة (ممثلة فى الوالى أو المحتسب) بتزيين الحوانيت والأسواق والتجمع على طول طريق الموكب السلطانى وهم يحملون كتبهم المقدسة والشموع الموقدة

---

(١) الإسنوى ، الكلمات المهمة فى مباشرة أهل الذمة (مخطوط) ق ٩ ، ق ٢٠ — ق٢١ ، ابن النقاش ، المذمة فى استعمال أهل الذمة (مخطوط) ق ٩٦ — ق٩٧ ، ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، ص ٣٩ ، ص ٤١ ، ابن أيبك الدوادار ، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، ص ٤٧ — ص ٥٠ .

مشاركة منهم فى هذه المناسبة. ومن الأمثلة التى تحفل بها المصادر التاريخية على هذا ما حدث سنة ٦٥٨ هـ. (١٢٦٠ م) حين أعاد السلطان الظاهر بيبرس إحياء الخلافة العباسية بمصر، فقد خرجت كافة طوائف المصريين للقاء الخليفة العباسى «أبو القاسم أحمد»، وبينهم اليهود يحملون التوراة والنصارى يحملون الأناجيل(١). وأثناء عودة الظاهر برقوق إلى عرش السلطنة فى سنة ٧٩٢ هـ. (٢٣٩٠ م) تكررت هذه المظاهرة السياسية التى رتبها أنصاره وشارك فيها اليهود والنصارى. وفى العام نفسه استقبله المصريون، المسلمون واليهود والنصارى، بمظاهرة مماثلة لدى عودته من إحدى رحلات الصيد. وفى سنة ٨٨٠ هـ خرج المصريون وبينهم اليهود والنصارى لاستقبال السلطان الأشرف قايتباى بمناسبة عودته من رحلة صيـــد (٢).

ومن الناحية الإقتصادية ساهم المسيحيون واليهود فى أعمال صيانة مرافق الرى مثل حفر الترع وبناء الجسور وما إلى ذلك. وكان اشتراكهم فى مثل هذه الأعمال يتم برغبتهم فى بعض الأحيان، أو بإجبارهم وتسخيرهم مثل سائر المصريين أحياناً أخرى.

ففى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) حدث أن جفت مياه النيل تجاه ساحل القاهرة بحيث صارت المياه ضحلة وملوثة لا تصلح للشرب، فارتفعت أسعار المياه. وتم الإتفاق على بناء جسر على شاطىء النيل من ناحية الجيزة باتجاه القاهرة. وتقرر جمع نفقات بناء هذا الجسر من كافة طوائف الرعية بما فى ذلك اليهود والنصارى. ولم يعف أحد من أداء هذه الضريبة الطارئة، بل إن الدولة أخذتها أيضاً من الجوامع والمساجد والخوانق والزوايا والأديرة والكنائس فضلا عن المنازل والحوانيت (٣). وفى سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥ م)

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص ١٠٩.

(٢) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، جـ ٩، ص ١٩٩، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ ١٢، ص ١٣.

(٣) المقريزى، الخطط، جـ ٢، ص ١٦٧.

ركب السلطان «المؤيد شيخ المحمودى» إلى موقع العمل فى شق خليج جديد من النيل ، ونودى بخروج الناس للعمل فى هذا المشروع ، وألزم والى القاهرة اليهود والمسيحيين بالخروج ضمن طوائف الرعية للمساهمة فى أعمال الحفر (١). وفى جمادى الأولى من العام نفسه ، خرج الأمير «صارم الدين ابراهيم» ابن السلطان ، لتفقد سير العمل فى المشروع وألزم الناس من المسلمين وأهل الذمة بالخروج ليعملوا فى الحفر لمدة يومين (٢).

ويغلب على الظن أن الأقباط قد انفردوا بالمشاركة فى النشاط الزراعى فى البلاد ، على اعتبار أن الزراعة هى المهنة الرئيسية للمصريين منذ القدم ، وقد احتفظ الأقباط الذين لم يعتنقوا الإسلام بأرضهم على مر السنين منذ أمر الخليفة عمر بن الخطاب بأن يعامل المصريون على أساس أن بلادهم فتحت صلحاً ، وهو ما يعنى أن يحتفظوا بالأرض مقابل ضريبة الخراج (٣) . أما جوانب النشاط الاقتصادى الأخرى التى مارسها اليهود والمسيحيون المصريون ، فقد تنوعت ما بين التجارة والصناعات الصغيرة ، وبعض المهن الأخرى.

وفيما يتعلق باليهود فقد أثبتت الدراسات التى اعتمدت على وثائق الجينيزا أن عدد يهود مصر فى عصر سلاطين المماليك كان ضئيلا (٤) . وهو ما تؤيده أقوال بنيامين التطيلى عن أعداد اليهود فى العصر الأيوبى. ولا يبدو معقولا أن يزيد عدد يهود مصر زيادة كبيرة خلال فترة تقل عن قرن من الزمان . كذلك ، فإن قلة عدد معابدهم تدل على ضآلة عددهم كما أسلفنا القول .

وعلى أية حال فإنه يبدو أن اليهود قد عملوا فى مختلف الحرف التى عرفها

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣١٣ ، ص ٣١٤ ؛ العينى : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، ص ٣٣٢ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣١٧ ، ص ٣١٨ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٦ — ص ٢٢٠

(٤) Bosworth, Cheistian and Jewish dignitaries, I, pp. 65 —.66 .

المجتمع المصرى آنذاك ، ولا سيما النشاط المصرفى والأعمال المـالية (١) . كذلك كان لبعض اليهود صناعات صغيرة يتعيشون منها ، فقد ذكر « ابن دقماق » أنه كانت توجد بالقاهرة ثلاثة مطابخ للسكر يملكها ثلاثة من اليهود ، كما ذكر أنه كان لليهود سوق يعرف باسمهم فى القاهرة (٢) . ويستفاد من إحدى وثائق دير سانت كاترين أن بعض نساء اليهود كن يعملن كدلالات (٣) وكانت الدلالة تقوم بالمرور على السيدات فى منازلهن لعرض ما يحتجن إليه من ملبوسات أو مفروشات أو غيرها ، مما يوفر عليهن مشقة الخروج إلى الأسواق ، ولا سيما إذا كن من الشرائح الاجتماعية الثرية (٤) .

وقد عمل بعض اليهود فى مهنة التنجيم وحاز فيها شهرة واسعة : فقد ذكر ابن دقماق أن يهودياً كان يمتلك حانوتاً فى القاهرة يمارس فيه مهنة التنجيم مدة تزيد على أربعين سنة حتى اشتهر المكان باسمه (٥) . ويتضح من بعض وثائق الجينيزا التى تعود إلى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أن بعض اليهود كانوا يعملون فى حرفة النسخ . فهذه الوثيقة عبارة عن خطاب من يهودى يعمل نساخاً متجولا بأقاليم البلاد إلى زوجته (٦) .

أما المسيحيون ، فقد ساهموا بطبيعة الحال فى كافة مناحى النشاط الذى مارسه المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، ويبدو أثرهم واضحاً فى النشاط التجارى الداخلى ، مثلا ، فيما أوضحته بعض كتب الحسبة من أن بعض مثاقيل الموازين كانت تحمل كتابة عربية على أحد وجهيها ، وتحمل على

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٤٤٣ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٤٠ — ص ٤١ ، تريتون ، أهل الذمة فى الإسلام (ترجمة د. حسن حبشى) ص ٢٠٧ .

(٢) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٤١ — ص ٤٢ ، ص ٤٤ .

(٣) س . ك ، وثيقة رقم ٢٥٢ (تاريخها ١٦ صفر سنة ٨٨٩ هـ .) .

(٤) Ahmed Abd Arraziq, La femme au temps des Mamlouks en Egypte (Institut Francait d'Archéologie du Caire) pp. 63. 64.

(٥) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٤٩ .

(٦) Mann, The Jews, I, p. 242 .

الوجه الآخر كتابة قبطية (١) . كما يتضح من وثائق سانت كاترين أن المسيحيين من الملكانيين واليعاقبة قد عملوا فى النشاط التجارى الداخلى والخارجى على حد سواء (٢) . كما تكشف إحدى وثائق بطريركية الأقباط الأرثوذكس أن بعض المسيحيين قد اشتغلوا بالبيطرة ، إذ تذكر الوثيقة اسم « المعلم شحاتة النصرانى اليعقوبى البيطار بالفحامين » (٣).

وهكذا يتضح لنا من هذه الأمثلة أن أبناء الأقليات الدينية سواء من اليهود أو من المسيحيين قد مارسوا كل المهن و الحرف التى مارسها المسلمون تقريباً . ومن ناحية أخرى فإن الوثائق تشير بوضوح إلى أن اليهود والنصارى قد تملكوا العقارات فى شتى أنحاء البلاد أما عن طريق البيع و الشراء ، وإما عن طريق الوراثة (٤). كما تدل هذه الوثائق على أن اليهود و المسيحيين كانوا يتعاملون مع المسلمين فى عمليات البيع والشراء حرية تامة فى ظل القوانين الحاكمة آنذاك (٥). بل إن لدينا وثيقة تشير إلى أن المدين (وهو مسيحى) قد أحال الدائن (وهو مسيحى أيضاً) على أحد تجار « مدينة الطور » المسلمين لكى يضمنه فى تأجيل سداد دينه ، ويتضح من هذه الوثيقة أن الدائن قبل بالفعل تأجيل الدين للسنة التالية «... لعلمه بحاله أنه لايقدر عليه...»(٦).ولدينا المزيد من الوثائق التى توضح أن التعامل فى مسائل البيع والشراء كان يتم بين

---

(١) ابن بسام ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة (بغداد ١٩٦٨) ، ص ١٨٦ .

(٢) س . ك . ، وثيقة رقم ٢٥٦ (تاريخها سنة ٨١٠ هـ) ، ورقم ٢٦٢ (سنة ٨٥٤ هـ) ، ورقم ٢٩٥ (سنة ٨٨٢ هـ) ، ورقم ٢٥٨ (سنة ٨٤٩ هـ) .

(٣) ب . أ . ، رقم ٢٣ .

(٤) س . ك . ، رقم ٢٥٢ (٨٨٩ هـ)، رقم ، ٢٥ (سنة ٩٠٧ هـ) ، رقم ٢٥٨ (سنة ٨٤٩ هـ) ، ورقم ٢٦٢ (سنة ٨٥٤ هـ)ورقم ٢٩٥ (سنة ٨٨٢ هـ) ، انظر كذلك السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٣٦ – ص ٣٨ ، ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٤١ – ص ٤٢ .

(٥) س . ك ، أرقام ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ .

(٦) س . ك ، رقم ٢٨٣ (وثيقة مصادقة شرعية . آخر محرم سنة ٨٠١ هـ) .

اليهود والنصارى و المسلمين فى شكل طبيعى يكشف عن أنهم جميعاً تساووا فى حقوقهم فى هذا المجال (١) .

كذلك كانت تصرفات أبناء الأقليات الدينية القانونية ، مثل البيع ، والرهن ، والوقف ، ومصادقة شرعية ، واستيفاء الدبون ، وتصفية التركات ... وغير ذلك ، تتم على يدى أحد القضاة المسلمين (٢) . ويتضح من وثائق سانت كاترين ووثائق بطريركية الأقباط الأرثوذكس ، أنه فى بعض الأحيان كان الشهود على هذه التصرفات القانونية من المسلمين (٣) . وفى أحيان أخرى كان بعضهم من الذميين (٤) .

ومن الناحية الاجتماعية ، تشير المصادر المتوفرة لدينا إلى أن أهل الذمة قد تمتعوا بحرياتهم الاجتماعية داخل إطار الحياة العامة للمجتمع ككل بل إن بعض الوثائق اليهودية المعروفة باسم « الجينيزا » كتبت بأيدى بعض المسلمين والمسيحيين الذين كانت تربطهم باليهود علاقة من نوع ما (٥) . ولكن هذه الحريات الاجتماعية كانت تخضع ، من حين لآخر ، لبعض القيود التى كانت الدولة تفرضها لسبب أو لآخر . بيد أن ذلك لم يمنع أبناء الأقليات الدينية من القيام بدورهم فى المجتمع والمشاركة الإيجابية فى الحياة اليومية ، التى يؤثرون فيها بقدر ما تسمح ظروف تعدادهم وأوضاعهم الاجتماعية ، ويتأثرون بأحداثها ومجريات الأمور فيها .

---

(١) س . ك رقم ٢٥٢ (وثيقة مصادقة شرعية . ١٦ صفر سنة ٨٨٩ هـ) .

(٢) س . ك ، أرقام ٢٤١ (بيع) ، ٢٦٢ (بيع) ، ٢٥٥ (بيع) ، ٢٥٠ (بيع) ، ٢٥٤ (بيع) ، ٢٤٤ (مصادقة شرعية) ، ٢٥٩ (وقف) ، ٢٦١ (بيع) ، ٢٨٣ (إقرار بدين) ، ب . ا ، أرقام ٨ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٣ (وقف) .

(٣) س . ك ، أرقام ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ب . ا أرقام ٨ ، ١٦ .

(٤) س . ك ، أرقام ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٨٢ حيث نجد أن الشهود جميعاً من المسيحيين ، ب . ا ، رقم ٨ .

(٥) Rabie, The financial system of Egypt, A.H. 564 – 741 – 1169 / 1341 (Oxford University press 1972), p.3.

ولعل الظاهرة الطبيعية والجغرافية الأولى فى مصر هى نهر النيل الذى قامت عليه حياة المصريين منذ العصور السحيقة وحتى الآن . وفى جميع العصور أدرك المصريون ومن جاوروهم أو خالطوهم أهمية نهر النيل فى حياة مصر والمصريين باعتباره الشريان الرئيسى لحياة البلاد وساكنيها . ومن ثم فإن القلق الذى كان يسود البلاد ، فى حالة انخفاض مياه النهر أو تأخر الفيضان ، كان يشمل اليهود والمسيحيين المصريين بطبيعة الحال ؛ فيخرجون مع غيرهم من أبناء مصر إلى الصحراء لأداء صلاة الاستسقاء يحملون كتبهم المقدسة ، ويبتهلون إلى الله تعالى أن يجرى مياه النيل .

وقد أمدتنا المصادر التاريخية العربية بالكثير من الأمثلة الدالة على هذا منها ما حدث سنة ٧٧٥ هـ (١٣٧٣ م) حين توقفت مياه الفيضان عن الزيادة ، واختفى الخبز من الأسواق وبدأ شبح المجاعة بوجهه المرعب يتهدد البلاد ؛ فخرجت جموع المصريين وبينهم اليهود والمسيحيون على اختلاف مشاربهم إلى الصحراء لصلاة الاستسقاء(١) . وفى سنة ٨٥٤ هـ (١٤٥٠ م) نقص النيل وانخفض منسوب المياه ، فاشتد قلق الناس ، وخرجت جموعهم ، كما خرج اليهود والنصارى إلى الصحراء حيث ظلوا معظم ساعات النهار يبكون ويضرعون إلى الله أن يزيل عنهم هذه الشدة(٢).

وظهر تأثير اليهود والنصارى واضحاً فى عادات وتقاليد المجتمع المصرى آنذاك فيما أشار إليه ابن الحاج من أن بعض نساء المسلمين كنّ يأتين بعض التصرفات فى حياتهن اليومية تبدو التأثيرات اليهودية والمسيحية فيها واضحة تماماً . فقد اعتادت بعض النساء ألا يشترين السمك ، أو أكله أو إدخاله فى بيوتهن يوم السبت (ومن المعروف أن اليهود قد حرموا على أنفسهم صيد السمك أو أكله يوم السبت) كما أن بعض النسوة تعودن عدم دخول الحمام أو شراء الصابون وغسل الثياب فى يوم السبت متأثرات فى ذلك

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور (ط . بولاق) ، جـ ١ ، ص ٢٢٩ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة (ط . كاليفورنيا) ، جـ ٧ ، ص ٢٠٦-٢٠٧ .

بعض العادات اليهودية المتعلقة بحرمة يوم السبت ، كما ظهر تأثرهن بالعادات المسيحية فى عدم الاشتغال بشيء فى ليلة الأحد . وإذا كانت المرأة حائضا لا تكيل القمح أوغيره من الطعام ولا تدخل إلى مكان الطعام(١) والمعروف أن اليهود يعتبرون الحيض نجاسة .

كذلك ذكر ابن الحاج أن من عادات نساء مصر فى ذلك الزمان أنهن كن يمنعن خروج أوانى المنزل بعد العشاء ، وأنهن اعتدن شراء اللبن فى أول ليلة من شهر المحرم (بداية السنة الهجرية) تفاؤلا منهن بأن تكون السنة كلها بيضاء(٢) . كما كانت من عادات المصريين أنهم لا ينظفون البيت أو يكنسونه عقب سفر أى من أهل البيت ويتشاءمون إن هم فعلوا ذلك لا يعود المسافر مرة أخرى(٣) .

ومن العادات الاجتماعية التى أثارت احتجاج ابن الحاج واستنكاره، باعتبارها ذات أصل غير إسلامى : تلك العادة التى أشار إليها بقوله : « إذا نزلت فى برج الحمـــل فيخرجون فى صبيحة يومهم ذلك رجالا ونساءاً وشباناً أقارب ، يجمعون شيئاً من نبات الأرض يسمونه بالكركيس فيقطعون ذلك من موضعه بالذهب والفضة والخواتم النفيسة والأساور وغير ذلك ، ويتكلمون بكلام أعجمى يحتمل أن يكون كفراً ، ويجعلونه ما يقطعونه من تلك الحشيشة فى خرائط مصبوغة بالزعفران ثم يجعلون الخريطة فى صندوق ويزعمون أن ذلك ما دام فى البيت يكون سبباً لإكثار الرزق عليهم ... »(٤)

ويبدو أن تأثير اليهود والمسيحيين فى العادات والتقاليد المصرية فى عصر سلاطين المماليك كان واضحاً لدرجة أثارت استياء ابن الحاج الذى

(١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص ٢٧٨ — ص ٢٧٩ ، جـ ٢ ، ص ٦٨ .
(٢) المصدر نفسه . جـ١ ، ص ٢٧٩ .
(٣) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٦٧ .
(٤) ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص ٢٨١ .

يشكو أسفاً من أن المصريين المسلمين « . . . وضعوا تلك العوائد موضع السنن ... » (١)

ولعل من أكبر الدلائل على أن روح الوئام الاجتماعى قد سادت فى كثير من الأحيان بين المسلمين وأبناء الأقليات الدينية فى ذلك العصر ما حدث سنة ٧١٤ هجرية (١٣١٤ م) حين استعار الأقباط بعض قناديل وأثاث جامع عمرو بن العاص لكى يستخدموها فى أحد اجتماعاتهم الدينية فى الكنيسة المعلقة بمصر القديمة(٢) . وهو ما يبعث على الاعتقاد بأن ثمة علاقات ودية وطيدة كانت تربط بين أبناء الأقليات الدينية وغيرهم من المصريين فى ظروف الحياة اليومية العادية . وتحفل مصادر ذلك العصر بالكثير من الأمثلة التى تحمل من الدلائل على روح الوئام الاجتماعى ما لا يمكن تجاهله .

ومن ناحية أخرى ، كان للمسيحيين واليهود نصيبهم من الأمراض الاجتماعية المتفشية فى مصر آنذاك . وهو أمر طبيعى باعتبارهم جزءاً يرتبط ارتباطاً عضويا بالكل المصرى . وطبيعى أنهم خضعوا للعقوبات ذاتها التى كانت توقع على كل من يرتكب هذه الجرائم . بيد أن هناك اختلافا بين عقوبة المسلم وعقوبة غير المسلم ، وهو ما يتوافق مع روح الشريعة الإسلامية . ففى إحدى الحوادث زنى نصرانى بإحدى المسلمات فرجم الإثنان حتى الموت ؛ وأحرقت جثة النصرانى ودفنت المرأة(٣) . ومن الطريف أن جريمة مماثلة وقعت بين يهودى ومسلمة من بنات الطبقة الحاكمة فاختلفت العقوبة ، إذ رجم اليهودى حتى الموت ثم أحرقت جثته وصودرت أمواله ، على حين اكتفى بحبس المرأة(٤) . وفى جريمة أخرى زنى

---

(١) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ٦٥ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ٤١٠ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، جـ٢ ، ص ٢١٨ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ٣ ، ص ١١١ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ص ١٣٥ — ص ١٣٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٣٠ (مخطوط) ق ٢٩٦ — ق ٢٩٩ .

(٤) تاريخ ابن الوردى ، جـ٢ ص ٣٠٦ .

يهودى متزوج بيهودية، ونجا الإثنان من عقوبة الرجم بفضل تدخل بعض أصحاب النفوذ بما ، مما أثار استياء واستنكار المؤرخ تقى الدين المقريزى(١) كذلك كان على المحتسب — من الوجهة النظرية على الأقل — إذا رأى مسلما يشرب الخمر علناً أن يريقها ويؤدبه ، أما إذا كان الفاعل من أهل الذمة اكتفى المحتسب بتأديبه لأنه يشربها علنا(٢) . ويبدو أن هذه العقوبة لم تكن تنفذ فى كثير من الأحوال ، إذ يذكر « ابن الحاج » أن النصارى كانوا يشربون الخمر علنا فى عيد النيروز ويقلدهم فى ذلك بعض العامة من المسلمين (٣) .

ويبدو أن أبناء الأقليات اليهودية والمسيحية فى عصر المماليك قد كونوا الثروات الطائلة ، وتباهوا بمظاهر العز والرفاهية نتيجة لعملهم فى الجهاز المالى والإدارى لدولة سلاطين المماليك مما جعلهم هدفاً لمطامع السلاطين وأمراء المماليك التواقين إلى جمع المال عن أى طريق من ناحية ، وعرضهم لأحقاد عامة المسلمين المطحونين تحت أعباء « المظالم » و « المغارم » التى كانت أعباؤها تتزايد عليهم فى ذلك العصر من ناحية ثانية ، فضلا عن أن الأوبئة والأزمات الاقتصادية التى أرهقت كاهل المصريين جميعاً ، والتى زاد معدل وقوعها فى أواخر ذلك العصر ، جعلت الفقراء يتطلعون بعيون ملؤها الحسرة والحقد نحو أولئك الذميين الذين رأوا فيهم أدوات السلطة فى ابتزازهم .

وينهض دليلا على ذلك ما ذكره المقريزى من أن اليهود والنصارى « . . . قد تزايد ترفهم بالقاهرة ومصر ، وتفننوا فى ركوب الخيل المسومة ، والبغلات الرائعة بالحلى الفاخرة ، ولبسوا الثياب السرية ، وولوا الأعمال الجليلة ... » (٤) . كما أن ابن الأخوة الذى عاش فى الفترة التى تحدث عنها

---

(١) المقريزى ، المصدر السابق ، حـ ٤ ، ص ١٢١١ — ص ١٢١٢ .

(٢) ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ٣٢ .

(٣) ابن الحاج ، المدخل ، حـ٢ ، ص ٥١ .

(٤) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ص ٩٢٣ — ص ٩٢٥ .

المقريزى (القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) يقرر أن دور المسيحيين واليهود فى مصر كانت تعلوا على دور المسلمين ومساجدهم ،وأنهم انحلوا لأنفسهم ألقاب المسلمين وكناهم ، كما ذكر أن اليهودى أوالنصرانى من موظفى الدولة كان يسير بدابته والمسلم يجرى فى ركابه يطلب منه قضاء حاجة له . أما النساء الذميات فكن يتمتعن باحترام الجميع فى الحمامات والأسواق ، لأن ملابسهن كانت عادية بحيث أن أحداً لم يكن يميزهن عن النساء المسلمات (١) .

ويستفاد من إحدى وثائق مجموعة سانت كاترين (٢) أنه إذا اشترى أحد أبناء الأقليات الدينية داراً تعلو على دور جيرانه المسلمين ، كان من حقه أن يحتفظ بها دون أن يهدم الجزء العالى الذى يتيح له كشف عورات جيرانه . كما أن المؤرخ ابن تغرى بردى يذكر فى حوادث سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢ م) أن والى القاهرة أمر المسيحيين بإحضار ما لديهم من الجوارى بعد أن بلغه أنهم يملكون الجوارى المسلمات « ... فمن وجدها مسلمة فى **الأصل ، أو سابيها ، ردها إلى الإسلام ، وأمر صاحبها ببيعها ...** » (٣) وهو ما يدل على أن أهل الذمة المصريين كانوا يعيشون فى بحبوحة من العيش تسمح لهم باقتناء الجوارى . ومن المنطقى أن نقرر أن هذا لا يمثل الحقيقة بالنسبة لجميع اليهود والنصارى ، وإنما تنطبق على أغنيائهم فقط .

وإذا كنا قد عرضنا فى الصفحات السابقة لبعض الأمثلة الدالة على أن روح الوئام والوفاق الاجتماعى كانت المصريين جميعاً فى ذلك العصر ، فإنه يجدر بنا أن نشير إلى أن هذه الحال لم تكن هى السائدة على الدوام فى العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة ، فإن ذلك يبعد عن الحقيقة إلى حد

---

(١) ابن الاخوة ، معالم القربة ، ص ٤٢ — ص ٤٣ .

(٢) س . ك . ، رقم ٢٨٦ (١٢ جمادى أول سنة ٨٨٣ هـ) .

(٣) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج١ ، ص ١٢٤ . السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٣٨٥ .

كبير ، كما أنه يتناقض مع المفاهيم التى أشرنا إليها . فالواقع أن حوادث المشاحنات بين الفريقين قد حدثت فى بعض الأحيان لكى تعكر من صفو العلاقات بينهما . ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما حدث سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) حين نشب خلاف بين المسلمين والمسيحيين فى أحد الأقاليم بسبب شخص مسيحى ، ادعى بعضهم أن جده كان مسلما وحبسه القاضى على اعتبار أنه يعتبر مرتداً عن الإسلام . ولكن المسيحيين فى هذا البلد لجأوا إلى الوالى الذى أمر بإطلاق سراح السجين ليلا ، فهاجت مشاعر عامة المسلمين وساندوا القاضى ضد الوالى ، بل أنهم أغلقوا الحوانيت وعطلوا الأسواق استعداداً لقتال الوالى الذى جمع بدوره بعض الأعوان لقتال الأهالى . وحين علم السلطان فى القاهرة بما حدث أمر بعزل كل من القاضى والوالى(١) . وثمة مثال آخر حدث فى سنة ٧٨٥ هـ (١٣٨٣ م) فى إحدى قرى الأقاليم ، فقد كان المسيحيين يحتفلون بزواج أحدهم ، وكان من عادتهم فى مثل هذه الاحتفالات أن يحضروا المطربين والموسيقيين لإحيائها . ويبدو أن سكان هذه القرية من المسيحيين كانوا يشكلون الأغلبية لأنه حين أراد المؤذن أن يؤذن لصلاة الفجر ، وأثناء قيامه بالتسبيح قبيل الصلاة صعد إليه عدد من المسيحيين وأنزلوه ثم اعتدوا عليه بالضرب ، وحين حاول إمام المسجد والخطيب أن يدافعوا عن المؤذن نالهم ما ناله . وسافر ثلاثتهم إلى القاهرة لعرض شكواهم ، وانتهى الأمر بعد فترة من الزمن بضرب رقاب ستة من مسالمة ذلك البلد الذين شاركوا فى الإعتداء بدعوى أنهم زنادقة(٢) .

كما حدث فى سنة ٨٤٣ هـ (١٤٣٩ م) أن خرج جماعة من المسلمين المتطوعين من دمياط لقتال قراصنة الفرنج فى البحر المتوسط ،

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ص ٩٠٠ — ص ٩٠١ .

(٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ١ ، ص ٢٧٣ ص ٢٧٤ .

ولكنهم استشهدوا عن بكرة أبيهم . وأقام أهل البلد مأتماً لهم ، وأثناء تقبل الأهالى العزاء فى شهدائهم أقام أحد النصارى فرحاً « وأظهر الشماتة والمسرة بما حل بالمسلمين » . ومن ناحية أخرى كان ذلك الرجل النصرانى متهما بالتجسس لحساب الفرنج ، فرفع الأهالى دعوى ضده لدى القاضى الذى حكم بإدانته ، فلما أدرك أنه سوف يقتل أعلن إسلامه . ولكن ذلك لم يمنع المسلمين من قتله ، ثم اشتعل غضبهم على جميع نصارى دمياط فهاجموا كنائسهم ونهبوها(١) .

ولكن مثل هذه الحودث – التى اتخذت طابعاً فرديا على الدوام – يمكن أن نفسرها فى ضوء المفاهيم التى حكمت الناس فى تلك العصور من ناحية ، وفى ضوء الأوضاع الاقتصادية أو الاجتماعية فى مصر آنذاك من ناحية ثانية : كما أن هذه الحوادث التى لم تأخذ طابع الاستمرار لا يمكن أن تقلل من قيمة الحقيقة القائلة بأن أبناء الأقليات الدينية من المسيحيين واليهود فى مصر عاشوا فى رحاب المجتمع المصرى كجزء عضوى منه ؛ ومن الطبيعى دائما أن تحدث بعض المشاحنات بين أبناء البلد الواحد الذين يجمعهم ديانة واحدة ، فما بالنا بالذين تجمعهم ديانات مختلفة فى زمن كان الدين فيه قوة تأثير طاغية على سلوك الفرد والجماعة على السواء ؟

وفى ذلك العصر كان المفروض – نظرياً على الأقل – أن يتمايز المسيحيون واليهود بملابس معينة حتى يمكن التفرقة بينهم وبين المسلمين فى زحام الحياة اليومية : ولكننا ينبغى أن نشير إلى أنه من الثابت أن أهل الذمة لم يلزموا بارتداء الملابس المميزة أو ما اصطلحت المصادر على تسميته « بالغيار » فى أيام النبى عليه الصلاة والسلام . ومن البديهى ، كذلك ، أن المسلمين فى بداية مرحلة الفتوح الإسلامية ، كانوا مختلفين بملابسهم عن أهالى البلاد التى فتحوها ، ومن ثم لم تكن هناك ضرورة

---

(١) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١١٧٠ .

لفرض أية قيود خاصة بالملابس على غير المسلمين فضلا عن أن ذلك يتنافى مع روح الإسلام التى كان الفاتحون قريبى العهد بتطبيقها المثالى على يد الرسول وخلفائه . إلا أنه مع مضى الوقت بدأ المسلمون يتجهون صوب الأخذ بأسباب الترف والرفاهية من جهة ، كما اتسعت الهوة بين المثل والقيم الذى يطرحها الإسلام والممارسات الفعلية من جهة ثانية ، فضلا عن أن بعض أبناء البلاد المفتوحة أخذوا يحاكون المسلمين شأن كل الشعوب المغلوبة فى محاكاة الغالبين فى عاداتهم .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن القيود على ملابس أهل الذمة وسائر ما يتعلق بمظاهر حياتهم اليومية إنما ترجع إلى « العهد العمرى » أو « الشروط العمرية » المنسوبة إلى « عمر بن الخطاب » . بيد أن هذا العهد بصورته التقليدية التى تناقلتها معظم المصادر العربية لم يبدأ فى الظهور سوى فى أواخر القرن الثانى الهجرى(١) . وهو مايعنى عدم صحة نسبة هذا العهد إلى الخليفة العظيم . وعلى أية حال ، فسواء فإن هذا العهد كان هو الأساس الذى فرضت بمقتضاه قيود الملابس على أهل الذمة ومظاهر حياتهم اليومية . فقد كان على النصارى اتخاذ اللون الأزرق لملابسهمفضلا عن الزنار الذى يشدونه حول أوساطهم (وهو خيط غليظ يشبه الحبل اشترط أن يكون من الكتان) فوق الثياب . ويبدو أن الزنار كان كافياً فى بعض الأحيان لتمييز أبناء الطائفة المسيحية ، على حين فرض على اليهود أن تكون ملابسهم صفراء اللون ، وتحدد اللون الأحمر لأبناء الطائفة السامرة . أما النساء المسيحيات واليهوديات ؛ فكان عليهن الالتزام بهـذه الألوان فى ملابسهن ، وتلتزم المسيحية الزنار فوق ثيابها تحت الازار (٢) . كما كان على المرأة الذمية أن تنتعل خفين من لونين متباينين . بيد أن طريقة حياكة الملابس وطرزها كانت واحدة بالنسبة لجميع النساء مسلمات

---

(١) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر ، ص ٢٦ ، ص ٢٨ .

(٢) الإزار : ملاءة فضفاضة كانت نساء عصر سلاطين المماليك يرتدينها فوق ملابسهن . أنظر مايو ، الملابس المملوكية ، ص ١٢٥ — ص ١٢٦ .

وذميات فى ذلك العصر(١) .

وبالإضافة إلى قيود الملابس تعرض أبناء الأقليات الدينية – من الناحية النظرية – لبعض القيود على مظاهر نشاطهم فى الحياة اليومية . فقد حرم عليهم ركوب الخيل – التى كانت امتيازاً موقوفاً على الطبقة الحاكمة وحدها دون سائر المصريين – وحمل السلاح ؛ كما كان المفروض ألا يدخلوا إلى الحمامات العامة دون علامة تميزهم عن المسلمين(٢) وكان على رؤساء طوائف الأقليات أن يلزموا أتباعهم بالحرص على مراعاة هذه القيود التى اعتبرها الفقهاء من شروط عقد الذمة(٣) .

كذلك كان من المفروض أن تكون لأهل الذمة ألقابهم الخاصة بهم ، ومن الطريف أن غالبية هذه الألقاب تبدأ بكلمة « الشيخ » . وكان منهم من يحمل لقباً مضافاً إلى الدولة مثل : « ولى الدولة » و «شمس الدولة» ومنهم من يحذف المضاف إليه ويُعرّف اللقب بالألف واللام مثل « الشيخ الصفى » ، و « الشيخ الشمسى » . فإذا أسلم أحدهم تغير لقبه ليصبح « ولى الدين » . مثلا أو « شمس الدين » . أما إذا كان للذمى الذى اعتنق الإسلام لقب ليس له ما يوافقه فيما يضاف إلى الدين ، فإن اللقب يتغير فى حالة إسلامه ، إلى أقرب الألقاب إليه « فالشيخ السعيد » ، مثلا ، يتحول إلى « سعد الدين » وهكذا(٤) . إلا أن هذا التحديد النظرى لألقاب أهل الذمة لم يوجد سوى بين سطور الصفحات التى سطرها الفقهاء وغيرهم

---

(١) ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ٤١ – ص ٥٣ ؛ ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص ٢٠٧ – ص ٢٠٨ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ١٣ ، ص ٣٦٢ – ص ٣٦٥ ؛ ماير ، المرجع السابق ، ص ١١٦ .

(٢) ابن طلحة ، العقد الفريد للملك السعيد ، ص ١٨١ ؛ القلقشندى ، المصدر السابق جـ١٣ ، ص ٣٦٢ ، يتبع .

(٣) العمرى ، التعريف ، ص ١٤٤ – ص ١٤٥ ؛ ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٢١٦ – ص ٢١٧ ؛ القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ١٣ ص ٣٩٢ .

(٤) القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٤٩٠ – ص ٤٩١ .

فها هو أحد المعاصرين يشكو أسفاً من أن اليهود والمسيحيين « ... **يدعون بالنعوت التى كانت للخلفاء ، ويكنون بأبى الحسن وهو على بن أبى طالب ، وبأبى الفضل وهو العباس عم رسول الله عليه الصلاة والسلام . .** »(١) وهو ما يشير إلى أن الحكام لم يكونوا يتذكرون هذه القيود إلا تحت وطأة ظروف معينة . كما كان من المفروض أيضاً أن يكون لأهل الذمة دعاء خاص بهم يشترط فيه ألا يكون فيه تمنى القوة لهم أو الرغبة فى إلحاق الضرر بالمسلمين ، وكانت لهم ، أيضاً ، إيمان خاصة يحلفون بها(٢) ومن الواضح أن الإلتزام بمثل هذه الأمور فى الحياة اليومية أمر مستحيل تماما ، والظاهر أن الصيغ التى حددها القلقشندى بهذا الصدد إنما قصد بها أن تستخدم فى المكاتبات الرسمية الصادرة عن ديوان الإنشاء فقط .

وبوسعنا أن نؤكد ، اعتماداً على المصادر التاريخية لتلك الفترة ، أن مثل هذه القيود لم تعرفها مصر فى عصر سلاطين المماليك قبل سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) . ففى هـذه السنة زار وزير المغرب مصر ؛ فى طريقه إلى بلاد الحجاز للحج ، وانتابه الغضب الشديد من جراء ما شاهده من تمتع أبناء الأقليات الدينية بكل مظاهر الحريات السياسية والاجتماعية ، وتقلدهم لأعلى الوظائف ، وهو أمر لم يكن مألوفا بالنسبة للأقليات الدينية وفقا لمفاهيم العصور الوسطى . ومن ثم أخذ الوزير المغربى فى شن حملة ضد أهل الذمة ، وآتت هذه الحملة ثمارها فى تلك الضغوط التى تعرض لها اليهود والمسيحيون فى ذلك العام . فقد ألزم اليهود بلبس العمائم الصفراء ، على حين تعين على النصارى أن يلبسوا العمائم الزرقاء ، وتحدد لعمائم السامرة اللون الأحمر . كذلك حرم على أبناء هذه الطوائف أن يركبوا الخيول وفرض عليهم ركوب الحمير « بالأكف عرضا » أى من

---

(١) ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ٤٢ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ ٦ ، ص ٢٨٦ ؛ الخالدى ، المقصد الرفيع(مخطوط) ق ٢٣ ، ق ٢٠٤ .

جهة واحدة ، كما تجددت كافة القيود الواردة فى تلك الشروط المنسوبة إلى عمر بن الخطاب . وأعقب ذلك طرد اليهود والمسيحيين من الوظائف التى كانوا يتولونها فى ديوان السلطان أو فى دواوين الأمراء(١) .

وأصدر السلطان « الناصر محمد » مرسوماً فى هذا الشأن ، ولكن حدة لهجة المرسوم كانت أكثر شدة من تطبيقاته ، وما لبث التهاون والتغاضى عن مخالفات أهل الذمة لهذا المرسوم أن غلب على تصرفات الحكومة . وفى سنة ٧٠٩ هـ حاول الوزير « إبن الخليلى » أن يقضى على ما تبقى من مظاهر حملة سنة ٧٠٠ هـ ، وحاول إقناع السلطان « الناصر محمد بن قلاون » أن يسمح لليهود والنصارى بالعودة إلى إرتداء العمائم البيضاء بالعلامات مقابل مبلغ من المال وهو ما يؤكد ماذهبنا إليه من أنه لم تكن هناك قيود على ملابس الأقليات الدينية قبل أحداث سنة ٧٠٠هـ سوى العلامات التى كانوا يضعونها فوق عمائم . على أية حال ، فإن معارضة الشيخ « تقى الدين بن تيمية » قد حالت دون تنفيذ اقتراح الوزير (٢) .

وفى سنة ٧٠٢ هـ تجددت أوامر فرض القيود على أهل الذمة . وجاءت القيود فى هذه المرة نتيجة لرد الفعل الغاضب من قبل الناس والدولة تجاه الحريق الذى دبره بعض الرهبان الملكانيين ، والذى التهم أجزاء كبيرة من أحياء مدينة القاهرة ، كما أثار الرعب والسخط فى نفوس الناس الذين تملكتهم المشاعر الدينية الخارقة ، فمارسوا ضغوطهم على الحكومة التى استجابت لهم بعد علة مصادمات شهدتها شوارع القاهرة بين الناس والمماليك (٣) .

وكان من القواعد المرعية فى ذلك العصر أن يتناسب حجم العمامة تناسباً

---

(١) ابن أيبك الدوادار ، الدر الفاخر ، ص ٤٧ – ص ٥١ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٢١١ .

(٢) العينى ، عقد الجمان (مخطوط) حوادث سنة ٧٠٩ ؛ السيوطى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢١٢ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ – ص ٢٢٨ .

طردياً مع مكانة الفرد فى المجتمع ، بحيث لا يجوز لشخص ذى مركز اجتماعى متواضع أن يضع على رأسه عمامة كبيرة. ولذلك كان الغضب يستبد بالمتعممين من فقهاء المسلمين وقضاتهم إذا تجاوزت عمامة الذمى الحد المألوف . لأن فى ذلك إعتداء على حقوقهم . ولدينا الكثير من الأمثلة الدالة على ذلك ، ففى سنة ٧٥٥ هـ . تعين على أهل الذمة ألا يزيدوا شال عمائمهم عن عشرة أذرع (١) . كما نودى فى سنة ٨٢٠ هـ بألا يتشبه اليهود والنصارى بقضاة المسلمين فى ملابسهم . وفى سنة ٨٢٢ هـ تجددت حوادث الإضطهاد ضد المسيحيين واليهود رداً على ما لحق بمسلمى الحبشة من أذى على يد الإمبراطور الحبشى المسيحى ، وحرم عليهم أن يزيدوا فى شال العمامة عن سبعة أذرع(٢). وفى سنة ٨٣٠ هـ . تقدم لنا المصادر مثالاً آخر على فرض هذه القيود ، ولكن شكوى أهل الذمة للسلطان جعلته يعقد إجتماعاً فى القلعة بحضور القضاة ، وانتهى الإجتماع إلى قرار بتخفيف حدة هذه القيود (٣) .

وتدلنا كثرة المراسيم الصادرة فى عصر سلاطين المماليك بشأن فرض القيود على أبناء الأقليات الدينية بوضوح على أن تلك القيود لم تكن مطبقة بصفة دائمة طوال ذلك العصر . كما أن فرض تلك القيود غالباً ما كان يأتى ضمن حملة عامة ضد أهل الذمة يكون مبعثها سبب أو آخر . ومن المهم أن نورد فى هذا المقام ما قرره القلقشندى ، الذى عاش فى أوائل القرن التاسع الهجرى (١٥ م) من أن كل ما كان يميز اليهود والنصارى عن المسلمين فى ذلك الوقت هو لون عمائمهم ، وكونهم يركبون الحمير على البراذع ويثنى الواحد منهم رجله قدامه » ... ولا يميز يعتادونه الآن سوى

---

(١) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٩٢٤ — ص ٩٢٥ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ٨ ، ص ٤٨٦ ، ص ٤٩٥ ؛ العينى ، عقد الجمان ، (مخطوط) حوادث سنة ٨٢٢ هـ .

(٣) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ ٣ ، ص ٣٨٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٥ ، ص ٤٠٧ هـ .

ما قدمناه ... » (١) . ممايؤكد أنه فيماعدا هذه القيودالضئيلة مارس الذميون حياتهم الاجتماعية في إطار النشاط العام للمجتمع المصرى جنباً إلى جنب مع المسلمين.

وينهض دليلا على قوة العلاقات الاجتماعيه بين المسلمين وأبناء الطوائف الذمية فى مصر العصور الوسطى أن بعض المواسم والأعياد الخاصة بالمسيحيين إتخذت طابعاً عاماً . وقد ارتبطت بعض هذه الأعياد بنهر النيل ، مما يشير إلى جذورها التى تمتد إلى أيام قدماء المصريين . كماشارك المسلمون المسيحيين واليهود فى بعض الأعيادالأخرى بمظاهر المجاملةالاجتماعية، وتبادل الأطعمة والحلوى وغيرها من الهدايا (٢) .

كذلك ارتبطت بعض عادات المصريين الاجتماعية ببعض الأعياد المسيحية ، فقد إعتاد المصريون أن يصنعوا نوعاً من العصيدة فى « عيد الميلاد ». وكانوا يعتقدون أن من يأكل منها لا يصاب بالبرد طوال السنة (٣) . كذلك تعود الناس على مشاركة المسيحيين عادة غمس أطفالهم فى المياة الباردة فى عيد « الغطاس » الذى يحل فى الشتاء ، بسبب ما اعتقدوه من أن ذلك يقيهم شر المرض طوال حياتهم (٤) . وكان من عادة النساء أن تطلق البخور فى بيوتهن فى « خميس العهد » بزعم أنه يصرف عنهم العين والكسل والأمراض (٥) . وفى « سبت النور » كان البعض يكتحلون بالكحل الأسود على أساس أن ذلك يكسبهم نوراً زائداً فى أبصارهم (٦) .

ورب قائل بأن أبناء الأقليات الدينية فى مصر زمن المماليك مصريون

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٦٣ .
(٢) أنظر دراستنا عن « الأعياد والاحتفالات » فى هذا الكتاب .
(٣) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ص ٥٨ — ص ٥٩ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٥٩ .
(٥) المصدر نفسه . ج ٢ ص ٥٤ .
(٦) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

مثل المسلمين ، ومن ثم فإن لهم الحقوق نفسها. وهذا الكلام صحيح فى ضوء مفاهيمنا المعاصرة التى تتسم بالعلمانية إلى حد كبير . بيد أنه ينبغى علينا أن نعيش الحدث التاريخى من داخله لكى نتفهمه بشكل يقربنا إلى الحقيقة قدر الإمكان . ويعنى هذا أن نحاول أن نتمثل المفاهيم والقيم التى كانت تتحكم فى الناس فى تلك الفترة التاريخية . ومن العبث المضلل أن نحاول إلزام الناس فى العصور الوسطى بمثلنا وقيمنا ، ونحاسبهم إذا لم يتصرفوا على أساسها ، لسبب بسيط هو أنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن هذه المُثُل والقيم والمفاهيم التى نطالبهم بها .

وفى العصور الوسطى كانت فكرة « الوطن » فكرة دينية بحتة ، وتتعلق بجماعة المؤمنين أكثر مما تتعلق بالأرض بحدودها الجغرافية ، أى أن «الوطن» الذى يجمع الناس فى الحياة الدنيا — التى هى مقام زائل — ليس هو الأرض كتعبير جغرافى ، بقدر ما هو الدين والعقيدة التى تربط بين أبناء الأمة. وتعيش الأقليات الدينية فى حماية جماعة المؤمنين ، ويتمتعون بكافة حقوقهم بشرط ألا تعلو مكانتهم فوق مكانة جماعة المؤمنين .

صحيح أن هذه المفاهيم تبتعد عن روح الإسلام وموقف الشريعة من أهل الذمة (١) . ولكن تراث الإحتكاك الحضارى بين المسلمين والغرب المسيحى ، بما تخلله من حروب طويلة وعنيفة ، منها تلك السلسلة المعروفة باسم الحروب الصليبية ، خلف شعوراً بالمرارة تجاه غير المسلمين . كما أن ثروات اهل الذمة التى كونوها بفضل عملهم فى الجهاز الحكومى ، والتدهور الاقتصادى المستمر لجموع المسلمين جعلت الناس يعبرون عن موقفهم الاجتماعى المتعالى على غير المسلمين تعبيراً دينياً. وبعبارة أخرى ، فإن العوامل الإقتصادية والاجتماعية قد ألبست ثوباً دينياً لتخلق هذا الموقف الاجتماعى ، على الرغم من تعارضه مع روح الإسلام . وعلى هذا الأساس يمكن ، فى تصورنا ، أن نفسر النظرة التى كانت تفترض ألا يكون بناء الأقليات الدينية فى مصر

(١) قاسم عبده قاسم : أهل الذمة ، الباب الأول حيث يناقش هذا الموضوع بالتفصيل .

زمن المماليك أعلى فى مكانتهم الاجتماعية من المسلمين .

ومهما يكن من أمر ، فالواضح أن المسيحيين قد عاشوا حياتهم بشكل عادى داخل إطار المجتمع المصرى . وغالبا ما كان واقع حياتهم يتجاوز هذه المفاهيم التى ظلت فى كثير من الأحيان كامنة فى الصدور ولا تعبر عن نفسها سوى فى لحظات الإثارة أو الغضب .

اما عن دور أهل الذمة فى الحياة الثقافية والعلمية فى عصر المماليك ، فالواقع أن المعلومات المتاحة بهذا الشأن قليلة بدرجة لا تمكننا سوى من إعطاء صورة عامة عن نشاط اليهود والنصارى الثقافى .

وبالنسبة لليهود ، فإننا نستطيع أن نقرر أن النضال المذهبى ، لا سيما بين القرائين والربانين ، والذى كان محوره الأساسى ترجمة الكتاب المقدس وتفسيره ، قد أنتج نشاطاً أدبياً واسع النطاق فى العصور الوسطى ، وقد تمثل هذا النشاط فى تلك الأعمال اللاهوتية التى كتبت غالبيتها باللغة العربية . وعلى الرغم من تمسك اليهود فى معظم أنحاء العالم باللغة العبرية ، فإنهم فى مصر قد استخدموا لغتين إحداهما العربية والثانية هى اللغة العبرية . والواضح أن لغة الحياة اليومية كانت هى اللغة العربية ، على حين ظلت العبرية هى اللغة المرتبطة بالتراث الدينى إلى حد بعيد . وكان الشعر اليهودى يكتب بالعبرية فى غالب الأحيان ، أما النثر فإن معظم إنتاج الكتاب اليهود منه كان يكتب باللغة العربية . وفيما عدا بعض التعبيرات والمفردات العبرية الخالصة التى وجدت طريقها إلى اللغة العربية ، استخدم اليهود فى زمن المماليك اللغة العربية فى كتاباتهم ، حتى ما يتعلق منها بشروح الكتاب المقدس والتعليق على التلمود ، وذلك بعكس يهود البلاد المسيحية الأوربية الذين لم يستخدموا فى مثل هذه الكتابات ذات الطابع الدينى لغة أخرى غير اللغة العبرية . والحقيقة أن ظاهرة استخدام اليهود للغة العربية فى كتاباتهم وبحوثهم لاتقتصر على مصر وحدها وإنما ينسحب على يهود العالم الإسلامى عامة ، وهو ما تشهد بصحته مؤلفاتهم العربية فى شتى ضروب المعرفة . وفى رأى بعض الباحثين

المحدثين أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن الكتابة باللغة العربية آنذاك ، كانت هى الشىء الطبيعى والأقل جهداً ، كما أن اللغة فى المؤلفات التى تتناول موضوعاً علمياً لا تحمل مفهوماً إيديولوجياً كما هو الحال فى الإبداع الفنى مثل الشعر(١) . بيد أننا ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أن الأسباب المباشرة لهذه الظاهرة إنما تتمثل فى تسيد اللغة العربية فى ذلك الحين ، فضلا عن رغبة المؤلف فى أن ينتشر لدى جمهور عريض . وثمة دليل قوى على تسيد اللغة العربية بين يهود مصر فى تلك الفترة هو أن وثائق الجنيزا كتبت باللغة العربية فى حروف عبرية أو بالعربية اليهودية التى كانت لغة يهود مصر(٢) .

وعلى الرغم من أن طائفة القرائين فى مصر قد عاشت فى سلام فى العصور الوسطى ، فإن ما أفرزته هذه الجماعة من مفكرين كانوا رجالاً عاديين من أمثال « صمويل بن موسى المغربى » (القرن الثامن الهجرى — ١٤م). وقد دارت كتابات أولئك الرجال من أهل الفكر حول تلخيص وتطوير كتابات أسلافهم . والاستثناء الوحيد بينهم هو «موسى بن ابراهام الداوى » الذى عاش فى القرن السابع الهجرى (١٣م)، وهو شاعر ذو موهبة متميزة ، بيد أنه كان يعتمد على محاكاة الأنماط الشعرية و الأساليب التى إستخدمها شعراء اليهود فى الأندلس . وفى القرن التاسع الهجرى (١٥م) كتب أحد اليهود القرائين حولية تحدث فيها عن الكتاب اليهود ، وتعتبر حوليته هذه بمثابة وثيقة عبرية هامة(٣) كما أن « إبراهيم بن فرج الله بن عبد الكافى اليهودى العانانى » (ت ٨٤٤هـ) — والذى يبدو من لقبه أنه كان من القرائين — كان يجمع بين معرفة حاذقة بالطب ، كما يبدو من كلام السخاوى عنه ، وبين الإلمام بأصول الديانة اليهودية « ... ولم يخلف بعده من يهود مصر مثله كثرة فى

---

(١) Ibraham S. Halkin, « The Arab - Jewish litrature» (The Jews; their history, culture, and Civilizian, ed., Finkelstein L. New York) I, pp. 1116 - 1148.

(٢) Rabie, H., Financial System of Egypt, pp. 3-4.

(٣) U. J. B., Art. « Karaites »

حفظ نصوص التوراة وكتب الأنبياء ... »(١) .

وعلى العموم ، فقد كان للجماعات اليهودية التى عاشت فى بلاد العالم الإسلامى تاريخ أدبى طويل ، بيد أن حظ الربانين منه كان أكبر من حظ غيرهم من طوائف اليهود . وتميز الربانون بذلك التراث الأدبى الذى تراكم على مدى عدة قرون . وعلى الرغم من المؤثرات الخارجية ، فإن النتاج الأدبى اليهودى ظل يهودياً فى روحه وأغراضه ، بل وفى شكله أحياناً . وقد تأثر اليهود بما لمسوه من نشاط ثقافى فى العالم الإسلامى ، مما دفعهم إلى التخلى عن اللغة العبرية واللغة الآرامية ، الأمر الذى جعل الأدب اليهودى يسلك بالضرورة دورباً جديدة . ومن ثم ظهرت إهتمامات جديدة عالجها الأدب اليهودى فى العصور الوسطى شعراً ونثراً . وكانت غالبية هذا النتاج الأدبى لاسيما المنثور منه — مكتوبة باللغة الغربية . وقد وجد اليهود الفرصة متاحة أمامهم للتعبير عن اهتماماتهم الجديدة فى لغة العصر والثقافة آنذاك ، أعنى اللغة العربية(٢) .

ونستطيع من خلال وثائق الجينيزا أن نستنتج أن غالبية يهود مصر فى ذلك الحين كانوا يجهلون اللغة العبرية ، فالوثيقة التى لدينا عبارة عن خطاب أرسله ناسخ متجول بالأقاليم إلى زوجته بالقاهرة ، والخطاب مكتوب باللغة العبرية ويرد فى الخطاب اسم من سيترجم الكتاب للزوجة(٣) . ويتضح من عبارات الأسف والاحتجاج على تجاهل يهود مصر للغة العبرية (وهى عبارات صاغها أشخاص يهود كتبوا مؤلفاتهم أيضاً باللغـــة العربية) أن مشكلة الاحتفاظ باللغة العبرية كانت مشكلة تلح على يهود ذلك العصر . على الرغم من أنهم ظلوا يستخدمون اللغة العربية لنشر إنتاجهم الأدبى(٤) .

---

(١) السخاوى ، الضوء اللامع فى أهل القرن التاسع ، ج ١ ، ص ١١٦ .

(٢) Ibraham S. Halkime, The Aarab – Jewish lit., I, pp. 1118–19.

(٣) Mann, The Jews, I, p. 242.

(٤) Halkine, op. cit, I, pp. 1111 – 22

وتمدنا المصادر التاريخية العربية بأسماء بعض اليهود الذين لمعت أسماؤهم في سماء النشاط الثقافي : منهم « موسى بن كجلك » (ت ٧٦١هـ) الذي برع في الطب وغيره من العلوم ، كما ألف كثيراً من الكتب ، وقد أسلم هذا الرجل في مرحلة متأخرة من حياته(١) ، ومنهم « صدر الدين بن نفيس » الذي تقاسم رياسة الأطباء بعد إسلامه مع أحد بني دينه(٢) ومنهم أيضاً « أحمد بن المغربي الإشبيلي » الذي عاش في أواخر القرن السابع الهجري واعتنق الإسلام في عهد « الأشرف خليل بن قلاون » وتولى رياسة الأطباء وكان مُلما بالتنجيم والفلسفة(٣) .

أما المسيحيون فقد اشتهر من بينهم عدد ممن تميزوا في الساحة الثقافية وإن كانت معظم مؤلفاتهم تدور حول الاهتمامات ذات الطبيعة الدينية أو الكهنوتية كما أن بعض تلك المؤلفات اتخذت شكل الردود على اليهود أو المسلمين ، أو الدفاع عن مذهب بعينه من المذاهب المسيحية ؛ مما يوحي بأن نوعا من النقاش والحوار الثقافي قد دار في تلك الفترة بين أبناء الديانات الثلاث .

وقد اشتهر من مثقفي المسيحيين أسرة « أبناء العسال » ، ومنهم « أبو إسحق ابن فخر الدولة أبو الفضل بن أبي البشر العسال » . وله عدة مؤلفات دينية وألف كتاباً في قواعد اللغة القبطية . وكان أخواه « الأسعد أبو الفرج هبة الله » و « الصفي أبو الفضائل ماجد » — الذي ألف كتابا في الرد على « تقي الدين بن تيمية » — يسيران على دربه(٤) . كذلك عاش في القرن السابع الهجري (١٣م) كاتب آخر هو « ابن الدهيري المصري القبطي » الذي ألف كتابا في أصول اللغة القبطية . وفي تلك الفترة نفسها عاش المؤرخ النصراني المعروف « بابن العميد » (ت ١٣٧٣م) وقد ألف عدة كتب في

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٥٦ .

(٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

(٣) المقريزي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٧ — ص ١٨٨ .

(٤) لويس شيخو ، المخطوطات العربية لكتبة النصرانية (بيروت ١٩٤٢ م) ج ٤ ، ص ١١ — ص ١٣ .

التاريخ منها كتاب لايزال مخطوطا يبدأ بالخليقة وينتهى بالهجرة ، وله كتاب آخر مختصر لتاريخ الطبرى وعليه تتمة حتى عهد المعز أيبك . ومن المؤرخين الأقباط الذين عاشوا فى مصر فى عصر المماليك المؤرخ « المفضل بن أبى الفضائل » الذى ألف كتابا فى التاريخ قصد به أن يكون ذيلا على تاريخ « ابن العميد » كما ذكر هو نفسه فى مقدمة كتابه(١) . وفى القرن الثامن الهجرى (١٤م) ألف أحد مثقفى الأقباط ، وهو « بطرس أسقف مليج » بعض الكتب للدفاع عن المذهب اليعقوبى ضد أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى ، كما ألف كتاباً يرد فيه على المسلمين دفاعاً عن المسيحية(٢) .

والواضح أن معظم المؤلفات المسيحية فى عصر سلاطين المماليك قد كتبت باللغة العربية باستثناء ما كان متعلقاً منها بقواعد وأصول اللغة القبطية التى يبدو أنها لم تكن لغة التخاطب اليومى بين الأقباط ، فيما عدا بعض قرى الصعيد . كما أنها من ناحية أخرى لم تكن معروفة لدى المسيحيين الملكانيين . والواضح أيضاً أن هذه المؤلفات كانت ذات موضوعات دينية فى أغلب الأحوال ، وهو ما يمكن أن يفسر لنا سبب عدم إشارة المؤرخين المسلمين إلى الكثير من الكتاب النصاوى . كما أن حقيقة تركز معظم هذه الكتابات حول المواضيع الدينية والكهنوتية جعل تأثير المسيحيين فى النشاط الثقافى العام محدوداً .

وفى بعض الأحيان قامت العلاقات الطيبة بين المفكرين المسلمين والمفكرين من أهل الذمة ، فقد ذكر السخاوى أن المؤرخ « تقى الدين المقريزى » كان ملماً بمذاهب أهل الكتاب حتى أن أفاضلهم كانوا يترددون عليه للإستفادة منه(٣) . كما أن « الشيخ تقى الدين بن تيمية » يذكر أنه ألف كتاباً « . . . رداً على كتاب ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين

---

(١) Patrologia Orientalis, XII, pp. 347 – 49 .

(٢) لويس شيخو ، المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٦٢ .

(٣) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٢٣ .

النصارى ... »(١) ، مما يوحى بأن الحوار الدائر بين أبناء الديانات الثلاث فى تلك الفترة قد تعدى حدود البلاد إلى خارجها .

ومن ناحية أخرى كانت مشاعر التزمت تفرض نفسها على الحوار بين المسلمين واليهود والنصارى ، فيأخذ شكل الهجاء والسخرية من معتقدات الطرف الآخر . وقد بلغت العلاقة بين المثقفين المسلمين من جهة ، والمثقفين الذميين من جهة أخرى ، درجة من التزمت والتأزم فى بعض الأحيان بحيث نجد بعض المسلمين يعارضون مظاهر التقارب والوفاق الاجتماعى بين المسلمين وأبناء الأقليات الدينية ، بل إن البعض كانوا يعتبرون هذا التقارب خروجاً على الدين(٢) .

ولا بأس أن نكرر ما سبق قوله من أنه من الخطأ أن نحكم على تلك الأمور بموازين عصرنا أو وفقا لمفاهيمنا الحالية ، وإنما يجدربنا أن نحاول تقييم تلك الظاهرة فى ضوء ظروف العصر الذى وقعت فيه . وعلى أية حال ، فان المثقفين كانوا من فئة المعممين من القضاة والفقهاء الذين كان بعضهم يرى أن من واجبه أن يحمى دينه ، وأن هذه الحماية تتأتى بفرض بعض القيود على أهل الذمة . كما أن الطابع الخاص لدولة سلاطين المماليك ، وحرص السلاطين على الواجهة الدينية أتاح لجماعة المتعممين نفوذاً واسع النطاق . فضلا عن أن بعض العلماء والفقهاء كانوا يريدون أن يستأثروا لأنفسهم بوظائف الإدارة المالية التى نافسهم فيها أهل الذمة بمالهم من خبرة متوارثة فى هذا المجال ، فادعوا أن فى إستخدام المسيحيين واليهود فى الوظائف مخالفة صريحة لتعاليم الدين الإسلامى .

على أن هذا لا يعنى بأى حال من الأحوال أن رجال العلم المسلمين اتخذوا من اهل الذمة موقف العداء الأعمى على الدوام . فالواقع أن لدينا من

(١) ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (القاهرة ١٣٢٣ هـ) ، جـ ١ ص ١٩ .

(٢) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٤٦ — ص ٤٨ ، جـ ٣ ، ص ٥٦ .

الشواهد مايؤكد عكس ذلك فقد كان بعض القضاة يرفضون مجاراة المشاعر العامة فى أوقات الاضطرابات ، إذ وقف الشيخ « ابن دقيق العيد » موقفاً حازماً تجاه مسألة هدم الكنائس التى أفتى الفقهاء بوجوب هدمها أثناء حوادث سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م)(١). هذا عدا الوثائق العديدة التى تشير بعدم جواز تعرض المسلمين لأهل الذمة أو أموالهم ، وتقرر أن على الحاكم منع ذلك حتى ينال ثوابه(٢) . كذلك تشهد بعض الوثائق بأن الحماية كانت تتوفر لهم ولأملاكهم من خلال أحكام القضاة المسلمين(٣)

---

(١) ابن النقاش ، المذمة ، ص ٩٩ .

(٢) س . ك ، ٢٣٠ ، ٣٢٥ ، ٢٢٨ (فتاوى) .

(٣) س . ك ، ٢٦٨ ، ٢٦٦ .

الأعياد الدينية والاحتفالات العامة

مظاهر الأعياد وارتباطها بالاستقرار الاجتماعى والسياسى – أعياد المسلمين – ومواسمهم (الاحتفال بشهر رمضان – عيد الفطر – عيد الأضحى – المواسم – دوران المحمل – المولد النبوى) – أعياد أهل الذمة – الأعياد التى شارك المسلمون فيها – الاحتفالات العامة (وفاء النيل وكسر الخليج – عيد الشهيد عيد النيروز) – التدهور والاضمحلال وأثره على الأعياد والاحتفالات

لا شك أن الأعياد والاحتفالات مؤشر هام وصادق على مدى تقدم المجتمع ودرجة ما يتمتع به من استقرار اقتصادى وسياسى ، وتماسك اجتماعى . والأعياد والاحتفالات التى نتصدها فى هذه الدراسة هى الأعياد والاحتفالات المرتبطة بالشعوب والتى تنبع من تراثهم أو تتصل بدياناتهم ومن ثم تحظى باهتمامهم. ذلك أن هناك من الأعياد والاحتفالات ما يفرضه الحكام لسبب أو لآخر بغض النظر عن مدى رغبة واهتمام الناس بهذه الأعياد والاحتفالات . وهذا النوع من الاحتفالات قد يكون من عوامل التضليل عند محاولة المؤرخ التعرف على ملامح الحياة اليومية فى مجتمع من المجتمعات ؛ فكم من الحكام أقاموا الاحتفالات وحددوا الأعياد وبالغوا فى الاحتفال بمظاهرها الصاخبة فى محاولة لتغطية الواقع بمرارته. وحجب صوت أنين شعوبهم وهى ترزح تحت وطأة الظلم والفاقة ؟!

وفى الصفحات التالية سنحاول أن نتعرف على جانب من جوانب حياة المصريين اليومية فى عصر سلاطين المماليك من خلال أعيادهم الدينية والعامة (القومية) . وإن نظرة على تلك الكثرة من الأعياد والاحتفالات المصرية فى ذلك الحين ، وما كان يصحبها من مظاهر البهجة والسرور والرفاهية ، لتكشف لنـــا عن صورة تفيض بالبهجة والإشراق لمجتمع يعيش حياة مستقرة فى ظل نظام سياسى متين ، واقتصاد مزدهر ، وأوضاع أمنية وطيدة الأركان . وهذه الصورة صحيحة فى مجملهـــا ، فقد كانت دول سلاطين المماليك فى طور الصعود والنمو والقوة ، تتمتع بقدر كبير من

الثراء والقوة مما جعلها حاكمة قادرة فى الداخل ، مرهوبة مهابة فى الخارج . وتحقق للمصريين قدر كبير من السلام والرخاء النسبى انعكس فى النمو السكانى والرواج التجارى الداخلى(١). كما تمثل فى اهتمام الناس بجوانب التسلية والترفيه فى حياتهم . وقد ذكر ابن بطوطة ، الذى زار مصر فى عصر الناصر محمد بن قلاون(النصف الأول من القرن الرابع عشر) أن أهل مصر « ذوو طرب وسرور ولهو ... » (٢). ولا شك أن عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون يعتبر من أهم فترات التاريخ المملوكى وأكثرها استقراراً وازدهاراً . بيد أن ما ذكرناه لا يعنى ، بأية حال، أن الصورة كانت مشرقة على الدوام فى الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك ، وإنما يعنى أن الألوان الزاهية فى هذه الصورة كانت غالبة على الألوان القاتمة والشاحبة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الفترات التى شهدت صراعاً على كرسى الحكم فى عصر المماليك البحرية كانت تترك تأثيراتها السلبية بالضرورة على الأعياد والاحتفالات التى يهتم بها المصريون. ولكن البلاد كانت تعيش حياة أفضل كثيراً من تلك التى شهدتها مع مطلع القرن الخامس عشر وحتى نهاية ذلك العصر .

وإذا ما بدأت دولة المماليك رحلتها صوب الغروب والأفول، انعكس ذلك بوضوح على كافة مظاهر الحياة على المستوى السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى والأمنى ، فإذا بالحال غير الحال ، وإذا بالبهجة تخلى مكانها للكآبة ، وتعتم صورة مصر والمصريين وتتواضع مظاهر الاحتفال بالأعياد والمواسم والمناسبات العامة إلى أدنى مستوياتها . ولا غرو فقد كان ذلك إيذانا بمغيب دولة ونهاية عصر .

والواقع أن مصر فى ذلك الزمان قد عرفت عدداً كبيراً من الأعياد والاحتفالات التى اهتم الناس بإحيائها . ومن الطبيعى أن عدداً من هذه الأعياد

---

(١) أنظر دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب .

(٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٣٢ .

كان يتصل بعقائد المصريين ودياناتهم ، فقد كانت للمسلمين أعيادهم ومواسمهم التى اتخذ الاحتفال بكل منها مظهراً محدداً وارتبطت بعادات المصريين وتقاليدهم الاجتماعية. كذلك كان لأهل الذمة من اليهود والنصارى أعيادهم الخاصة بهم . وينبغى أن نشير إلى أن بعض هذه الأعياد – لا سيما أعياد المسيحيين – كان يتخذ سمة اجتماعية لافتة للنظر على نحو ما ستكشف عنه الصفحات القادمة : وثمة من الأعياد ما كان يتخذ شكل الاحتفال القومى ، على حد تعبيرنا المعاصر ، وذلك لارتباطه بحياة المصريين جميعاً (مثل الاحتفال بوفاء النيل) ، أو لارتباطه بالتراث الموروث عن قدماء المصريين .

وإذ بدأنا بدراسة الأعياد الدينية ، وجدنا أن أهم احتفالات المسلمين وأعيادهم كانت تتركز حول شهر رمضان وإحياء لياليه ، ثم الاحتفال بعيد الفطر فى نهاية شهر رمضان ، ويأتى بعد ذلك الاحتفال بعيد الأضحى المبارك . وعلى مدار السنة الهجرية كانت هناك مواسم ومناسبات دينية حرص المسلمون على إحيائها ، واتخذ بعضها شكل الاحتفال العام مثل دوران المحمل والمولد النبوى .

ويبدأ **الاحتفال بشهر رمضان** باستطلاع هلال الشهر الجديد ، وقد شهد الرحالة ابن بطوطة الاحتفال بهذه المناسبة فى مدينة أبيار (بالقرب من المحلة الكبرى) ووصفه وصفاً دقيقاً فقال : « ... **وعادتهم أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى ويقف على الباب نقيب المتعممين ، وهو ذو شارة وهيئة حسنة . فإذا أتى أحد الفقهاء أو أحد الوجوه تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلا : بسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضى ومن معه فيقومون له ، ويجلسه فى مجلس يليق به . فاذا تكاملوا هناك ، ركبوا جميعاً وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان ، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة ، وهو مرتقب الهلال عندهم . وقد فرش ذلك الموضع بالبسط**

والفرش ، فينزل القاضي ومن معه ، فيرقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس . ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ، ويصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينصرفون . هكذا فعلهم في كل سنة ».(١)

ولا شك في أن هذه الصورة التي ترسمها كلمات « ابن بطوطة » لاحتفال الناس برؤية هلال شهر رمضان كانت متكررة في جميع أنحاء البلاد ، إذا كانت ثمة اختلافات طفيفة ؛ فإن الشكل العام للاحتفال كان واحداً . وتمدنا المصادر التاريخية بما يؤكد هذا : فإن بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر في ذلك الحين استرعى انتباههم أن القاهرة في شهر رمضان كانت تسبح في الضوء نتيجة الأنوار والمشاعل والشموع والفوانيس في الطرقات والأسواق وبأيدي الناس.(٢) وقد ذكر ابن الحاج أنه كانت من عادة المصريين في ذلك العصر أن يعلقوا الفوانيس « .. التي جعلوها علماً على جواز الأكل والشرب وغيرها ما دامت معلقة موقودة ... » (٣)

وفي ليالي شهر رمضان كانت أسواق القاهرة والأقاليم تزدهر احتفالا بهذه المناسبة . وقد لاحظ بعض الرحالة الأجانب أن المطاعم والمطابخ في العاصمة كانت تظل مفتوحة طوال الليل لكي تستقبل زبائنها(٤). والواقع أن المصريين ، في معظمهم ، كانوا لا يطهون الطعام في بيوتهم ، وكانت غالبيتهم من رواد المطاعم ، كما كان بعضهم يرسل ما يحتاج طهيه من طعام إلى حوانيت الشرائحية . لتجهيزه (٥) : ومن ثم

---

(١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٦ — ص ٢٧ .
(٢) سعيد عاشور ، المجتمع المصري ، ص ١٨٥ .
(٣) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ .
(٤) سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ .
(٥) أنظر دراستنا عن الأسواق .

فقد كان من الطبيعى أن يعتمدوا على هذه المطابخ والمطاعم فى وجبتى الفطور والسحور .

ومن ناحية أخرى، كانت بعض الأسواق ترتبط بموسم شهر رمضان ومنها سوق الحلاويين ، وسوق الشماعين . ففى هذا الشهر كان سوق الحلاويين يمتلىء بكافة أصناف الحلوى السكرية التى كانت تصنع على هيئة تماثيل الحيوانات من قطع صغيرة وكبيرة وكانت هذه التماثيل السكرية تعرف باسم «العلاليق» (مفردها علاقة) لأنها كانت تعلق بخيوط على أبواب الحوانيت . ويتراوح وزن «العلاقة» ما بين ربع رطل وعشرة أرطال . وكانت أسواق القاهرة تمتلئ بهذه التماثيل التى يحرص الناس على شرائها لأطفالهم وأقاربهم كما يحدث الآن فى المولد النبوى .(١)

كذلك كان سوق الشماعين من الأسواق التى ارتبطت بشهر رمضان ففى ليالى هذا الشهر كانت حوانيت السوق تفتح أبوابها إلى ما بعد منتصف الليل . وقد تلألأ السوق بأضواء مختلف أنواع الشموع الموكبية والفانوسية والطرافات ، وقد ذكر المقريزى فى خططه أن حوانيت هذا السوق كانت تعلق الشموع التى عرفت آنذاك باسم الفوانيس «.. فتصير رؤيته من أنزه الأشياء ..» وفى شهر رمضان كانت تباع بهذا السوق كميات كبيرة من الشموع الموكبية (أى التى تستخدم فى المواكب)، وكانت الواحدة منها تصل فى وزنها إلى عشرة أرطال . أما الشموع الضخمة التى كانت تصل فى وزنها إلى ما يزيد على قنطار ، فكانت تؤجر لكى تستخدم فى موكب صلاة التراويح . وقد وصف المقريزى لنا هذا الموكب الذى « .. يعجز البليغ عن حكاية وصفه ..» فقد كان هذا الموكب يتجمع حول إحدى الشموع الضخمة التى يجرها الأولاد على عجلات ، وقد أمسك كل منهم بفانوسه وهم يهزجون بأغنيات دينية جميلة ، ويطوف الموكب المضئ

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ، ص ٩٢ — ص ١٠٦ .

دروب البلد وأزقته من بعد المغرب حتى موعد صلاة العشاء والتراويح (١)

وفى موعد السحور يطوف « المسحراتى » بطبلته مردداً أهازيجه وأغنياته وحوله بعض الأطفال ، ويدق بطبلته منادياً أصحاب البيوت الذين يعرفهم . أما فى الإسكندرية فكانوا يدقون الأبواب على أصحاب البيوت «..ويبنادون عليهم : قوموا كلوا . . » (٢)

وفى ليلة عيد الفطر كان بعض الناس يسهرون لتجهيز ملابسهم الجديدة حتى الصباح ، على حين يسهر الأتقياء منهم فى الاستماع إلى القرآن الكريم والأذكار . ومع طلوع النهار يتوجه الرجال لأداء صلاة العيد فى موكب كبير وهم يهللون ويكبرون حتى يصلوا إلى المسجد . ثم تتبادل البيوت التهنئة بالعيد . كما يتبادلون اطباق الكعك الذى كان تجهيزه يتم خلال الأيام الأخيرة من شهر رمضان . ويبدو أن البعض كان يفضل شراء الكعك جاهزاً ، إذ أن « ابن الحاج » يعيب على معاصريه انهم يشترون الكعك الذى يصنعه اليهود بمناسبة عيد الفطر . وكانت الوجبة الأولى لغالبية الناس فى عيد الفطر من السمك المملح المشقوق . وكان من عادة الناس ان يشتروا الحلوى والتماثيل السكرية ويهادون بها أقاربهم وأصهارهم لاسيما إذا كانت المصاهرة جديدة ، أو إذا لم يكن العريس قد دخل بعروسه بعد (٣).

وفى أيام العيد يخرج الناس لزيارة القبور ، ويجتمعون فى القرافة التى كانت من أشهر أماكن التنزه والفرجة . وكانت النساء تركب الدواب فى الذهاب والرجوع من القرافة ، وهناك يجتمع الكل رجالا ونساء يمزحون ويغنون . كما كان القراء يقرأون القرآن ، وقد عاب عليهم ابن الحاج أنهم

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٨ ؛ ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص ٢٨٧ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٨٤ – ص ١٨٦ .

كانوا » . . يقرأون القرآن بالترجيع والزيادة والنقصان ، ورفع الأصوات الخارجة عن حد السمت والوقار ، والتمطيط والمد . . على ترتيب هنوك الغناء ..» (١) ، كذلك كان الوعاظ يعظون الناس من فوق الكراسى والمنابر التى أقيمت بين القبور ، كما كان المحدثين من القصاص يروون القصص الدينية للناس الذين يتحلقون حولهم .

كذلك كان البعض يتوجهون إلى شاطئ النيل ويستأجرون القوارب ، وتكتسى صفحة النهر بهذه القوارب وبها الناس يلهون ويطربون ومعهم نساؤهم واطفالهم .

وفى عيد الأضحى كان البعض يجهزون الأضاحى منذ ليلة العيد، كما كان بعضهم يقضى هذه الليلة فى تجهيز ثيابهم الجديدة ، وربما يسهر أحدهم عند الخياط حتى ينتهى من إعداد ثياب العيد (٢) . وجرت عادة بعض الناس على عدم ذبح الضحية فى العيد على الرغم من قدرتهم على ذلك، وكانوا يكتفون بشراء اللحوم من الجزارين ويطبخون منها عدة أصناف .

وبعد صلاة العيد ، التى كان الخروج لأدائها يتم فى موكب يشبه موكب صلاة عيد الفطر ، كان الناس يخرجون لزيارة القبور والتجمع فى القرافة أيضا . وكانت النساء تتزين « وتتجملن بغاية الزينة » ، وتسير العربات التى تجرها الدواب فى شوارع المدينة ، وفوقها مجموعة من البنات والنساء وهن يغنين وينقرن على الدفوف (٣)

ولم تقتصر احتفالات المسلمين على شهر رمضان والعيدين ، وإنما كانت هناك مناسبات أو مواسم دينية أخرى حرص المسلمون على إحيائها ، واتخذ بعضها شكل الاحتفالات العامة .

---

(١) ابن الحاج ، المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ ١ ص ٢٨٣ — ص ٢٩٠ .

ففي أول شهر المحرم من كل سنة كان المصريون يحتفلون بعيد رأس السنة الهجرية . ويبدو أن الاحتفال بهذه المناسبة كان يقتصر على تبادل التهانى وتوزيع العطايا على الفقراء . ومن العادات المصرية التى ارتبطت بهذه المناسبة أن النساء كن يشترين اللبن حتى تكون السنة بيضاء لاشر فيها .(١)

وفى عاشر شهر محرم كان المسلمون فى مصر يحتفلون بيوم عاشوراء ، وقد جرت عادتهم فى هذا الموسم على ذبح الدجاج وطبخ حبوب القمح ، التى مايزال المصريون يجهزونها حتى اليوم باسم « عاشوراء » ، ويتهادون بها . كذلك كان من عادة الناس فى يوم عاشوراء أن يتبخروا بالبخور الذى يخزنونه طوال السنة لهذه المناسبة . وكانوا يعتقدون أن السجين إذا تبخر بهذا البخور خرج من سجنه ، وأن هذا البخور يبرئ من العين والحسد . وفى هذا اليوم تتزايد أعداد زوار مشهد زين العابدين ، كما تخصص مسجد عمرو بن العاص للنساء اللاتى يمكثن به طوال اليوم ويتمسحن بالمصاحف والمنبر والجدران وتحت اللوح الأخضر (٢) .

أما ليلة أول شهر رجب ، فكانت من مواسم المصريين الهامة التى كان الجميع يحتفلون بها على اختلاف مستوياتهم الاقتصادية . فيشترون لأطفالهم تماثيل الحلوى التى صنعت من السكر على هيئة الخيول والقطط والسباع ، وتمتلئ أسواق القاهرة والفسطاط والأرياف بهذه التماثيل السكرية . وكان العرف يحتم على الناس مهاداة أقاربهم وأصهارهم بهذه الحلوى فى هذا الموسم كما كانوا يفعلون فى غيره من المواسم على نحو ما ذكرنا. وفى المساء يجتمع النساء والرجال حول القراء والمنشدين الذين يقرأون القرآن وينشدون الأغنيات الدينية احتفالا بهذه المناسبة .(٣)

---

(١) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٧٧ – ص ٢٨٨ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج١ ، ص ٤٣٥ ؛ ابن الحاج ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .

(٣) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٩١ – ص ٢٩٣ .

وفى ليلة الإسراء والمعراج يجتمع الناس فى أكبر مساجد المدينة ، رجالا ونساء . وتعلق فى أرجاء المدينة المشاعل والفوانيس والشموع ، كما يفرشون البسط والسجادات داخل المساجد وعليها الأوانى والأباريق التى امتلأت بالمشروبات التى اعتاد الناس احتساءها فى هذا الموسم ، ويستمعون إلى مشاهير قراء عصرهم وهم يرتلون آيات القرآن الكريم (١)

كذلك كانت ليلة نصف شعبان من المناسبات التى يقبل الناس فيها على شراء الحلوى لأطفالهم ، وفيها كانت تسطع المساجد بالأضواء ويتحول ليل المدينة إلى نهار ، لأن الناس كانوا يربطون الحبال بالشرفات والأعمدة ويعلقون بها عدداً كبيراً من القناديل المضاءة . وتمتلئ الجوامع بالرجال والنساء والأطفال الذين يحتفلون بهذه المناسبة . (٢)

أما المولد النبوى فكان الاحتفال به يتخذ شكلا من الفخامة والعظمة يتناسب مع ماعرفته الحياة المصرية من رفاهية فى بداية عصر سلاطين المماليك . وكان السلاطين يحرصون على مشاركة رعاياهم فى الاحتفال بهذه المناسبة ، وهو الاحتفال الذى كان يبدأ مع مطلع شهر ربيع الأول ويستمر حتى الثانى عشر منه . ومنذ عهد السلطان الأشرف قايتباى جرت عادة السلاطين على أن يقيموا خيمة كبيرة عجيبة الأوصاف هى « خيمة المولد » ، وعند أبواب هذه الخيمة حوض جلدى قد ملئ بعصير الليمون والسكر ، وقد وقفت طائفة من صغار الخدم يناولون الناس أكواب الليمون بالسكر . وكان الاحتفال الرسمى يبدأ ظهراً ويستمر حتى ساعة متأخرة ، ويبدأ الاحتفال بقراءة القرآن ، ثم يقوم الوعاظ بدورهم ويأخذ كل منهم نصيبه من النقود والملابس التى يمنحها لهم السلطان والأمراء وبعد صلاة المغرب تمد موائد الحلوى على اختلاف ألوانها ويتخطفها الفقهاء وبعد ذلك يبدأ المنشدون بأهازيجهم فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام حتى ثلث الليل .(٣)

---

(١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ٢٩٤ — ص ٢٩٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٦ — ص ١٠٣ .

(٣) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٧٧ — ص ١٨٠ .

هذا هو الاحتفال الرسمى . ولكن الناس كانوا يحتفلون بالمولد النبوى على طريقتهم . فكان من المعتاد أن يقيم الناس الحفلات بهذه المناسبة فى بيوتهم أو أمامها . ويبدأ الإحتفال بالقرآن الكريم الذى يتلوه مشاهير القراء المعروفون بالتطريب وحسن الصوت . ثم يعقب ذلك المنشدون الذين تصاحبهم الآلات الموسيقية ، ويصدحون بالقصائد والأغانى فى مدح النبى ، عليه الصلاة والسلام . فإذا ما انتهى المنشدون أقيمت حلقات الذكر « فيقوم الواحد منهم ويعيط وينادى ويبكى ويتباكى ويتخشع ، وربما مزق ثيابه وعبث بلحيته.. » على حين تطل النساء من أسطح البيوت المجاورة لمشاهدة الاحتفال المقام أمام المنزل كذلك كانت تقام فى داخل البيوت حفلات نسائية إحتفالا بهذه المناسبة وتلتف النساء حول إحدى محترفات الوعظ لسماع حديثها الدينى .

وكان بعض الناس الأتقياء يتحرج من أن يحتفل بالمولد النبوى فى بيته بالأغانى ومن ثم يكتفى بأن يحضر أحد القراء لتلاوة القرآن الكريم ، ويقتصر الأحتفال على هذه التلاوة ، وعلى حلقات الذكر .

ومن الطريف أن البعض كانوا يحتفلون بالمولد النبوى بغية استرداد الهدايا والنقوط التى كانوا قد أهدوها للآخرين فى المواسم والأفراح ، وهو ما يكشف عن أن المصريين كانوا يتبادلون النقوط والهدايا فى هذه المناسبة(١) .

وفى عصر المماليك اتخذ موسم الحج مظهراً اجتماعياً جعل منه مناسبة هامة فى حياة ابناء مصر فى ذلك الحين . فقد كان هذا الموسم محط اهتمام الجميع ، سواء كانوا على كراسى الحكم ، أم كانوا من عامة الناس . وفى هذا الموسم كانت تسرى الحركة والنشاط فى أوصال المجتمع المصرى فتزدهر الأسواق المخصصة لبيع لوازم الحجاج ويستعد أهل الدولة والمماليك للسفر فى ركب الحاج ، على حين ينتظر أبناء الرعية هذا الإحتفال بشوق وشغف .

---

(١) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ٢ – ص ٢٥ .

ويحتفل المصريون بهذا الموسم في الإحتفال الذي عرف بدوران المحمل(١). والجدير بالذكر ان سلاطين المماليك قد اهتموا اهتماماً كبيراً بكسوة الكعبة في إطار حرصهم على الواجهة الدينية لحكمهم ، والظهور بمظهر حماة الحرمين الشريفين (٢).

وكانت كسوة الكعبة توضع على جمل مزين يطوف القاهرة والفسطاط ، وكان المحمل يدور مرتين في العام ، وكان المصريون على اختلاف مشاربهم يحرصون على المشاركة في الاحتفال بدوران المحمل . وكانت المرة الأولى لدوران المحمل في نصف رجب ، أما المرة الثانية فكانت في شوال . وفي رجب يظل المنادون يجوبون شوارع القاهرة والفسطاط وينادون في الأسواق بموعد دوران المحمل ، وذلك قبل الموعد بثلاثة أيام يتكرر النداء خلالها ودعوة الناس إلى المشاركة في الاحتفال . ويقوم أصحاب الحوانيت التي سيمر بها المحمل بتزيينها ، وهناك تبيت النسوة والأطفال حتى يتمكنوا من مشاهدة موكب الاحتفال في اليوم التالي . ويكون دوران المحمل في يوم الإثنين أو الخميس . وعلى طول الطريق تحتشد الجموع لمشاهدة موكب المحمل الذي يشق طريقه من باب النصر حتى ميدان الرميلة تحت القلعة . ويسير جمل المحمل وهو يتهادى وعليه الحرير الملون وفوقه المحمل قد غطى بالحرير تعلوه قبة فضية . وأمام هذا الموكب تركض كوكبة من فرسان المماليك بملابس

---

(١) كان السلطان الظاهر بيبرس البندقداري هو أول من أدار المحمل بمصر سنة ٦٥٧ هـ. أنظر المقريزي ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص ١١ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٨٨ .

(٢) المعروف أن العرب كانوا يكسون الكعبة في جاهليتهم ، واستمرت كسوتها بعد الإسلام . وحين سقطت الخلافة العباسية تولى سلاطين المماليك كسوة الكعبة . وكانت الكسوة تصنع من الحرير الأسود المرقوم بالحرير الأبيض ، ثم صارت الكتابة باللون الأصفر المشعر بالذهب . وكان هناك موظف هو « ناظر الكسوة » يشرف على إعدادها من الأموال التي أوقفت لهذا الغرض (القشلقندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٥٨٧ ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٩٩ ؛ السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٢٠١ ؛ المقريزي ، الذهب المسبوك ص ٤٣ — ص ٤٤ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ص ٨٨) .

الميدان الزاهية ومعداتهم وأسلحتهم تخطف الأبصار ببريقها . وينتزعون إعجاب المشاهدين وهم يستعرضون مهاراتهم فى القتال بالرماح . وفى الموكب مجموعة من صغار المماليك يقومون بأداء بعض الألعاب البهلوانية بالرماح وهم وقوف على ظهور الخيل . وتختلط أصوات الجماهير الصاخبة بدقات الطبول والموسيقى النحاسية ، ويمضى الموكب الصاخب إلى ميدان الرميلة حيث يطل السلطان عليه من القلعة ، وتشتد جلبة الاحتفال والمحتفلين ويقوم المماليك باستعراض مهاراتهم أمام السلطان . ثم تتجه الجموع إلى الفسطاط حيث يخترق الشوارع الرئيسية ليعود مرة ثانية إلى ميدان الرميلة. وكان هذا الاحتفال الصاخب يتكرر مرة أخرى فى شهر شوال . وفى هذه المرة لا يتوجه إلى الفسطاط وإنما يخرج إلى الريدانيـــة مباشرة فى طريقه إلى الحجاز .

ويخرج موكب الحاج على هذا الشكل المهيب يقوده أحد كبار أمراء المماليك ويلحق به من يريد الحج من الناس . وكان من الضرورى لركب الحاج أن يضم بين أفراده عدداً من الأطباء والأدلة والمؤذنين والقاضى والشهود والأمناء وحتى مغسل الموتى (١) .

أما أعياد أهل الذمة ، فقد كان الاحتفال ببعضها قاصراً على أبناء الطائفة وحدهم على حين شاركهم المسلمون الاحتفال ببعض أعيادهم . ويبدو من مصادر تلك الفترة أن اليهود على نحو خاص قد اقتصروا فى احتفالاتهم على أبنـــاء الطائفة فقط . وكانت للطوائف اليهودية فى مصر زمن المماليك عدة أعياد يتصل بعضها بشريعتهم ، ويتعلق البعض الآخر بتاريخهم وتراثهم .

وكانت الأعياد اليهودية الشرعية خمسة أعياد أولها « عيد رأس السنة »

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٥٧ – ص ٥٨ ؛ ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٩٩ – ص ٢٠٠ ، السيوطى ؛ حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١١٩ ؛ ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٤٢ – ص ٤٣ ؛ ابن الحاج ، المدخل ، ج ١ ، ص ٢٧٢ – ص ٢٧٥ .

واسمه العبرى القديم « راش هيشا » وبالعبرية الحديثة « روش هشاناه » وهو عندهم عيد يقدمون فيه الأضاحى فى ذكرى افتداء إسماعيل ، ويحل أول شهر تشرى اليهودى ، ويعتبر هذا العيد أيضاً عيد عتق وحرية عند اليهود لأنه يرتبط بخلاصهم من فرعون . وقد أسماه المقريزى « عيد البشارة » (١) . وثمة اختلافات بين طريقة كل من الربانين والقرائين فى الاحتفال بهذا العيد رصدتها مصادر تلك الفترة . إذ كان الربانون ينفخون الأبواق فى معابدهم أثناء الصلاة ، اعتماداً على تفسيرهم لبعض النصوص المقدسة المتعلقة بهذا الاحتفال ؛ على حين اكتفى القراءون بالصلاة والتهليل حمداً وشكراً لله لأنه يوم عتق رقاب بالنسبة لهم (٢) .

والعيد اليهودى الثانى هو « عيد صوماريا » أو « الكبور » ، وهو يوم الغفران عندهم وعقوبة من لا يصوم هذا اليوم أن يقتل . ويرى بعض الباحثين أن هذا العيد الذى يرجع إلى عصور العبرانيين الأولى مرتبط بأصول الشريعة اليهودية التى قررت يوماً فى العام لحساب الذات . وأن اليهود ، من طول ما عانوه من اضطهادات على طول تاريخهم ، جعلوا هذا اليوم لنقض مواثيقهم وأكل الديون التى يدينون بها لغير اليهود ، مما سبب معارضة بعض فقهاء اليهود فى العصر الحديث (٣) .

أما عيد « المظلة » أو عيد « الظلل » فكان الاحتفال به يبدأ فى الخامس عشر من شهر تشرى ويستمر سبعة أيام يعيدون فى أولها ، واليوم الثامن هو عيد الاعتكاف عند الربانين . وفى هذا العيد يحتفل اليهود بذكرى الغمام الذى أظلهم الله به فى التيه ، فيجلسون تحت سعف النخل الأخضر وأغصان

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٤٧١ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ – ص ٤٢٨ ، المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧١ يتبع ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ١٨٧ – ص ١٨٩ ؛ مراد فرج ، القراءون والربانون ، ص ١٢٤ – ص ١٢٥ ؛ حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ١٩٤ – ص ١٩٨ .

(٣) حسن ظاظا ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ – ص ٢٠٣ .

الزيتون وغيرها من الأشجار الدائمة الخضرة (١).

والعيد الرابع هو عيد الفطير الذى سمى أيضاً بعيد الفصح ، وهو أيضاً يتصل بذكريات خروجهم من مصر . ويحل موعده فى خامس عشر شهر نيسان اليهودى . وقد اختلفت الفرق اليهودية حول مدة الاحتفال به ، فهى سبعة عند القرائين ، وثمانية أيام عند الربانين ، وستة فقط عند السامرة. ويعتبر هذا العيد أيضاً من أعياد التضحية ومواسم الحج لدى اليهود . وبينما يحج الربانون والقراءون فى هذا العيد إلى بيت المقدس ويضحون على الصخرة المقدسة ، يحج السامرة على جبل جرزيم القريب من نابلس فى فلسطين ويضحون هناك(٢) .

وخامس أعياد اليهود الشرعية هو عيد « الأسابيع » أو « العنصرة » أو « الخطاب » الذى يحتفلون فيه بذكرى الوصايا العشر التى أنزلها الله على نبيه موسى عليه السلام . وهذا العيد يحل فى السادس من شهر سيوان اليهودى. وكان اليهود يصنعون القطائف ويتفننون فى صنعها لكى يأكلونها فى هذا العيد فى ذكرى المن الذى أنزله الله عليهم فى التيه (٣).

وأشهر الأعياد التى استحدثها اليهود من واقع تاريخهم عيد الفوز « البوريم » وعيد « الحنكة » أو « الحانوكة » .

وعيد الفوز هو ذكرى انتصار اليهود على الوزير الفارسى « هامان » الذى أخذته الغيرة من اليهود وأراد القضاء عليهم . ولكن نفوذ أستير الجميلة لدى الإمبراطور الفارسى جعله يقتل هامان ورجاله ، على ما يحكيه سفر أستير عن الأسر البابلى لليهود . ويبدأ هذا العيد بصيام (صيام استير) يستمر من الثالث عشر من آذار حتى الخامس عشر منه ، ثم يقيم اليهود

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٦٨ – ص ٢٦٩ ؛ عزرا حداد ؛ رحلة بنيامين التطيلى ، ص ١٨٥ – ص ١٩٠ .

(٣) القلقشندى ؛ صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

مهرجاناً صاخباً يحرقون فيه تمثالا من الورق المملوء بالنخالة رمزاً لهامان . ويبدو أن هذا العيد كان يرتبط بمظاهر اللهو والخلاعة فى عصر المماليك لدرجة جعلت المؤرخين المسلمين يطلقون عليه اسم «عيد المساخر» أو «عيد المسخرة» . وكان اليهود يتبادلون الهدايا والهبات فى هذا العيد (١) .

أما عيد «الحانوكة» أو «الحنكة» فكان الاحتفال به يستمر على مدى ثمانية أيام تبدأ فى ليلة الخامس والعشرين من شهر كسليو فى ذكرى انتصار اليهود على «انتيوخوس ابيفانس» الذى حاول إرغام اليهود على عبادة الأصنام ، ولكنهم استعادوا هيكلهم وطهروه من الأصنام . والكلمة العبرية «حانوكة» تعنى التنظيف لأن اليهود نظفوا الهيكل من تماثيل آلهة اليونانيين . وفى عصر المماليك كان اليهود يوقدون المصابيح على أبواب دورهم ، وفقاً لعدد تصاعدى ، ففى الليلة الأولى يوقدون قنديلا واحداً ، وفى الليلة الثانية قنديلين ... وهكذا حتى تتم ثمانية قناديل فى اليوم الثامن . ولم يكن القراءون يعترفون بهذا العيد على الإطلاق كما أن السامرة لم يهتموا به (٢) .

ويبدو من خلال المصادر العربية أن المصريين من المسلمين والمسيحيين لم يكونوا يساهمون فى إحياء هذه الأعياد بشكل فعال ، وربما لم يكونوا يساهمون فيها على الإطلاق نظراً لما اشتهر به اليهود من الحرص على العزلة .

أما النصارى فقد عددت المصادر لهم سبعة أعياد كبار ، وسبعة أعياد صغار (٣) . وأول الأعياد الكبار هو عيد البشارة فى التاسع والعشرين من

---

(١) تاريخ ابن الوردى ، جـ ١ ، ص ٧٨ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ١٨٩ ؛ قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة ، ص ١٢٦ — ص ١٢٧ .

(٢) النويرى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٨ ، القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٧ — ص ٤٢٨ ؛ المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ٤٧٢ .

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ٤١٥ — ص ٤١٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ — ص ٢٦٥ ؛ النويرى ، نهاية الأدب ، جـ ١ ، ص ١٨٣ — ص ١٨٦ ، ابن اياس ، نزهة الأمم فى الغرائب والحكم ، ص ٢١٩ — ص ٢٢٣ .

برمهات فى ذكرى البشارة التى ساقها غبريال (جبريل عليه السلام) إلى مريم العذراء بمولد المسيح عليه السلام .

والعيد الثانى هو عيد الزيتونة (أو الشعانين ومعناها التسبيح) فى ذكرى دخول المسيح إلى القدس ، ثم دخوله الهيكل . وفى عصر المماليك كان المسيحيون يخرجون إلى الأماكن الخلوية والمتنزهات لاسيما فى ضاحية المطرية حيث كان يوجد بئر البلسم التى يعتقد المسيحيون أن مريم العذراء غسلت فيه ثياب المسيح (١) .

وكان العيد الثالث هو عيد الفصح الذى يفطرون فيه ، ويحتفلون فيه بذكرى قيام المسيح من قبره — حسب اعتقادهم — واجتماعه مع حوارييه وتناول الطعام معهم :

أما العيد الرابع فيتصل بالتراث الدينى المسيحى الذى يقول إن السيد المسيح صعد إلى السماء بعد أربعين يوماً من قيامه وذلك بعد أن أكل ثلاثاً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر . ويسمى هذا العيد « خميس الأربعين » .

والعيد الخامس هو « عيد الخميس » أو « عيد العنصرة » فى السادس والعشرين من شهر بشنس . ويعتقد المسيحيون أنه فى هذا اليوم حلت روح القدس فى حواريى المسيح بعد أن تجلى لهم روح القدس فى شبه ألسنة من نار ، وتفرقت عليهم ألسنة الناس فتكلموا بجميع اللغات ، وذهب كل منهم إلى البلد التى يعرف لغتها للدعوة إلى دين المسيح .

وفى « عيد الميلاد » الذى يحل فى التاسع والعشرين من كيهك كان النصارى يوقدون المصابيح بالكنائس ويزينوها . ويلعبون بالمشاعل . ويقول المقريزى إنه شاهد احتفالات الميلاد التى كانت « موسما جليلا » ، تباع فيه الشموع المصبوغة بالألوان الرائعة ويشتريها الناس جميعاً ، ويزدهر سوق الشماعين

(١) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ٥٩ — ص ٦٠ .

لهذا السبب . وقد عرفت هذه الشموع باسم الفوانيس ، وقد بالغ الناس فى الإنفاق على تزيينها (١) .

والعيد السابع من أعياد النصارى الكبار هو عيد الغطاس الذى كان النصارى يحتفلون به فى حادى عشر طوبة فى ذكرى تعميد المسيح عليه السلام على يد يوحنا المعمدان (النبى يحيى بن زكريا عليهما السلام) فى مياه الأردن ، وفى هذا العيد كان النصارى يغمسون أولادهم فى المياه على الرغم من شدة البرد اعتقاداً منهم أن ذلك يقيهم شر المرض طوال حياتهم (٢) .

أما أعياد المسيحيين الصغار فكانت سبعة أيضاً (٣) والجدير بالذكر أنه كانت للنصارى فى مصر أعياد أخرى غير تلك الأعياد الشرعية « ... لكنها عندهم من المواسم الشرعية ... » . وقد أحصى القلقشندى من هذه الأعياد والمواسم المسيحية مائة وثمانية وسبعين عيداً وموسماً موزعة على شهور السنة القبطية (٤) وقد انفرد الأقباط ببعض الأعياد التى اتخذ الاحتفال بها شكلا عاماً وشارك المسلمون فى الاحتفال بها .

فقد احتفل المسلمون مع المسيحيين ببعض الأعياد المسيحية ذات الطابع الدينى البحت مثل عيد الميلاد الذى كان المصريون يصنعون فيه نوعا من العصيدة ويزعمون أن من يأكلها يتقى البرد طوال السنة (٥) . وشاهد المقريزى احتفالات هذا العيد التى كانت تفيض بالبهجة والسرور قبل تدهور الأحوال مع بداية القرن الخامس عشر ؛ وفى هذا العيد كان الناس يتنافسون على شراء الشموع المصبوغة (الفوانيس) ويعلقونها فى الأسواق وعلى أبواب الحوانيت حتى أن المقريزى يقرر أنه شاهد شمعة تكلفت ألفاً وخمسمائة درهم. ومن الطريف أن بعض الشحاذين فى الطرقات كانوا يسألون الناس أن يتصدقوا

---

(١) المقريزى ، المصدر السابق ، ج ١ ؛ ص ٢٦٣ – ص ٢٦٥ .

(٢) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

(٣) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة ، ص ١٢٠ – ص ١٢٣ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص ٤٢٠ – ص ٤٢٥ .

(٥) ابن الحاج ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

عليهم بفانوس « . . . فيشترى لهم من صغار الفوانيس ما يباغ ثمنه الدرهم وماحوله . . . » (١) .

وفى عيد الغطاس كان بعض المسلمين يشاركون المسيحيين عادة غمس أطفالهم فى المياه الباردة لاعتقادهم أن ذلك يمنع عنهم المرض فى حياتهم(٢).

وفى خميس العهد ، أو خميس العدس ، كما درج الناس على تسميته آنذاك من باب الدعابة ، كان المسيحيون يهدون إلى المسلمين أنواع العدس المصفى والسمك المقلى والبيض الملون . وكان من عادة النساء أن تخرجن فى هذا اليوم إلى الأسواق لشراء الخواتم والبخور الذى يطلقنه فى بيوتهن حتى يصرف عنها العين والحسد والكسل والأمراض (٣) . وكان هذا العيد المسيحى من المواسم المصرية الهامة فى زمن المماليك ، وكانت تباع فى الأسواق كميات هائلة من البيض الملون مما كان يغرى العبيد والصبيان والغوغاء بأن يقامروا بها ، فينتدب المحتسب بعض أعوانه لكى يعاقبهم على ذلك (٤) . وكان الناس من كافة الشرائح الاجتماعية يشتركون فى الاحتفال ببعض الأعياد المسيحية ، ويزيدون النفقة فى تلك الأعياد لإدخال السرور على أهلهم ، كما كانوا يتبادلون الهدايا مع أهل الذمة فى أعيادهم (٥) .

وفى سنة ٨٣٦ هـ (١٤٣٢ م) حدثت مصادفة غريبة ، إذ توافقت بداية السنة الهجرية مع السنة القبطية والسنة اليهودية(٦)وهكذا احتفل أبناء الديانات الثلاث بأعيادهم فى وقت واحد .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٦٣ – ص ٢٦٥ .

(٢) ابن الحاج ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٩ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥٤ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٦٥ ؛ ابن اياس ، نزهة الأمم ، ص٢١٩– ص ٢٢٣ .

(٥) ابن الحاج ؛ المدخل ، جـ ٢ ، ص ٤٦ – ص ٤٨ .

(٦) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٨٨٠؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٢٤٨ .

ومن أشهر الأعياد التي اتخذت طابعاً عاماً في عصر سلاطين المماليك عيد وفاء النيل وكسر الخليج . فقد كان فيضان النيل السنوى محط اهتمام المصريين على اختلاف مشاربهم ، يرقبون موعده ، ويحسبون حسابه ، ولا غرو فقد كان النيل ، ولا يزال ، هو قوام الحياة المصرية وعليه مدارها . وكان المصريون يهتمون بقياس مقدار الزيادة التي يسببها فيضان النهر يوماً بيوم. ففي السادس والعشرين من شهر بؤونة القبطى كان يؤخذ قاع النهر (أى يقاس ارتفاع منسوب الماء القديم في النهر ليكون أساساً تحسب عليه الزيادة). ويبدأ إعـــلام الناس بمقدار الزيادة منـــذ اليوم التالى مباشرة ، وفي عصر كل يوم يقيس المشرف على مقياس النيل في جزيرة الروضة مقدار زيادة مياه النيل ، لكي يعلنها المنادون في الطرقات والأسواق حتى يطمئن الناس . ويذكر بيلوتى الكريتى Pilote de Crete ، الذى زار مصر في مطلع القرن الخامس عشر أنه شاهد في زمن الفيضان عدة فرسان يخرجون كل يوم وهم يرفعون الأعلام فوق أكتافهم ، ثم يتجهون إلى المقياس لكي يعرفوا مقدار زيادة النهر ثم يسيرون خلال الشوارع والطرقات يصيحون « أن النهر زاد كذا»(١) . وهؤلاء الفرسان الذين وصفهم بيلوتى هم الذين أطلقت عليهم المصادر العربية اسم « مناديو البحر » (٢) . ويبدو دورهم مشابهاً لدور وسائل الإعلام في عصرنا الحاضر من حيث نقل أخبار الفيضان اليومية إلى الناس .

وحين يكمل النهر ستة عشر ذراعاً (علامة الوفاء) يبدأ « مناديو البحر » في التصريح بعدد الأذرع ، وعلامة الوفاء أن يدل الستار الخليفى على الشباك الكبير في صدر مبنى المقياس بجزيرة الروضة ، فإذا شاهده الناس استبشروا بالوفاء (٣) .

---

(١) Dopp, L' Egypte au Comnencement du quanzieme siecle, pp 20.21.

(٢) السيوطى ، كوكب الروضة ، (مخطوط) ، ق ٤٧ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ . ص ٢٩٧ :

ويكون ذلك إيذاناً ببدء المهرجان الشعبي الضخم إحتفالا بهذه المناسبة التي يشارك الجميع في إحيائها باعتبارها عيداً عاماً « قومياً » . وكانت تحيط باحتفالات وفاء النيل وكسر الخليج كل مظاهر الفخامة والعظمة التي ميزت عصر سلاطين المماليك في شطره الأول .

ويبدأ الاحتفال بتعليق الستار الخليفتي بلونه الأصفر على الشباك الكبير في الجهة الشرقية من دار المقياس . وتكون تلك الليلة من الليالى البهيجة في القاهرة والفسطاط ، إذ يوقد الناس عدداً هائلا من القناديل والشموع فيتحول ليل القاهرة إلى نهار من كثرة الأضواء . ثم يحضر كبار الأمراء ، ومعهم الأستادار (المشرف على البيوت السلطانية) ثم توزع الخلع على من له عادة في هذا الموسم . ثم يحضر المقرئون ويتناوبون قراءة القرآن الكريم في دار المقياس طوال الليل . ويعقبهم المغنون والمنشدون الذين يغنون طوال الليل(١) .

وفي صباح اليوم التالى تمد مائدة حافلة بأنواع اللحوم المشوية والحلوى والفاكهة ويحضر السلطان أو من ينوب عنه من أمراء المماليك، ويتخاطف العامة أنواع المأكولات « ولا يمنع أحد من ذلك . . . » . وفي بعض الأحيان كان يجبي من سكان العاصمة ثمن المأكولات التي تجهز لهذا الأحتفال ، وقد أبطل السلطان المنصور قلاوون ذلك وجعل نفقات الاحتفال من بيت المال(٢) .

وبعد الانتهاء من الأكل يبدأ احتفال وفاء النيل وكسر الخليج وهو مرحلتان : تخليق المقياس . وكسر سد الخليج . وكانت المرحلة الثانية من الاحتفال تتم في اليوم الثالث أو الرابع من المرحلة الأولى في العصر الفاطمي ، ولكن الاحتفال صار يتم بمرحلتيه في يوم واحد أيام

---

(١) ابن دقماق ، الإنتصار ، ج ٤ ص ١١٤ — ص ١١٥ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٢١ . (بولاق) .

المماليك (١) .

ويبدأ الاحتفال بنزول السلطان « أو من ينوب عنه » من قلعة الجبل ، وفى خدمته كبار الأمراء من قادة الجيش وخواص الدولة . ثم ينزلون إلى النهر ويركبون المراكب التى تزينها الإعلام الملونة والشارات الزاهية وغيرها من الزينات ، وتدق الطبول وتطلق الألعاب النارية (النفوط) من المراكب حتى يصل الموكب النهرى إلى دار المقياس . وبعد الفراغ من الطعام الذى سبقت الإشارة إليه ، يذاب الزعفران فى ماء الورد بإناء فضى ، ويعطى السلطان هذا الإناء للمسئول عن المقياس الذى يلقى بنفسه ، بكامل ملابسه ، فى فسقية المقياس ومعه ذلك الإناء الفضى فيخلق عمود المقياس (أى يدهنه بالعطر) . ثم يخرج السلطان أو نائبه ، فيجلس بالشباك الكبير تحت الستار ، ويفرق الخلع والتشاريف على « من له عادة بذلك » ، مثل والى الفسطاط وريس (قائد) مركب السلطان المعروفة باسم الذهبية ، ورؤساء مراكب الأمراء . ثم يركب السلطان« الذهبية » (وهى السفينة السلطانية) ، وحولها مراكب الأمراء المزينة بكافة أنواع الزينات وقد اختفت صفحة النهر تحت عشرات المراكب والقوارب المليئة بالمتفرجين يسيرون خلف مركب السلطان ومراكب الأمراء حتى فم الخليج (٢) .

وفى موقع سد الخليج يكون نائب السلطنة أو حاجب الحجاب منتظراً ومعه بعض كبار الأمراء فوق قنطرة السد . وهناك يتوجه السلطان بفرسه من فم الخليج حتى موقع السد الترابى ويمسك بمعول من الذهب الخالص ويضرب السد ضربات ثلاث ، ثم يركب ثانية ،

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥١٢ – ٥١٤ .

(٢) الكتبى ، مباهج الفكر ومناهج العبر (مخطوط) ، ج ١ ، ق ٨٦ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٣٠٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٢٢٣ ؛ ابن شاهين الظاهرى ؛ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص ٨٧ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٧ – ٤٨ .

فيأتى جمع غفير من الناس بفئوسهم فيحفرون هذا السد حتى يجرى الماء فى الخليج ، ثم ينصرف السلطان إلى القلعة (١) . والواقع أن قليلين من السلاطين كانوا يحرصون على حضور الاحتفال بأنفسهم ، مما جعل المؤرخين يجدون فى اشتراك السلطان بنفسه فى هذه الاحتفالات أمراً جديراً بالتسجيل (٢) .

ولما كان الاحتفال بوفاء النيل يتم نهارا فقد ربط بعض المفسرين بين قوله تعالى إخبارا عن فرعون « قال موعدكم يوم الزينة . وأن يحشر الناس ضحى » ، وبين الاحتفال بوفاء النهر على أساس أنه يكون فى وقت الضحى (٣) .

ولم تكن تكن احتفالات وفاء النيل وكسر الخليج هى المظهر الاجتماعى الوحيد المرتبط بنهر النيل بل إن من الأعياد الدينية الطابع ما أرتبط بالنهر إرتباطاً مباشرا مثل « عيد الشهيد » ، « وعيد النيروز » .

وقد اتخذ الاحتفال بعيد الشهيد طابعاً دينياً وعاماً فى آن واحد ، وكان موعده السنوى فى ثامن شهر بشنس القبطى . ويتم الاحتفال على شكل مهرجان كبير على ساحل النيل بناحية شبرا . وهو يرتبط بما كان أقباط مصر آنذاك يزعمونه من أن النيل لا يزيد فى موسم الفيضان إلا بعد غسل أصبع أحد القديسين فى مائه . وكان هذا الاصبع يحفظ فى تابوت بكنيسة فى شبرا ، وقيل إنه إصبع أحد أسلافهم من الشهداء (٤) .

---

(١) Dopp, L'Egypte, p. 21.

(٢) السيوطى حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٣٠٧ ، كوكب الر ضة (مخطوط) ق ٩٨ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٠ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٨ ، السلوك ، جـ ١ ص ٩٤١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٢٠٢ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢٦٩ .

وفى هذا العيد يتوافد الأقباط من شتى أنحاء البلاد ، كما يخرج أهل العاصمة على اختلاف أديانهم واهتماماتهم إلى ساحل شبرا لمشاهدة هذا المهرجان الضخم ، حيث تقام الخيام بأعداد هائلة على ساحل النيل وفوق الجزر ، ويحفل المهرجان بشتى ضروب اللهو والمرح ، فيجتمع الفرسان بخيولهم التى يرقصون بها على إيقاعات الطبول وأنغام الزمور ويجتمع المطربون من البدو وغيرهم من كل أنحاء البلاد .. «**ولايبقى مغن ومغنية ، ولاصاحب لهو ، ولارب ملعوب ، ولابغى ولا مخنث ، ولاباض ولا خليع ، ولا فاسق ولافاتك ، إلا ويخرج لهذا العيد ...**» . وكانت تصحب هذا العيد مظاهر الفساد والانحلال والفوضى ، إذ ترتكب المعاصى علانية ، وتثور الفتن ، وتقع حوادث القتل (١) .

وفى بعض الأحيان كانت الإحتفالات بهذا العيد تمتد إلى يومين بثلاث ليال (٢) . كما كان فلاحو شبرا يعتمدون على مبيعاتهم من الخمور فى هذا العيد للوفاء بما عليهم من الخراج (٣) ، مما يبين مقدار الخمور التى كانت تستهلك فى هذا العيد .

وفى سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠١ م) أبطل الأمير بيبرس الجاشنكير الإحتفال بهذا العيد بسبب مظاهر الفساد والإنحلال التى كانت تصحبه ، وحاول الأقباط إعادته ثانية لقاء مبلغ من المال ولكنهم فشلوا . وظل الأمر على ما هو عليه سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) حينما أعاد السلطان الناصر محمد بن قلاون الإحتفال به لسبب غريب هو أن الأمير « يلبغا اليحياوى » والأمير « الطنبغا الماردينى » طلبا الخروج للصيد ، ولكن السلطان لم يوافق « **لشد غرامه بهما وتهتكه فى محبتهما . . .** » ، فعمل عيد الشهيد ليصرفهما من ذلك . وكانت مدة إبطاله

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٨ ؛ السيوطى ، كوكب الروضة ، ق ١٣١ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ص ٤٥١ – ص ٤٥٢ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٩٤١ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٩ .

ست وثلاثين سنة ، ثم أبطل الإحتفال به نهائياً سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٣م) بعد أن هدم الأمير « صرغتمش » الكنيسة ، وأحرق التابوت الذى فيه الإصبع بحضور السلطان ثم ذرى رماده فى النهر (١).

وثمة عيد عام آخر هو « عيد النيروز » ، وهو عيد رأس السنة القبطية فى أول شهر توت . ويغلب على الظن أن عادة الإحتفال بهذا العيد متوارثة عن قدماء المصريين على الرغم من اسمه الفارسى (ومعناه اليوم الجديد) ، فقد كان المصريون فى عصر الفراعنة يحتفلون بهذا اليوم إكراماً لنهر النيل . وقد اعتبر هذا العيد عيد الربيع الذى تبدأ بعده زيادة مياه النهر الذى يستكمل مياهه فى الخريف أو أواخر الصيف . ولعل هذا هو ما يفسر لنا السبب فى أن المصريين جميعاً ، بغض النظر عن دياناتهم ، كانوا يشاركون فى الإحتفال بهذا العيد .

وفى عصر سلاطين المماليك كان الإحتفال بعيد النيروز يأخذ شكل الإحتفالات القومية العامة (٢) ، إذ اعتبر ذلك اليوم بمثابة عطلة عامة ، فكانت الأسواق تغلق فى ذلك اليوم كما كانت المدارس تعطل .

وإذا ما حل عيد النيروز دبت الحركة والنشاط فى الشوارع والطرقات . ففى شوارع القاهرة وأزقتها كان بعض العامة يتجمعون فى موكب (كرنفال) يطوف القاهرة حول شخص يركب حماراً ، وقد دهن وجهه بالدقيق أو الجير ، ووضع لحية مستعارة ، ويرتدى ثوباً أحمر أو أصفر ، وعلى رأسه طرطور طويل ، ويمسك كل من المحيطين به بالجريد الأخضر وسعف النخيل

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ص ٩٢٦ . ويذكر السيوطى (حسن المحاضرة ، جـ ، ص ٢٩٩) وابن تغرى بردى (النجوم : جـ ٨ ، ص ٢٠٢) أن هذا العيد قد أبطل نهائيا منذ سنة ٧٠٢ هـ .

(٢) شيخ الربوة ، نخبه الدهر ، ص ٢٧٨ ، ابن الحاج المدخل ، جـ ٢ ، ص ٤٩ ص ٥٠ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٦ – ص ٢٦٨ ، ابن اياس ، نزهة الأمم ق ٢٢٣ – ق ٢٢٧ .

وشماريخ البحر . وفى يدالشخص دفتر وقلم . ويجول ذلك الموكب الصاخب العابث فى شوارع المدينةوأزقتها،ويطرق أبواب البيوت ،ويدخل الأسواق ويمر على الحوانيت لتحصيل النقود على شكل الإتاوات . وإذا امتنع أحد عن إعطائهم ما يريدون صبوا عليه وابلامن الشتائم والكلامالفاحش،وربما رشوه بالماء القذر . أما من يغلق بابه دونهم ، فكان يتعرض لما هو أكثر من ذلك (١) .

وفى الطرقات يقف بعض الناس يتراجمون بالبيض ، ويتضاربون بأنطاع الجلود ويتراشون بالماء ، فلا يجسر أحد على الخروج من بيته (٢) . بل إن بعض كبار القوم كانوا يفعلون ذلك فى بساتينهم وداخل بيوتهم(٣) .

ويبدو أن ذلك اليوم قد اعتبر بمثابة راحة أو عطلة عامة يتحرر الناس فيها من جميع قيود حياتهم اليومية وتقاليدهم بمافى ذلك سطوة القانون ،فلم يكن الوالى يحكم لأحد ممن ينالهم الضرر من جراء الجرائم والحوادث التى كانت تحدث فى يوم النيروز (٤) .

وفى بعض الأحيان كان الأمر يخرج عن نطاق المعقول والمحتمل ، مما كان يدفع بالحكام إلى فرض العقوبات ومنع بعض مظاهر هذا الإحتفال . ففى سنة ٧٨٢ هـ (١٣٨٠م) نودى فى القاهرة والفسطاط بمنع اللعب بالماء فى يوم النيروز : وهدد من يفعل ذلك بضربه ومصادرة أمواله ، وأمسك أربعة من المخالفين فضربوا وشهروا ، فكف الناس عن ذلك (٥) . فقد أبطل الأمير الكبير برقوق (قبل أن يتولى العرش) الكثير من مظاهر الاحتفال

---

(١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٥٢ – ص ٥٣ ، ابن اياس ، نزهة الأمم ، ص ٢٢٥ ، يتبع .

(٢) ابن اياس ، نزهة الأمم ، ق ٢٢٣ – ق ٢٢٧ .

(٣) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ٤٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٢ – ص ٥٣ .

(٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٣٩٤ .

بعيد النيروز ، لاسيما التراجم بالبيض ، والتصافع بالجلود ، والتراش بالماء (١) وعلى الرغم من أن السلطان الناصر فرج بن برقوق قد أعاد الإحتفال بهذا العيد ، ولكن مظاهر هذا الإحتفال تواضعت إلى حد كبير بسبب الأزمات التى توالت على البلاد منذ منتصف القرن الثامن الهجرى (١٤م) (٢) .

وارتبطت بالاحتفال بعيد النيروز بعض الأطعمة والحلوى التى كان المصريون يحرصون على توفيرها فى هذا اليوم حتى صارت من لوازم ذلك الإحتفال ، وربما نشأت المشاكل بسببها داخل البيوت ومن هذه الأطعمة والحلوى ، الزلابية والهريسة التى كان بعض يحضرون الناس الصانع ليبيت عندهم ليجهزها قبل طلوع النهار . وفى هذا العيد كان المصريون يتهادون بهذه الحلوى . كذلك جرت العادة على أن تؤكل فى هذا اليوم أنواع معينة من الفواكه مثل البطيخ والخوخ والبلح « . . . **وغير ذلك مما تلزمه النساء لأزواجهن . . .** » (٣).

هذه ، بشكل عام ، أهم أعياد المصريين الدينية واحتفالاتهم العامة . ولعل الصورة التى حاولنا رسم ملامحها من خلال المعلومات التى إمدتنا بها المصادر التاريخية لذلك العصر الداخر بالأحداث والمناقضات ، تشى بحياة زاهية صاخبة لاهية . وهذه حقيقة تصدق على الواقع فى مصر فى الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك إلى حد كبير . بيد أن الألوان البهيجة الزاهية فى هذه الصورة أخذت تنحسر أمام مد الألوان القاتمة والحزينة مع بداية الأزمات والتدهور الذى أخذ ينخر فى بنيان الدولة منذ آخريات القرن الثامن الهجرى (١٤ م) .

وانعكس هذا التدهور بالضرورة على شكل احتفالات المصريين وأعيادهم

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٢ : ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٢٦ – ص ٤٣٠ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٦٨ السيوطى ، كوكب الروضة ؛ ق ١٩٥ .

(٣) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٤٩ .

وإذ أفردنا لمظاهر التدهور والاضمحلال دراسة مستقلة فى الصفحات التالية، فإننا سنكتفى بالإشارة إلى بعض ملامح التدهور من خلال ما طرأ على الإحتفالات والأعياد .

ففى أواخر ذلك العصر كانت الفتن والإضطرابات قد صارت نغمة معتادة فى حياة المصريين كما صار من المألوف فى حياة الناس اليومية أن تتحول شوارع المدن والأسواق إلى ميادين لقتال بين طوائف المماليك المتصارعة(١). ونسوق مثالا على هذا ما حدث سنة ٨٩٩ هـ (١٤٩٣ م) حين كسر سد الخليج بدون إحتفال ، إذ كانت القاهرة تموج بفتنها ، وحروب الشوارع قائمة على أشدها بين المماليك . ولم يخرج أحد من الناس للإحتفال « ... لأن كل أحد كان مشغولا بنفسه عن ذلك . . . » (٢) . وفى بعض الأحيان كان السلطان يمتنع عن المشاركة فى الاحتفال خوفاً على حياته من مؤامرات أمراء المماليك واعتداءاتهم (٣) .

وكان إحتفال وفاء النيل وكسر الخليج يتم فى الصباح ، كما أسلفنا القول ، ولكن حدث فى سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٨م) أن تم الإحتفال ليلا ، وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى يحدث فيها ذلك ، والسبب كما يورده ابن أياس هو أن السلطان « محمد بن قايتباى » أراد أن يحضر الإحتفال بنفسه ولكن الأمراء منعوه خوفاً عليه من المماليك المتربصين به ، فنزل ليلا مع حاشيته وفتح السد. وأصبح الناس ليجدوا الماء فى الخلجان والبرك ، فتعجبوا ودهشوا لأن ذلك « ... ماوقع قط فى الجاهلية ولا فى الإسلام ... وقد ضيع على الناس فرحتهم

(١) أنظر على سبيل المثال ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ٣٧ ، ٧٩ ، نزهة النفوس ، جـ ٢ ، صفحات ١٠٩ : ١١١ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٥٤ – ١٥٦ ، ١٨٨ – ١٨٩ ، ٢١٢ ، ٢٦٨ – ٢٦٩ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٧ ، ص ١٤٧ ، جـ ٤ ، ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

(٢) إبن إياس ، بدائع الزهور (بولاق) ، جـ ٢ ص ٣١٧ .

(٣) المقريزى ، السلوك : جـ ٣ ص ١٠٢٢ .

بيوم الوفاء . . . » (١)

كذلك انعكست مظاهر التدهور العام فى أواخر عصر سلاطين المماليك على احتفال دوران المحمل ، فقد قل الإهتمام بأمر المحمل ، ولم يعد الحكام يلتزمون بمواعيده التقليدية ؛ كما كانت الأوبئة والمجاعات ، التى تحصد بمنجلها الفتاك أعداداً كبيرة من السكان ، تؤثر على شكل الاحتفال فيقل عدد المماليك الرماحة ، كما يقل إقبال الناس على مشاهدة الاحتفال بسبب حزنهم على موتاهم (٢) .

ومن ناحية أخرى ، انعكست حالة التدهور الأمنى على احتفال دوران المحمل ، فقد ابتكر المماليك بدعة جديدة هى «عفاريت المحمل». وهم مجموعة من المماليك يركبون خيولهم وقد غيروا من هيئتهم بشكل مزعج ، فيطرقون أبواب الأعيان والأمراء ويجبون منهم الأموال قسراً ، ويعترضون الناس فى الشوارع والطرقات وينزلون بهم شتى صنوف المهانة « . . وما كفاهم ذلك حتى صار العفريت منهم يجبى الدكاكين . . . » (٣) . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن أولئك الأجلاب كثيراً ما كانوا ينتهزون فرصة ازدحام الناس فى الاحتفال فيخطفون النساء والصبيان ويفسقون بهم جهراً ، وينهبون الأمتعة ويثيرون الرعب والفوضى (٤) . ولما ضج الناس بالشكوى، وطالبوا بإلغاء احتفال المحمل أمر السلطان بإلغاء بدعة « عفاريت المحمل » هذه (٥) .

---

(١) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٤٥ (بولاق) .

(٢) المقريزى ، السلوك ج ٤ ، ص ١٠٠٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٣٧ ، ص ٣٤٥ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان ، ج ٢ ص ٣٩٤ ، ص ١٨٠ — ص ٣٨١ ،

(٣) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ج ١٦ ، ص ١٢٣ .

(٤) المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٠٢٦ ، ويذكر ابن الصير فى (نزهة النفوس ، ج٣ ، ص ١٥٥) أنه حدث فى سنة ٨٣٢ هجرية أن تصدى الناس لعبث المماليك الأجلاب وقتلوا أثنين منهم ، كما حدث فى سنة ٨٤١ هجرية أن نشب قتال بينهم وبين العبيد أثناء الاحتفال (المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٩٩) .

(٥) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ١٦ ، ص ١٢٣ .

وفقدت الأعياد بهجتها بسبب توالى الأزمات الاقتصادية والأوبئة فضلا عن تدهور الأحوال السياسية الداخلية وانتشار الخوف والفزع من ظلم الحكام وانعدام الأمن ، إذ يذكر ابن الصيرفى أن عيد الفطر في سنة ٨٤١ هـ . دخل على الناس وهم « . . في نكد وجزع وقلق وهم ومصاب . . » بسبب تزايد ضحايا الوباء من ناحية ، وكساد الحركة فى المدينة بسبب أوامر السلطان بعدم خروج النساء من بيوتهن، فضلا عن ظلم الحكام وتخبط سياسة الدولة(١). ويذكر المقريزى أن بعض الأسواق التى ارتبطت بالمواسم والأعياد ، والتى كانت تزدهر وتموج بالحركة والنشاط أثناءها ، قد تعرضت للذبول والاضمحلال ، إذ أن « سوق الشماعين » على سبيل المثال الذى كان يرتبط بليالى رمضان والعيد عند المسلمين ، والميلاد والغطاس لدى المسيحيين تعرض للكساد بسبب عدم إقبال الناس على شراء الشموع بعد تدهور الأحوال فى منتصف القرن التاسع الهجرى (١٥م) حتى آل أمره إلى خمسة حوانيت فقط (٢) كما تواضعت مظاهر الاحتفال بأعياد المسيحيين لهذا السبب نفسه(٣) .

ولعل الدراسة التى نقدمها فى الصفحات التالية تلقى مزيداً من الضوء على عوامل التدهور والسقوط التى أخذت تنخر فى بنيان الدولة حتى أودت بها عندما طرقتها جيوش العثمانيين .

---

(١) ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ٤٠٧ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٩٣ – ص ١٠٦ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٢٦٦ – ص ٢٦٨ ، القلقشندى ، جـ ٢ ، ص ٤٢٦ – ص ٤٣٠ ، السيوطى ، كوكب الروضة ، ق ١٩٥ ، ابن أياس ، نزهة الأمم ، ق ٢١٩ – ق ٢٢٣ .

المجاعات والأوبئة والأزمات الاقتصادية

الأسباب والعوامل : تأخر الفيضان وقصور النيل - الأوبئة - العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية - عرض لبعض هذه المجاعات والأوبئة مقارنة إحصائية - موقف الدولة أثناء هذه الأزمات - النتائج والآثار : اجتماعيا (التدهور السكانى - بؤس الحياة الاجتماعية - تدهور البناء الاجتماعى - التدهور الأخلاقى) - اقتصاديا (تدهور الإنتاج الزراعى والصناعى - انكماش حركة التجارة الداخلية - تخلخل النظام النقدى والسعرى - الأزمات الموسمية) - سياسيا (انهيار النظام الإقطاعى - تدهور السلطة السياسية - انعدام الأمن - التخبط فى السياسة الداخلية)

ثمة حقيقة يجمع عليها مؤرخو عصر سلاطين المماليك ، سواء من كان منهم معاصراً للأحداث أو من الباحثين المحدثين . ونقصد بهذه الحقيقة ذلك الفرق الواضح بين خط الصعود والنمو فى عصر المماليك البحرية (١٢٥٠-١٣٨٢م)وخط التدهور والإضمحلال فى عصر الجراكسة(١٣٨٢-١٥١٧). بيد أن واقع ماتمدنا به المصادر التاريخية المتاحة يكشف عن أن كافة مظاهر التدهور التى عانت منها مصر والمصريون (وبلاد الشام أيضاً) تحت حكم الجراكسة ، كانت موجودة ، بشكل أو بآخر ، منذ قيام دولة سلاطين المماليك ، ولكن الدولة فى طور شبابها كانت قادرة على أن تتغلب على هذه العوامل أو تكبتها إلى حين ، بفضل بعض السلاطين الأقوياء القادرين وبفضل توفر الموارد اللازمة . فإذا مابدأ التفسخ والإنهيار وجدنا الأسباب والنتائج تجر بعضها بعضا فى دائرة حلزونية لتخلق أزمة لدولة المماليك لاتنتهى إلا بالقضاء على هذه الدولة نفسها . ومن نافلة القول أن نكرر ماسبق ذكره من مظاهر هذا التفسخ ، إلا أننا يمكن أن نقرر أن عوامل الهدم أخذت تدق بمعاولها فى بنيان دولة المماليك منذ وقت مبكر ، وحين باتت الثمرة دانية سقطت تحت أقدام العثمانيين عند الهزة الأولى .

ولعل الظاهرة الأساسية فى تلك الفترة - أى عصر الجراكسة - هى ظاهرة التدهور السكانى ، وماينتج عن ذلك بالضرورة من آثار سياسية

واجتماعية واقتصادية . ومنذ النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى ، بات واضحاً أن فترة النمو الديموجرافى التى نعمت بها مصر مع بداية عصر المماليك قد ولت ، وبدأت البلاد تعانى من نقص متزايد فى أعداد السكان نتيجة لتلك السلسلة المتوالية الحلقات من الأوبئة والمجاعات التى زاد معدل وقوعها منذ أواخر القرن الرابع عشر فصاعداً . وزاد من وقع المأساة تلك الأزمات الاقتصادية التى عانى منها الناس جميعاً فى ذلك الحين .

ويجدر بنا أن نشير إلى حقيقة هامة مؤداها أن غالبية المجاعات والأوبئة التى ألمت بمصر فى ذلك الحين ، إنما كانت مرتبطة بنهر النيل وفيضانه السنوى الذى تعتمد عليه الزراعة فى البلاد . ففى عصر سلاطين المماليك كما فى غيره من العصور ، ظل النهر العظيم قوام الحياة المصرية وعليه مدارها . وعلى الرغم من الأرباح التى جنتها البلاد من تجارة المرور ، فإن النيل ظل بفيضه وغيضه هو المؤثر الأول والفعال فى حياة البلاد . فقد قام النظام السياسى على أساس إقطاعى يعتمد بدوره على الأرض كمصدر للثروة وحين تضطرب إنتاجيـــة الأرض تضطرب دعامة هامة من دعامات دخل الطبقة الحاكمة . ومن ناحية أخرى ، أعتمدت جماهير المصريين على إنتاجية الأرض الزراعية ، على حين استأثر السلطان ومن يدورون فى فلكه بأرباح التجارة . وهكذا لعب الفيضان السنوى دوراً هاماً وحيوياً فى حياة المصريين ، فإذا كانت المياه كافية لرى الأرض الزراعية « . . . خرجت تلك السنة على خير ... » ، أما إذا هبطت مياه النيل عن حد الوفاء انتشرت حالة من الفوضى والفزع ، و ماجت البلاد بمشاعر الخوف والترقب ، وتجسد شبح المجاعة بوجهه المرعب يتوارى خلفه شبح الوباء .

وقد أدرك المعاصرون هذه الحقيقة تمام الإدراك ، وصاغها « تقى الدين المقريزى » فى عبارة تقول « ... لولا ماجعل الله فى نيل مصر من حكمة الزيادة فى زمن الصيف على التدريج حتى يتكامل رى البلاد ،

وهبوط الماء عنها عند بدء الزراعة ، تفسد إقليم مصر و تعذر سكناه لأنه ليس فيه أمطار كافية ، ولا عيون جارية ، تعم أرضه، إلا بعض اقليم الفيوم(١) : . . »

والواقع أن توقف مياه النيل من الزيادة فى موسم الفيضان كان يخلق موقفاً صعباً وخطيراً فى البلاد ، إذ تتأخر الزراعة ، ومن ثم يضطر الناس إلى أكل واستهلاك المخزون من الغلال ، وربما يستهلكون تقاوى الزراعة أيضاً . وبالتدريج يفرض الغلاء نفسه على مظاهر الحياة ، ثم تبدأ المجاعة التى تقتل الكثيرين من عامة الناس جوعاً ، وتمتلىء الشوارع والطرقات والحقول بالجثث التى ماثلبت أن تجيف ، وتنشر الأمراض الوبائية التى تسكن ألوف المصريين تراب بلادهم. وقد عاصر بيلوتى الكريتى الذى زار مصر فى مطلع القرن الخامس عشر ، إحدى هذه المجاعات ، وذكر أنه مات فيها عدد لا يحصى(٢) .

والواقع أن قصور الفيضان وتعطل الزراعة كان كارثة يخشاها الجميع ويحسبون لها ألف حساب ، وتنتاب الناس المخاوف فيسارعون إلى تخزين الغلال ، ويشتد التزاحم على الأفران ، ويتبع ذلك بطبيعة الحال تصعيد رهيب فى أسعار الغلال والخبز ،وتمتد حمى الأسعار «...كل ما يباع ويشترى من مأكول ومشروب وملبوس ... »(٣) .

وفى بعض الأحيان يكون الوباء سبباً فى المجاعة أو العكس ، وربما يواكب كل منهما الآخر ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتواترة فى مصادر تلك الفترة (٤) . فقد تتسبب المجاعة فى موت البعض ، ثم ينتشر الوباء نتيجة لذلك . وقد يأتى الوباء ليقضى على أعداد كبيرة من السكان

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٢ .

(٢) Dopp, L'Egypte, p. 20

(٣) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٤١ - ص ٤٢ .

(٤) أنظر الإحصائية فى الصفحات التالية .

بحيث لاتجد الأرض من يزرعها وتكون النتيجة أن تنشب المجاعة مخالبها في البلاد من جديد ، وهو ما عبر عنه المقريزى بقوله « ... إذا تأخر جرى النيل بمصر يمتد الغلاء سنين... » (١) .

ولكن الغلاء أو المجاعة وما يتبعها من مظاهر الفوضى على شتى المستويات ، لم تكن فى جميع الأحوال ناجمة عن هبوط النهر ، أو غرق الأراضى الزراعية . إذ أن ثمة من الأسباب ما يتصل بالأحوال السياسية • والاقتصادية والاجتماعية .

فقد كان من أسباب تفاقم الأمور أثناء المجاعة التى حدثت سنة ٦٩٤ هـ (١٣٩٤ م) أن السلطان الأشرف خليل بن قلاون كان قد فرق المخزون من الغلال على الأمراء قبل موته ، فلما قصّر النيل عن الوفاء ، اشترى الوزير الغلال الموجود فى الأسواق لسد حاجة السلطان ومماليكه ، وكانت النتيجة أن ارتفعت أسعار القمح وتكالب الناس على شرائها (٢) . ويكشف هذا المثال وغيره (٣) عن أن الحكام بسياستهم التى أهتمت بتكوين الثروات لأنفسهم ، وتأمين احتياجاتهم ، كانوا يتسببون فى خلق مثل هذه الأرمات ، أو يزيدون من حدة المجاعة وضراوتها . بل إن بعض السلاطين ، لاسيما فى عصر الجراكسة ، كانوا يشترون الغلال من الأسواق وهى رخيصة ويخزنونها طمعا فى أن يهبط النيل ويحققون لأنفسهم مكسبا ، ويذكر ابن الصيرفى فى حوادث سنة ٨٣٥ (٤) أن السلطان برسباى أمر بشراء الغلال لحسابه « . . . كونها رخيصة ، وربما توقفت زيادة النيل ، فغلت الأسعار ، فتكون الفائدة للسلطان ... » . وكانت نتيجة ذلك

---

(١) المقريزى المصدر السابق ، ص ٤١ .

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ق ٢٨ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ .

(٣) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس جـ٣ ص ٢٣٨ .

(٤) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس جـ ٣ ، ص ٢٣٩ .

أن ارتفعت الأسعار وزاد الإردب القمح عن قيمته مايزيد عن ثلاثين دينارا ، كما يذكر ابن اياس (١) فى حوادث سنة ٨٧٤ هـ أن ارتفاع أسعار الغلال والغلاء بسبب احتكار الدوادار الكبير لغلال الوجه القبلى .

ويتصل بالعامل السابق عامل آخر هو تدهور النظام السياسى فى الدولة ، والذى عبر عن نفسه فى عدم الإهتمام بصيانة الجسور التى تحفظ مياه النهر . وكثيراً ماتخبرنا مصادر تلك الفترة بحوادث انقطاع الجسور وغرق الأراضى ، وما ينتج عن ذلك من ارتفاع الأسعار ، وتزاحم الناس على الأفران وجوانيت بيع الخبز (٢) .

كما أن الفتن والمنازعات الداخلية ، وحروب الشوارع بين طوائف المماليك ، والتى زادت فى العقود الأخيرة من ذلك العصر ، كانت تسهم بشكل أو بآخر فى خلق هذه الفوضى الاقتصادية — الاجتماعية ، إذ كان مجرد إشاعة موت أحد السلاطين ، أو ركوب أمراء المماليك بالسلاح للإقتتال ، يسبب فزعا شديداً للناس فتغلق الأسواق والحوانيت ، وتبدو المدينة وكان سكانها من الموتى ، مثال ذلك ماحدث سنة ٦٩٣ هـ ، حين جاءت الأنباء بمقتل السلطان الأشرف خليل ، وخلت الطرقات والأسواق من روادها ، واختفى الخبز من الأسواق « ... وقاسى الناس شدة عظيمة ... » (٣). وفى عصر الجراكسة تزايد تأثير حوادث القتال والشغب من طوائف المماليك بشكل جعل من هذه الحوادث مادة دائمة فى حوليات المؤرخين المتأخرين . بل إن الأمر وصل ببعض السلاطين إلى أنه

---

(١) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٢٣

(٢) ابن الصيرفى ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٤١ ؛ ابن إياس ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٦.

(٣) ابن أيبك الدوادار ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٢٧٣ .

يصرح للمماليك الجلبان بمهاجمة بيوت كبار موظفى الدولة وأخذ ماينهبونه منها لأن رواتبهم تأخرت عليهم (١) .

ويكفى للدلالة على مدى التدهور السياسى أن نورد ماذكره ابن اياس من أن سنة ٨٧٢هـ قد حكم فيها أربعة سلاطين منهم خايربك «سلطان ليلة» الذى لم يحكم سوى ليلة واحدة «...وخرجت هذه السنة وقد وقع فيها من الفتن والشرور والانكاد ما يكاد أن يضبط ...» (٢) .

وفى تقديرنا أن هذا التدهور السياسى كان من أسباب التدهور الاقتصادى بقدر ما كان نتيجة له، ذلك أن النظام الإقطاعى المملوكى الذى إعتمد على الأرض وإنتاجها بشكل أساسى ، قداستهدف أيضاً عدم التمكين لقيام أسرات إقطاعية قوية؛ ففرق الإقطاعات فى أنحاء متفرقة ، كما كان الإقطاع يتغير مع تغير وظيفة صاحبه . وكانت النتيجة الحتمية لذلك ان حرص كل صاحب إقطاع على أن يكون لنفسه الثروة بقدر الإمكان ، دون الإهتمام بوسائل زيادة إنتاج الأرض مثل الجسور والترع وغيرها . وفى النهاية زاد إعتماد أبناء الطبقة الحاكمة على الرواتب النقدية لكى يحافظوا على حياة الترف والبذخ التى عاشوها، على حين كان إنتاج البلاد من المصنوعات التى اشتهرت بها قدتواضع إلى أدنى حدوده (٣) .وكانت النتيجة مزيداً من استنزاف رصيد البلاد من الذهب والفضة ومزيداً من التدهور الاقتصادى والأزمات الاقتصادية.

ومن ناحية أخرى ، فإن إنعدام الأمن فى ربوع البلاد كان يخلق هذا الإضطراب الاقتصادى فى أحيان كثيرة . فقد سبب العربان كثيراً من المتاعب للسلاطين منذ بداية دولتهم وحين وهنت قبضة الدولة فى أخريات

---

(١) ابن الصيرفى ، المصدر السابق ٣ ، ص ١٧٤ .

(٢) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣٠ ، ص ١٨ .

(٣) فى سنة ٧٩٠ هجرية كان عدد القزازين (صناع الأقمشة) أكثر من أربعة عشر ألف نول فى مدينة الإسكندرية ، وانخفض العدد سنة ٨٣٧ هـ إلى ثمانمائة فقط لأن الظلم وجور الحكام شتتهم فى البلاد (ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ٢٧٩) .

أيامها صاروا يهاجمون القرى وينهبونها ، بل ويهاجمون المدن . وفى كل مرة تخرج إليهم إحدى الحملات تفسد المزروعات وتنزل بالريف ألوانا من البلاء والظلم مما يزيد فى متاعب الناس الاقتصادية ، وقد يتوقف جلب الغلال إلى أسواقه فى القاهرة والفسطاط لهذا السبب (١) .

كذلك كان التجار يفتعلون الأزمة الاقتصادية أحياناً ، لا سيما فى زمن الفيضان حتى يمكنهم تحقيق الربح فى ظل القلق الذى كان يساور الناس دائماً حول وفاء النيل إذ أدى تدهور الإهتمام بوسائل الرى إلى تكرار حوادث إنقطاع الجسور ، أو تأخر الزراعة ، ثم ما يعقب ذلك من أزمات . وقد كان التجار « .. **عند ابتداء زيادة النيل كانوا يشرعون فى مشترى الغلال وحوزها عندهم .. ثم يعقب ذلك توقف الزيادة فيغلو السعر** .. » ، ومن الطريف أن المعاصرون كانوا يسمون مثل هذه الأزمة المفتعلة «**الكذابة**» (٢) .
على أن أخطر ما قاساه المصريون فى ذلك العصر لم يكن ارتفاع الأسعار أو غير ذلك من مظاهر الأزمة الاقتصادية ، وإنما تلك السلسلة الرهيبة من الأوبئة والمجاعات . وسنحاول فى الصفحات القليلة التالية أن نعرض لبعض مظاهرها حتى يمكن للقارىء أن يتصور مدى فداحة خطرها .

كانت أول مجاعة يرصدها مؤرخو عصر المماليك هى تلك التى حدثت سنة ٦٦٢ هـ (١٢٢٥ م) نتيجة لقصور النيل عن حد الوفاء ، واختفت الغلال والخبز من الأسواق تقريباً ، واضطر الناس إلى أكل حشائش الحقول وأوراق اللفت والكرنب (٣) . واستمرت الأسعار فى تصاعدها حتى جنيت المحصولات الجديدة ، فأخذت الأسعار فى النزول وانتهت الأزمة

(١) انظر على سبيل المثال ابن الصيرفى ، أبناء الهصر ، ص ١٧ ، ص ١٤٤ – ص ١٤٥ ، ص ١٥٣ ، ص ١٩٢ ، ص ١٥٣ ، ص ١٩٢ ، ص ١٩٥ ، ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ص ١٢ – ص ١٣ ، ص ٢٣ ، ص ٢٥ ، ص ٤٣ ، ص ٧١ – ص ٧٢ ، ص ١٠٢ ، ص ١٠٥ ، ص ١٠٦ ، ص ١١٣ ، ص ١٤٣ .

(٢) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ٢٦١ – ص ٢٦٢ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٠٦ ، العينى ، عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٦٢ هـ ، ابن التغرى بردى ، النجوم جـ ٧ ص ٢١٣ . ويذكر النويرى (نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ق ٢٧) أن هذه المجاعة وقعت سنة ٦٦١ هـ .

وفيما بين سنتى ٦٩٤ هـ ، ٦٩٥ هـ (٤ — ١٢٩٥ م) حدثت مجاعة رهيبة عقب هبوط نهر النيل ، وكانت الصورة قاتمة للغاية « .. فقد كثر الشح ، ووقفت الأحوال واشتد البكاء وعظم الضجيج فى الأسواق من شدة الغلاء ... » ، ووصل الأمر بالناس إلى أكل القطط والكلاب والحمير والبغال ، حتى أن الكلب السمين صار يباع بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة دراهم على ما يذكر ابن إياس (١) .

وقد عاصر ابن أيبك الدوادارى هذه المجاعة وشاهد بعض أحداثها وسجلها بقوله : « .. كان يقول الإنسان الفقير لبابة لله ، لبابه لله ، ويموت مكانه وعادوا يخرجون إلى الكيمان يلتقطون ما يكون مدفونا بها من حبة قمح أو شعير أو فول أو ما أشبه ذلك ، ولقد نظرت بعينى برا باب البرقية ظاهر القاهرة فى الخندق برا السور جماعة كبيرة شبه الوحوش الضارية قد تغيرت عنهم ملامح الإنسانية ، وكل جماعة عندهم قدر ينتظرون الميتات التى تخرج وترمى بكيمان البرقية ، فيأخذونها بالضراب بينهم من قوى على صاحبه فيطبخونها ويأكلونها .. » ثم يحدثنا عن أن الناس صاروا يأكلون القطط والكلاب ، ويذكر أن الناس صاروا يأكلون الأطفال ، ويأكلون بعضهم بعضاً . وعلى الرغم من تحفظنا فى قبول مثل هذه الأقوال ، فالواضح أن عامة المصريين كانوا يقاسون الأهوال ويقعون فريسة سهلة للمجاعة حتى إنهم ينتظرون الميتات التى تلقى إليهم من القلعة أو قصور الأمراء الذين لا تنالهم المجاعة بالأذى .

بيد أن المجاعة سرعان ما كانت تجر الوباء وراءها . ففى أثناء هذه المجاعة مات آلاف الناس جوعا ، وانتشرت جثثهم فى كل مكان ؛ فانتشر الوباء

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور (ط . بولاق) ، جـ ١ ، ص ١٣٣ — ص ١٣٤
(٢) ابن أيبك ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٣٨٣ .

وصار الناس يتساقطون صرعى الجوع والمرض فى الطرقات والحقول وعلى صفحة النهر والترع . وأخذت الكلاب تنهش جثث الضحايا ؛ على حين يطاردها الأحياء لكى يأكلوها . ولم يجد الموتى من الغرباء من يدفنهم « ... **لأشتغال الأصحاء بموتاهم والسقماء بأمراضهم ...»** خلت القرى من سكانها للدرجة أن القرية التى كان بها مائة شخص لم ينج منها سوى حوالى العشرين على ماتذكره مصادر تلك الفترة . وكان تأثير هذه المجاعة رهيبا بحيث أثرت على مقدرات الدولة كما سنرى (١) .

وقد شهدت الفترة ما بين عام ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) وعام ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) عدة مجاعات وأوبئة كان سببها فى غالب الأحوال راجعا إلى قصور فيضان النيل عن الوفاء ، ولكن تأثيراتها لم تكن مدمرة مثل المجاعة السابقة (٢) .

وجاءت سنة ٧٤٩هـ لتشهد ذلك الوباء المروع المروع الذى اجتاح الأرض من أقصاها إلى أقصاها ليخرب البناء السكانى فى العالم المعروف آنذاك . وقد كان هذا الوباء المروع مقدمة لتناقص أعداد السكان فى الشرق الأدنى وفى أوربا على حد سواء (٣) . وقد عرف المسلمون هذا الوباء الشامل باسم

---

(١) المقريزى ، السلوك ج ١ ، ص ٨٠٨ - ص٨١٥ ، إغاثة الأمة ص ٣٧ - ص٣٨ النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ق ٨٢ ، تاريخ ابن الوردى ، ج ٢ ص ٢٤١ ، السيوطى حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ - ص ٢٩٨

(٢) ابن أيبك المصدر السابق ج ٩ ص ٢٥٨ ، ص٣٥٩ ، ابن الوردى ، ج ٢ ، ص٣٤٩ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٨١٥ ، يتبع .

(٣) Ashtor, A social and economic hist., pp. 301, ff.

وعن تأثير « الموت الأسود Black Death » على حضارة أوروبا العصور الوسطى انظر رواية الشاعر القصاص الايطالى جيوفانى بوكاشيو Giovanni Boccaccio (١٢ - ١٣٧٥) التى يعتقد أنه جمعها من أقوال الفارين من هذا الوباء :

the Decameron (translated by J. M. Rigg, George Routledge and sons, London 1995), pp. 4-12.

«الفناء الكبير» ، على حين عرفه الغرب الأوربى باسم «الموت الأسود Black Death»
وكان من أعراض هذا الوباء الذى أفاض المؤرخون والرحالة فى وصف
تأثيراته أن يبصق المصاب دماً ثم يصيح ويموت . وقد بدأ هذا الوباء المروع
ينشب أنيابه فى مصر فى خريف سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ثم اشتدت وطأته
مع بداية العام التالى . واستمر يمزق فى الجسد المصرى حوالى عامين . وقد
تراوحت أعداد ضحاياه ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف نسمة يوميا .
وتزايد عدد الموتى بحيث صار الناس يحملونهم على السلالم والأبواب وألواح
الخشب . وانقطع البعض لتغسيل الموتى ، كما انقطع البعض الآخر للصلاة
عليهم . ويبدو أن القبور كانت أقل من أن تستوعب هذه الأعداد الكبيرة ،
فلجأ الناس إلى دفن عدة جثث فى الحفرة الواحدة .

وامتلأت الطرقات والمساجد بجثث الضحايا ، وكان الوباء فتاكا لدرجة
أن الأدوية لم تكن تجدى نفعا ، وذلك «لسرعة الموت» ، وصار الموت
يطالع الناس فى كل الطرقات « ... **فلاتجد بيتا الا وفيه صيحة ، ولا تمر
بشارع الا وفيه عدة أموات ...** » .

وقد شمل هذا الوباء كل شئ ، فقد امتد أثره إلى « ... **حيتان البحر ،
وطير السماء ، ووحش البر** » . كذلك فسدت الزراعات بفعل تواجد الدود
فيها ، كما تسممت الأسماك فى النهر والترع والبحيرات .

ثم أخذ الوباء يتناقص فى سنة ٧٥٠ هـ ، وما لبث أن ارتفع نهائيا (١) ،
ولكن آثاره ونتائجه ظلت تفرض نفسها على الحياة المصرية فترة طويلة ، بل
إننا لا نغالى إذا قلنا إن هذا الوباء كان هو المقدمة الحقيقية للتدهور العام الذى
بدا أشد وضوحا مع مطلع القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) .

---

(١) المقريزى ، السلوك جـ ٢ ، ص ٣٢١ ، يتبع : العينى ، عقد الجمان : جـ ٢٤ ،
حوادث سنة ٧٤٩ هـ وسنة ٧٥٠ هـ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٤ ،
السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٣٠٣ .

وبعد هذا الوباء المروع تعرضت البلاد لعدة أوبئة نذكر منها الوباء والمجاعة المتقطعة التى عاصرها المؤرخ تقى الدين المقريزى ، والتى استمرت من سنة ٧٩٦ حتى سنة ٨٠٨ هـ . وقد هاله ماشاهده أثناء هذه المجاعة ؛ ولمس بنفسه أسبابها الحقيقية ، ومن ثم أفرد كتابا لهذا الموضوع هو كتابه المسمى « إغاثة الأمة بكشف الغمة » (١) . وفى هذا الكتاب تعرض مؤرخنا لأهم المجاعات التى ألمت بمصر منذ القدم وحتى سنة ٨٠٨ هـ وقد تضمن هذا الكتاب معلومات قيمة وهامة عن أوضاع مصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى ذلك الحين . كما وضع يده على أهم أسباب المجاعات ولخصها فى قوله « **إذا تأخر جرى النيل بمصر يمتد الغلاء سنين** » ، ذلك أن الناس تضطر إلى استهلاك المخزون من الغلال القديمة ، والتى يستخدم جزء منها فى زراعة المحاصيل الجديدة عند وفاء النيل ، ويأتى عام جديدة ليجد أن التقاوى قد استهلكت . وهكذا كان تأخر الفيضان سنة يؤدى ، بالتداعى ، إلى سلسلة من سنوات القحط والمجاعة . وهذا ما ينطبق على المجاعة التى نحن بصددها ، فقد بدأت بقصور النيل فعلا ثم استمرت عدة سنوات بشكل متقطع . وكان طبيعيا أن يصحبها الوباء الذى يذكر المقريزى وغيره (٢) أنه قضى على أكثر من نصف سكان البلاد . وقد أرجع المقريزى سبب هذه الحال الرهيبة إلى « ... **سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد** ... » (٣)

وقد شهدت السنوات المائة الأخيرة من عصر سلاطين المماليك عدة مجاعات وأوبئة لعل من أشهرها الأوبئة الثلاثة التى رزحت البلاد تحت

---

(١) نشرة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠ م .

(٢) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٤١ — ص ٤٣ ، السلوك جـ ٣ ، ص ٨٢٦ ، ٨٩١ ، ص ١٠٠٣ ، ١١١٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٣ ، ص ٥٢ ، العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٥ ، ق ٤٠ ، ق ١٩٨ .

(٣) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٤٣ .

وطأتها فى عصر السلطان قايتباى ، وكان آخرها سنة ٨٦٧ هـ (١٤٩١ م). وتذكر مصادر تلك الفترة أن واحداً من هذه الأوبئة الثلاثة قضى على حوالى مائتى ألف شخص ، وهلك فيه ثلث المماليك تقريبا ، بل إن السلطان فقد إبنته وزوجته فى يوم واحد على الرغم من مستوى معيشة الحكام الذى لا يمكن مقارنته بمستوى معيشة عامة الناس . وصاحب هذه الأوبئة مجاعة رهيبة أمسكت بخناق الناس ، على حين انفجر الصراع بين طوائف المماليك ليزيد من المساحة القاتمة الكئيبة فى الصورة (١) .

والحقيقة أن الأوبئة والمجاعات فى ذلك العصر ، لاسيما فى شطره الثانى ، كثيرة ومترادفة بحيث لا يمكن أن نتتبع كلا منها على حدة ، ولكنها جميعا تشترك فى كونها تحالفت مع ظلم الحاكمين وعبث العربان واللصوص والمماليك المفسدين لطحن جموع المصريين ، فقد عاشت فى مصر آنذاك طائفة كبيرة من سواد العامة الذين لا يكادون يحصلون على قوت يومهم ، أو يجدون مايستر أجسادهم ، فضلا عن جماهير الفلاحين الذين كانت حياتهم فى عصر سلاطين المماليك تجسيداً لمأساة الإنسان حين تتضافر عليه كوارث الطبيعة وظلم الحكام . وكان طبيعيا أن تبدو الحياة مستحيلة وكريهة فى نظر عامة المصريين بسبب عوامل الإحباط المتحكمة فى حياتهم اليومية .

ومهما يكن الأمر ، فإننا ينبغى أن نقدم محاولة إحصائية للمجاعات والأوبئة فى كل من عصر البحرية وعصر الجراكسة ، لعل تحليلها ودراستها يمكن أن تساعدنا على زيادة توضيح الصورة :

---

(١) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ٤٦ ، ٥٠ — ص ٥٩ ، ص ٦٠ — ض ٦١ ، ابن إياس بدائع الزهور ، جـ ٣ : ص ١٨ ، ٢٧ ، ١٢٥ .

جدول المجاعات والأوبئة زمن المماليك البحرية (١)

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف والملاحظات
٦٦٢ هـ (١٢٢٥ م)	قصر النيل عن حد الوفاء، فأرتفعت أسعار الغلال، وتكالب الناس على الأفران وحوانيت الخبز، ثم اضطروا لأكل أوراق اللفت والكرنب، لم يكن هناك ضحايا بسبب تدخل بيبرس وإلزامه للأمراء بإطعام الفقراء، و حين ظهرت المحصولات الجديدة ارتفع الوباء.
٦٧٢هـ (١٢٧٣ م)	انتشر فى البلاد مرض وبائى، كان أكثر ضحاياه من النساء والأطفال ويبدو أنه لم يكن ذا تأثير خطير.
٦٩٤-٦٩٥ هـ (٩٤ - ١٢٩٥ م)	مجاعة رهيبة ووباء نتيجة للفيضان الهابط فى ذلك الوقت. قضى الوباء على أعداد كبيرة من السكان. وتخلخل البناء السكانى فى الريف على وجه الخصوص.
٧٠٩ هـ (١٣٠٩م)	إنتشار مرض وبائى ولكنه لم يتسبب فى موت الكثيرين، كما حدث فى السنة نفسها أن قصر النيل عن الوفاء وارتفعت الأسعار.
٧١٦ هـ (١٣١٦ م)	حدث الوباء عقب هبوب ريح سوداء أعقبها مطر. ولكن إنتشاره كان فى بلاد الصعيد فقط على ما يبدو.
٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م)	إنتشر الطاعون، بيد أن ضحاياه كانوا من القلة بحيث أغفلت بعض المصادر ذكره.

(١) مصادر معلوماتنا عن هذا الجدول والجدول الآخر موضحة فى كتابنا « النيل والمجتمع المصرى ص ١٢٩، يتبع.

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف و الملاحظات
٧٣١ هـ (١٣٣٠ م)	إنتشار محدود لأحد الأمراض الوبائية وصفته المصادر بإنه « وباء يسير »
٧٣٦ (١٣٣٥ م)	فى عصر السلطان « الناصر محمد بن قلاون » توقف النهر عن الزيادة ، وحدثت مجاعة ولكن أمكن التغلب عليها قبل أن تستشرى ، فقد أمر السلطان بتوزيع الغلال على الفقراء من الشون السلطانية وشون الأمراء .
٧٤٧ هـ (١٣٤٦ م)	حدثت أزمة اقتصادية ، ويبدو أن تأثيرها كان محدوداً .
٧٤٨ هـ / ٧٤٩ هـ (٤٧ – ١٣٤٨)	« الفناء الكبير » ، أو الموت الأسود Black death
٧٦١ هـ (١٣٥٩ م)	وباء بالقاهرة وبلاد الوجه البحرى استمر حتى السنة التالية ومات فيه كثيرون من الأعيان .
٧٦٤ هـ (١٣٦٢ م)	انتشرت بعض الأمراض الوبائية فى القاهرة وعامة بلاد الوجه البحرى ، ولكن ضحاياها كانت محدودة للغاية .
٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م)	وباء شديد الوطأة استمر يحصد الأرواح على مدى أربعة شهور ، وبلغ عدد ضحاياه فى القاهرة والفسطاط حوالى مائة نفس يوميا ممن سجلهم ديوان المواريث .
٧٧٥ هـ (١٣٧٣ م)	توقف نهر النيل عن الزيادة فى موسم الفيضان ، ومات عدد ضخم من ذوات الأربع ، ثم نشبت المجاعة أظفارها الحادة فى الناس ، وأخذ ضحايا الجوع يتساقطون فى كل مكان .

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف والملاحظات
٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م)	نتيجة لما حدث فى العام السابق ، انتشرت الأمراض الوبائية الفتاكة وتقدر المصادر عدد الذين سجلتهم الأوراق الرسمية بحوالى مائتين ، وعدد الضحايا المجهولين بحوالى خمسمائة يوميا .
٧٧٧ هـ (١٣٧٥ م) ٧٧٨ (١٣٧٦ م)	استمرت المجاعة والوباء ، وأخذ الناس يأكلون القطط والكلاب والميتات . كما تذكر المصادر أن بعض الناس كانوا يبيعون أطفالهم بل يذكر ابن حجر أن بعضهم أكل الأطفال.
٧٧٩ هـ (١٣٨٧ م)	كانت بقايا المجاعة والوباء مازالت باقية ، ولو أن عدد الضحايا قل كثيرا .
٧٨٢ هـ (١٣٨٠ م) ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م)	بدأ الوباء فى مدينة الإسكندرية ، ثم أخذ ينتشر تدريجيا حتى عم بلاد الوجه البحرى ، والعاصمة . ويذكر المؤرخون أن عدد ضحايا هذا الوباء فى مدينة القاهرة قد بلغ حوالى ثلاثمائة نسمة فى اليوم الواحد ، عدا الضحايا المجهولين « الطرحاء » الذين كانت جثثهم توجد ملقاة فى كل مكان .

هذه ، بشكل عام ، أهم المجاعات والأوبئة التى شهدتها مصر فى عصر المماليك البحرية ، أو فى عصر دولة المماليك الأولى ، كما يحلو لبعض الباحثين أن يسميها . والجدير بالذكر أننا قد أغفلنا ذكر الكثير من الأزمات الاقتصادية التى عادة ما كانت حوليات ذلك العصر تصفها بأنها « غلوة خفيفة » ، وذلك لأنها غالبا ماكانت من نتائج الأوبئة والمجاعات أو من المظاهر المصاحبة لها وهو ما سنوضحه فيما بعد .

والمتأمل فى الجدول السابق يخرج بعدة استنتاجات لعل من أهمها أن

ذلك العصر ، الذى امتد فى الزمان لأكثر من مائة وثلاثين عاما ، لم يشهد سوى ثلاثة أوبئة كبرى ، كان أحدها هو الوباء الشامل الذى إكتسح أنحاء المعمورة فى أواسط القرن الرابع عشر . والاستنتاج الثانى هو أن معدل حدوث المجاعات والأوبئة فى مصر قد ارتفع بعد هذا الوباء الشامل، أو « الفناء الكبير » على حد تعبير ذلك العصر . وعلى الرغم من أن مؤرخى تلك الفترة قد أسهبوا فى وصف تفاصيل كل من هذه الأوبئة ، فالواضح أن البناء الاجتماعى فى مصر لم يبدأ فى التخلخل إلا بعد منتصف القرن الرابع عشر ، أى بعد « الفناء الكبير » . وهو التخلخل الذى تبدت مظاهره واضحة وارتفع معدله بسرعة فى عصر الجراكسة على نما يكشف الجدول .

جدول المجاعات والأوبئة زمن المماليك الجراكسة .

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف و الملاحظات
٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م)	حدث غلاء فى القاهرة ، ويبدو أنه كان من بقايا نتائج الوباء الذى حدث فى العامين السابقين .
٧٨٧ هـ (١٣٨٥ م)	حدث غلاء فى العاصمة بسبب المنازعات السياسية و التنافس على العرش .
٧٨٨ هـ (١٣٨٦ م)	انتشر الوباء فى الإسكندرية ، ويبدو أنه لم ينتشر خارجها .
٧٩٠ هـ / ٧٩١ هـ (١٣٨٨/ ١٣٨٩ م)	انتشر فى القاهرة وضواحيها وباء قضى على عدد من السكان ؛ وقد ظل هذا الطاعون متفشياً فى البلاد حتى سنة ٧٩١ هـ .
٧٩٤ هـ (١٣٩١ م)	انتشر مرض وبائى قضى على أعداد هائلة من الأبقار حتى كادت أن تختفى من مصر ؛ ونتج عن ذلك أن ارتفعت أسعار اللحوم ومنتجات الألبان وغيرها من المواد الغذائية ؛

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف و الملاحظات
٧٩٥ هـ (١٢٩٢ م)	بدأ الوباء ينتشر فى مدينة الإسكندرية .
٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م)	بدأت المجاعة الكبرى الرهيبة التى استمرت حوالى ستة عشر عاما بصورة متقطعة وقد صحبها الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية فى كثير من مراحلها . ويذكر المقريزى أن هذه المجاعة المخيفة كانت هى فاتحة التدهور الاقتصادى لمصر ، ويؤكد المؤرخ الكبير هذا الرأى فى كل مناسبة ، وفى جميع كتبه عن مصر .
٧٩٧ هـ (١٣٩٤ م)	نتيجة المجاعة التى بدأت فى العام الماضى ، حدثت أزمة اقتصادية شديدة وصحبها الوباء ليزيد الطين بلة .
٧٩٩ هـ (١٣٩٦ م)	انتشر الوباء واستمر ثلاثة شهور وقضى على عدد من السكان .
٨٠٠ هـ (١٣٩٧ م)	انتشرت أمراض وبائية فى القاهرة وبلاد الوجه البحرى .
٨٠٢ هـ (١٣٩٩ م)	حدثت أزمة اقتصادية ، واختفت المواد الغذائية وارتفعت الأسعار وفى هذه السنة أيضا انتشر مرض « السعال والباردة » ولكن المصادر لاتحدثنا عن وقوع ضحايا .
٨٠٤ هـ (١٤٠٢ م)	توقف النيل عن الزيادة فى موسم الفيضان ، فارتفعت الأسعار واختفى الخبز من العاصمة ثلاثة أيام .
٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م)	اشتدت الأزمة التى لاحت بوادرها فى

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف والملاحظات
	العام السابق، ثم انتشر مرض وبائى بين الفقراء من الناس وقضى على عدد كبير منهم، وتبع ذلك اشتداد الأزمة الإقتصادية.
٨٠٧ هـ (١٤٠٤ م)	استمر الوباء يفتك بالعامة ثم مد مخالبه إلى غيرهم، وزادت حدة الأزمة الاقتصادية.
٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م)	وقع طاعون شامل فى بلاد الصعيد، ويبدو أن أثره كان من العنف بحيث «شمل الخراب غالب بلاد الصعيد».
٨١٠ هـ (١٤٠٧ م)	يذكر السيوطى أن الطاعون انتشر فى البلاد.
٨١٢ هـ (١٤٠٩ م)	بدأ الوباء ينتشر فى البلاد المصرية.
٨١٣ هـ (١٤١٠ م)	زادت حدة انتشار الطاعون وقضى على عدد كبير من الناس فى العاصمة وغيرها.
٨١٦ هـ (١٤١٣ م)	يذكر ابن حجر والسيوطى أن الطاعون انتشر بمصر وقضى على كثيرين.
٨١٨ هـ (١٤١٥ م)	انتشرت الأمراض الوبائية، كما أمسكت الأزمة الاقتصادية بخناق البلاد، وجاءت الفتن والاضطرابات السياسية لتزيد من وطأة الموقف
٨١٩ هـ (١٤١٦ م)	استمرت الأمراض الوبائية الانتشار حتى شملت كل انحاء البلاد. وصحب ذلك ارتفاع شديد فى الأسعار واختفاء بعض السلع.

الوصف والملاحظات	سنة وقوع المجاعة أو الوباء
امتد الوباء إلى المناطق الغربية بمصر ، فانتشر فى مدينة الاسكندرية ومدينة دمياط .	٨٢٠ هـ (١٠١٧ م)
إنتشر الطاعون فى أنحاء البلاد . ويبدو أن انتشاره قد بدأ فى القاهرة ، ثم امتد شرقا وغربا إلى إقليمى الشرقية والغربية .	٨٢٢ هـ (١٠١٩ م)
استمر الطاعون يفتك بالناس ووصل تأثيره إلى الإسكندرية .	٨٢٣ هـ (١٩٢٠ م)
انتشر الوباء فى مدينة دمياط ، وتسبب فى القضاء على عدد كبير من الأطفال والرقيق .	٨٢٨ هـ (١٠٢٤ م)
بدأ الوباء ينتشر فى بلاد الصعيد الأعلى ، حيث قضى على كثيرين من سكان هذه المناطق	٨٣١ هـ (١٠٢٧ م)
انتشر الوباء ليشمل أغلب مناطق الوجه البحرى فضلا عن القاهرة وقضى على طوائف باكملها من الأجانب المقيمين بمصر آنذاك ، والمثير للانتباه أن هذا الوباء قد انتشر فى شتاء تلك السنة ، عن الرغم من أن الربيع والصيف كانا دائما يشهدان انتشار الأوبئة . وقد قضى هذا الوباء المروع على أسماك الأنهار والبحيرات والتماسيح وعلى الذئاب والظباء فى الصحراء المصرية . ضحايا هذا الوباء أكثر من مائة ألف إنسان فقا لأقل التقديرات كما ويذكر ابن الصيرفى .	٨٣٣ هـ (١٣٢٩ م)
شهدت تلك السنة انتشار الوباء ، وتوقفت	٨٠١ هـ (١٠٣٧ م)

سنة وقوع المجاع أو الوباء	الوصف والملاحظات
	أحوالهم ، وتزايد ظلم الحكام عليهم . وقد قضى الوباء على عدد كبير من السكان ؛ ثم امتد ليطول بمنجلة الرهيب الأغنام والدواب بأسرها، فضلا عن القطط والكلاب والدجاج والنحل .
٨٤٧ هـ / ٨٤٨ هـ (١٤٤٣/١٤٤٤ م)	بدأ الوباء ينتشر منذ أواخر سنة ٨٠٧ هجرية ، وكان أكثر ضحاياه من الأطفال والرقيق . واستمر هذا الوباء قائماً حتى سنة ٨٠٨ هـ ثم ارتفع عن البلاد .
٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م)	ظهر الطاعون فى مصر .
٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م)	حدثت بالبلاد أزمة اقتصادية عنيفة نتيجة لعدم وفاء النيل ، ثم موت كثير من الأبقار لعدم توفر العلف ، فارتفعت الأسعار وتكالب الناس على الأفران وحوانيت الغلال .
٨٥٤/٨٥٥ هـ (١٤٥٠ – ١٤٥١م)	ظلت الأزمة قائمة وتفاقمت الأمور ، ولكن يبدو أن الأمور لم تصل إلى حد المجاعة وسقوط الضحايا .
٨٧٤ هـ (١٤٥٩ م)	انتشر الطاعون بالقاهرة والفسطاط ، ثم أخذ ينتشر فى سائر أنحاء البلاد ، ومات فيه عدد ضخم من السكان على مايذكر المؤرخ ابن تغرى بردى .
٨٧٣ هـ (١٤٦٧ م)	بدأ الوباء فى الإسكندرية ثم تطرق إلى إقليم البحيرة ، ومنه إلى جميع أنحاء البلاد ، وكان ضحايا فى غالبهم من الأطفال والمماليك والعبيد والجواوى والغرباء . وقد صحبه غلاء

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف والملاحظات
	شديد فى الأسعار وفيـــه ماتت إبنة السلطان قايتباى وحفيدته . والجدير بالذكر أن هذا هو الوباء الأول من ثلاثة أوبئة كبرى شهدها عصر ذلك السلطان .
٨٨١ هـ (١٤٧٥ م)	الوباء الثانى فى عصر السلطان الأشرف قايتباى ، توفيت فيه أخت السلطان وحوالى ألفين من مماليكه ،فضلا عن الأعداد الكبيرة من المصريين . وبدأ يخف مع موسم الخماسين.
٨٨٨ هـ (١١٨٣ م)	فشت فى الناس أمراض حادة ومات بذلك جماعة ، ولكن يبدو أن تأثير هذه الأمراض الوبائية كان محدودا .
٨٩٢ هـ (١١٨٦ م)	حلت بالبلاد مجاعة من جراء قصور النيل زمن الفيضان ، وكان عدد الموتى كبيراً فى كل يوم لعدم استطاعتهم الحصول على مايدفعون به غائلة الجوع .
٨٩٧ هـ (١٤٩١ م)	انتشر الوباء فى مصر وأهلك عدداً كبيراً من السكان قدرهم المؤرخ ابن اياس بحوالى مائتى ألف إنسان .
٨٩٩ هـ (١٤٩٣ م)	قصر النيل عن حد الوفاء ، ولم ترو أغلب الأراضى الزراعية وكانت النتيجة أن أرتفعت الأسعار واختفى القمح والخبز وغير ذلك من مظاهر الغلاء .
٩٠٣ هـ (١٤٩٦ م)	ظهر الطاعون فى سنة ٩٠٢ هجرية ، ثم

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف والملاحظات
	بدأت وطأته تثقل على البلاد فى العالم التالى .
٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م)	عاد الطاعون مرة أخرى ، ولكنه كان أخف وطأة .
٩٠٩ هـ / ٩١٠ هـ (١٥٠٢/١٥٠٣ م)	بدأ الطاعون خفيفا فى سنة ٩٠٩ هجرية ، ثم اختفى لمدة ثمانية شهور تقريبا ليعود فى سنة ٩١٠ هـ بصورة أشد وأعنف مما كان عليه ..
٩١٢ هـ (١٥٠٦ م)	ظهر الطاعون فى بلاد الصعيد .
٩١٨ هـ (١٥١٢ م)	ظهر الوباء فى مدينة الإسكندرية ورشيد وبعض مناطق الساحل الغربى ، ولكنه لم يدخل إلى القاهرة والفسطاط .
٩١٩ هـ (١٥١٣ م)	وصل الوباء فى انتشاره إلى العاصمة حيث بدأ يقضى على العبيد والجوارى ، ومع حلول الخماسين اشتدت وطأته ، ثم أخذ يفتك بالناس عموما .

لا شك أن المقارنة السريعة بين الجدولين تعطى إنطباعاً لا يخطئه الباحث عن مدى الفرق فى منحنى التدهور فى كل من عصر البحرية ، وعصر الجراكسة ، فإنه — فضلا عن الفارق الكمى الكبير المتمثل فى عدد الأوبئة والمجاعات — يتضح أن الذبول السكانى قد بات واضحاً بشكل حاسم . كما أن ما يلفت النظر فى الجدول الثانى أن مدة استمرار الأزمة قد طالت بشكل واضح ، بحيث كان يمكن للمجاعة أو الوباء ، أو كليهما ، أن تستمر على مدى

ثلاث أو أربع سنوات . ومن الطبيعى أن يكون هناك سبب ، أو أسباب ، تفسر هذه الظاهرة ، وإذا كنا قد تعرضنا لبعض هذه الأسباب من قبل ، فإن تحليلنا لموقف الدولة من هذه الأزمات من ناحية ، واستعراضنا لنتائج وآثار الأوبئة والمجاعات من ناحية ثانية ، يمكن أن يصل بنا إلى تصور واضح للظاهرة التى ارتبطت الأسباب والنتائج فيها ببعضهما بشكل مثير .

أما عن موقف الدولة أثناء هذه الأزمات ، فالحقيقة الواضحة فيه أنه اختلف فى عصر الدولة الأولى عنه فى عصر الدولة الثانية بشكل عام ، بيد أن الموقف كان متشابهاً من حيث كونه إفرازاً للعلاقات بين الحكام والمحكومين فى ظل النظام الإقطاعى العسكرى الذى ارتكزت عليه دولة المماليك ، ومن حيث كونه تعبيراً — جزئياً — عن الواجهة الدينية التى حرص المماليك على التخفى وراءها طوال ذلك العصر .

ففى عصر السلطان الظاهر بيبرس حدثت مجاعة سنة ٦٦٢ هـ ، وقبل أن تتفاقم الأزمة ؛ أمر السلطان باحصاء المحتاجين والفقراء ، والتزم باطعام عدد منهم ، كما ألزم الأمراء وكبار رجال الدولة والأعيان والتجار والأثرياء — كل حسب قدرته — بأن يطعم عددا آخر بشرط أن يستمر الفقير فى تناول نصيبه اليومى من الطعام على مدى ثلاثة شهور ؛ وتم تنفيذ ذلك بالفعل حتى أمكن اجتياز الأزمة (١). وقد تكرر الأمر نفسه أثناء المجاعة التى ألمت بالبلاد فى عهد السلطان العادل كتبغا فيما بين سنتى ٦٩٤هـ و ٦٩٥هـ . فقد أمر السلطان بعد أن اشتدت وطأة المجاعة ، بجمع الفقراء والمحتاجين ، وألزم الأمراء والأعيان والتجار بأن يطعم كل منهم عدداً معينا من الجياع . فكان البعض يطعمونهم لحم البقر فى المرقة ومعه الخبز ، على حين كان البعض الآخر يفرق عليهم الكعك ، ويعطيهم البعض الرقاق » . . فخف ما كان بالناس

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ق ٢٧ ، العينى ، عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٦٢ هـ ، المقريزى السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٧ .

من الفقر .. » (١)، كذلك حدث سنة ٧٦٦ قام الأمير منجك نائب السلطان بتوزيع الفقراء على الدواوين، وعلى التجار والأثرياء لكى يقوموا باطعامهم، ونودى فى العاصمة بألا يمارس الجياع الشحاذة « . وأى حرفوش شحذ يصلب .. » (٢). وتكرر الشئ نفسه أثناء أزمة سنة ٨٠٨ هـ (٣) . ولعلها كانت المرة الوحيدة التى يحدث فيها مثل هذا التصرف فى عصر الجراكسة.

كذلك كان الخبز يوزع على المتعبدين، أو الفقراء على حد تعبير العصر، فى الجوامع وعلى الصوفية فى الزوايا والخانقاوات والربط . وغالبا ما كان هذا الخبز الذى يوزع أثناء الأزمات يخرج من الشون السلطانية (٤) .

وينبغى أن نلاحظ أن هذا التصرف من قبل سلاطين المماليك كان يصدر عن تصور دينى يجعل منه إحساناً وصدقة للتخفيف من حدة الأزمة على عامة الناس ،ولم يكن يصدر عن موقف تلتزم فيه الدولة برعاية الناس وتقديم الخدمات العامة لهم ، إذ أن مثل هذه المفاهيم كانت غائبة عن مجال العلاقة بين سلاطين المماليك ورعاياهم. بل إن هذا التصرف الأخلاقى الطابع تلاشى فى عصر الجراكسة وحل محله موقف مناقض تماما ، فقد كان السلاطين وكبار الأمراء يحتكرون الغلال فى شونهم ، ويشترونها حين يكون سعرها منخفضا ويخزنونها حتى وقت الأزمة فيبيعونها بسعر يحقق لهم مكسبا كبيرا (٥) وهو ما يمكن تفسيره فى ضوء التدهور الشامل لكافة مناحى الحياة المصرية آنذاك .

---

(١) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٣٥ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٣٠ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٤ ، ق ١٨٣ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ص ٢٢٩ (بولاق) .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٣ ، ص ٥٢ ، يتم .

(٤) المصدر نفسه ، جـ ٧ ، ص ٢١٣ — ص ٢١٤ ؛ ابن إياس ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٠٦ .

(٥) ابن الصيرفى إنباء الهصر ، ص ١٦٢ ، نزهة النفوس ، جـ ٣ ص ١٤٨ ، ص ١٨٠ — ص ١٨١ ، ٢٤٩ ؛ ابن إياس الزهور ، جـ ٣ ، ص ٤١ — ص ٤٣ .

وثمة تصرف آخر كانت الدولة تلجأ إليه لمعالجة الأزمة ، فكثيراً ما كان يحدث فى عصر الدولة الأولى أن يأمر السلطان باخراج الغلال من الشون السلطانية ، ويتم توزيع القمح على الطحانين لكى يقوموا بطحنها لأصحاب الأفران والمخابز حسب طاقة كل منها ، وذلك بقصد تخفيف وقع الأزمة على الناس (١) . كذلك كان السلطان يأمر ، أحياناً ، بأن يتم بيع الغلال المستخرجة من الشون السلطانية «للضعفاء والأرامل » ، كما كان يتم ، فى بعض الأحيان ، تحديد الحد الأقصى للكمية المسموح لكل فرد بشرائها حتى لا يلجأ الناس إلى التخزين «.. ويقع الحجر على من يخزن..» ، ففى سنة ٧٣٦هـ ، على سبيل المثال ، أمر السلطان الناصر محمد بن قلاون أن يفتح الأمراء شونهم ويبيعوا الغلال للناس بأسعار يحددها السلطان (٢) . وفى بعض الأوقات كان السلطان يتصدى بنفسه لحل مشكلة اختفاء القمح ، ويتابع الأزمة حتى يمكن التغلب عليها باستيراد القمح من الخارج (٣) .

كذلك كان الخبازون والطحانون يتعرضون للعقوبات البدنية بشتى ضروبها فى حالة تسببهم فى الأزمة . فمن المعروف أن المحتسب كان يتولى مراقبة الأسعار ، ومراقبة عمليات البيع والشراء ، وحين يمتنع أصحاب المطاحن والمخابز عن البيع يعاقبهم بأشنع ضروب العقاب ، ويوجه إليهم إنذاراً بفتح حوانيتهم « .. وأن يبيعوا بسعر الله ... » ، ويهددهم بنهب محلاتهم . وتحفل مصادر الفترة الأولى من عصر سلاطين المماليك بالكثير من الأمثلة الدالة على مدى فعالية الدور الذى كان المحتسب ومعاونوه يلعبونه فى هذا المجال (٤) ،

---

(١) المقريزى إغاثة الأمة ، ص ٣٣ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٠ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٠٥ ، العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٥ ، ق ٤١٤ .

(٣) العينى ، المصدر السابق ، الجزء والصفحة .

(٤) تاريخ إبن الفرات ، جـ ٩ ، ص ٣٨٧ ، ٤٢٤ - ص ٤٣٥ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٣٩٦ - ص ٣٩٧ ،

بيد أن وظيفة المحتسب تعرضت للتدهور الذى أصاب كافة وجوه الحياة(١) ، ومن ثم قلت فعالية دور هذا الموظف الهام فى حياة المصريين اليومية .

وكان تسعير الغلال إحدى الوسائل التى تلجأ إليها الدولة أثناء المجاعات والأزمات الاقتصادية ، ولكن التسعير ، كإجراء إقتصادى ، كان يلقى بعض المعارضة من الفقهاء أحياناً ، كما كان يأتى بعكس المرجو منه ، إذ تتفاقم الأمور وتختفى الخبز وتشتد بالناس المجاعة فتضطر الدولة إلى إلغاء التسعير(٢) . وقد تدفع الأزمة ببعض الموظفين إلى الاستعفاء (الاستقالة) من مناصبهم لعجزهم من القيام بأعباء عملهم بصفتهم مسئولين عن مراقبة الأسواق والأسعار ، ففى حوادث سنة ٨١٨ هـ ، مثلا ، وحين اشتدت المجاعة واختفت الغلال وسائر المواد الغذائية ، اضطر المحتسب أن يستعفى من الحسبة ، وتولاها رجل آخر لم يلبث أن تركها بعد أيام قلائل بسبب تزايد الأسعار وقلة الخبز واشتداد تزاحم الناس على الأفران(٣) .

وفى بعض الأحيان كان السلطان ، أو نائبه ، هو الذى يعزل المحتسب أو الوالى إذا ما نسب إليه سوء التصرف الذى يؤدى إلى حدوث الأزمة . وكثيراً ما كان المحتسب يلزم بيته ولا يخرج خوفا على نفسه من غضب الناس فى الشوارع لأنهم ينسبون إليه ما وصلت إليه الحال باعتباره المسئول عن مراقبة حركة البيع والشراء(٤) . وكثيراً ما كان الناس يهاجمون السلطان بجارح الكلام إذا ما مر موكبه بالقاهرة فى حالة وقوع الأزمة ، فقد ذكر بن إياس أنه حدث فى سنة ٨٧٢هـ أن ارتفعت أسعار الغلال « ... فاستكعب

---

(١) أنظر فى دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب .

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ق ٢٧ ؛ المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٧٠٦ إغاثة الأمة ، ص ٣٣ ، العينى ، عقد الجمان ، حوادث ، ٦٦١ هـ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ٢١٤ .

(٣) العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٥ ، ق ٤١٣ — ٤١٤ .

(٤) المصدر نفسه ، جـ ٢٥ ، ق ٤١٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ ٩ ، ص ٤٣٥ .

الناس بالسلطان ، وصار إذا شق القاهرة يسمعونه الكلام المنكى ... »(١) ؛

ويبدو قلة إهتمام السلاطين بأمر الناس ومحاولة التخفيف عنهم واضحاً فى عصر الجراكسة من خلال ما تمدنا به مصارد تلك الفترة من معلومات نسوق منها ، على سبيل المثال ، ما حدث سنة ٨٣٩ هـ حتى وقف العامة للسلطان الأشرف برسباى ، وشكوا من عدم وجود الخبز « ... فلم يعبأبهم ، ولا التفت إليهم ... »(٢) . كما حدث فى سنة ٨٨٥ هـ أن وقف العامة فى طريق الموكب السلطانى يشكون من أن الخبز لا يوجد فى الدكاكين من بعد العصر(٣) .

كذلك كان بعض سلاطين المماليك يتظاهرون بالعــدل خوفا على أرواحهم أثناء إنتشار الأوبئة ، فيعلنون عن إلغاء الكثير من الضرائب « المغارم والمظالم والكلفَ » . وبمجرد أن يزول الخطر ويقل الخوف تعود الضرائب الفادحة لتغرض على الناس « كما كانت وزيادة »(٤) ، ففى سنة ٩١٩هـ اشتدت وطأة الوباء على البلاد ، « وكانت السلطان موهوما على نفسه » ، فأبطل عددا كبيراً من الضرائب والمكوس .

ومن الطريف أن بعض السلاطين كان يبالغ فى إظهار الرحمة والعدل خوفا من شر الوباء المستشرى ، فيمنع سجن أحد حتى ولو كان مذنبا ، ففى سنة ٧٨٤ هـ أمر السلطان الظاهر برقوق بألا يحبس أحد بسبب ديونه ، وأطلق سراح المسجونين(٥) كذلك حدث فى سنة ٨٤١ هـ أن أمر السلطان برسباى بإغلاق السجون والإفراج عمن فيها من المساجين ، « ... وصار

---

(١) إبن اياس : بدائع الزهور (طبعة د . محمد مصطفى) ، جـ ٣ ، ص ١١ .
(٢) إبن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ٣٣٨ .
(٣) إبن أياس ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٥ .
(٤) المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ٧٧ ، ص ٣٠٤ .
(٥) ابن حجر ؛ إنباء الغمر ، جـ ١ ؛ ص ١٨١ (مخطوط) .

من له عند أحد حق لا يصل إليه ، وانتشر السراق فى البلاد ... »(١) ؛ كما حدث فى سنة ٩٠٩ هـ أن أمر السلطان الغورى بمنع الفقهاء من الجلوس للحكم فى القضايا وأمر أيضاً أن لا يشتكى أحـــد أحداً « إلا من الشرع الشريف »(٢) .

وفى ذلك العصر لم يكن الناس يملكون إزاء كوارث الطبيعة ونوازلها سوى الاستسلام والتضرع إلى الله لكى يرفع عنهم الوباء . ولم تعرف تلك الفترة ما نعرفه اليوم من إجراءات وقائية وعلاجية ، مثل عزل المصابين ، والحجر الصحى ، وإغلاق المناطق الموبوءة وغير ذلك من وسائل العصر الحديث لمقاومة الأوبئة . فلاغرو إن كانت أساليب الدولة فى معالجة هذه الكوارث متمشية مع روح العصر بما تتسم به من قدرية وارتجالية ، وبما فيها من مفاهيم غيبية . والجدير بالذكر أن هذه الأساليب لم تكن تختلف كثيراً عن أساليب حكام أوربا فى تلك الفترة المتأخرة من العصور الوسطى ، بيد أن الطب والعلاج فى الشرق كانا أكثر تقدما وازدهارا منهما فى الغرب الأوربى آنذاك .

وفى غالب الأحوال ، كان الناس يفسرون هذه الكوارث تفسيراً دينيا وأخلاقيا خالصاً ، فيرجعون أسبابها إلى غضب الله من جراء فساد الأخلاق وانتشار الفسق والفجور ، وسيادة الظلم . وهنا يلجأ الناس — حكاما ومحكومين — إلى الذين يتسربلون بردائه ، ويكثر اقبالهم على العبادة ، وتقوم الحملات التى يرأسها الوالى أوغيره لمهاجمة أوكار الفساد . وما أن تنقضى الأزمة وتنقشع الغمة حتى تعود الأمور إلى سيرتها الأولى .

وخير مثال على ذلك هو ما كان الحكام يدعون الناس إليه فى أوقات الأزمة من الخروج إلى صلاة الاستسقاء . إذ يأمر السلطان بخروج المحتسب ومعاونيه

---

(١) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ٤٠٠ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٧٦ — ص ٧٧ .

لإعلام أبناء الرعية بأنه قد تقررت إقامة صلاة الاستسقاء فى يوم كذا ويحدد لهم مكانها . وفى بعض الأحيان كانت الدعوة توجه إلى الناس بالصيام بضعة أيام تقربا إلى الله حتى يجرى لهم مياه الفيضان . ثم يخرج الناس فى موكب حاشد ومعهم القضاة والأمراء والعلماء والفقهاء ومشايخ الخوانق والصوفية وصبيان المكاتب وعامة الناس ، وبينهم اليهود والنصارى بكتبهم المقدسة ، وربما يخرج السلطان بنفسه معهم ٠٠٠وفى الصحراء القريبة من القاهرة يبدأ الوعظ والصلاة ، ثم ترتفع الأصوات بالدعاء والاستغاثة والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ، ويستمر المشهد عدة ساعات ، وقد يتكرر خروج الناس لصلاة الاستسقاء أكثر من مرة .(١)

ولم يكن الناس فى كل الأحيان يخرجون إلى الصحراء لأداء هذه الصلاة بل إنهم كثيرا ما كانوا يجتمعون بأحد المساجد الكبيرة ، مثل مسجد عمرو بن العاص أو الجامع الأزهر ، يتوسلون إلى الله ويبتهلون ويتضرعون ، ويستمرون فى قراءة القرآن ، ربما لعدة أيام ، أملا فى أن يرفع الله الغمة عنهم . (٢)

ومن الأمور ذات الدلالة فى هذا المقام ماذكره ابن الصيرفى من أنه حدث سنة ٨٢٣هـ أن أمر السلطان قايتباى بجمع أربعين شريفا ، كل شريف أسمه محمد ، وأعطاهم من ماله خمسة آلاف درهم وأجلسهم بالجامع الأزهر ، فرعوا مايتسر من القرآن بعد صلاة الجمعة وظلوا يدعون الله حتى حانت صلاة العصر فصعدوا ليؤذنوا ، جميعا ، على سطح المسجد، ثم عادوا ليصلوا بالناس ، وقد تصرف قايتباى هذا التصرف بمشورة بعض العجم الذين قالوا

---

(١) المقريزى، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢١٨ - ص ٢١٩ ، ابن تغرى بردى، النجوم (كاليفورنيا) ، جـ ٦ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٨ ، ص ٤٩٤ - ٣٩٥ ؛ ابن الصيرفى نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ وقد علق على خروج الناس للاستسقاء سنة ٨٢٣ بقوله : « هذا والحكام والظلمة على ماهم فيه . وقال الشاعر :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله .·. عار عليك إذا فعلت قبيح .

(٢) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١١١٣ - ١١١٤ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٤ .

إن ذلك يرفع الوباء عن البلاد . (١)

وكثيرا ما كان توقف النيل عن الزيادة ، أو انتشار الوباء ، ومايتنتج عن ذلك من إضطراب وفوضى ، يفسر فى ضوء فساد أخلاقيات الناس وانشغالهم بأمور اللهو والفساد . (٢) فيقوم ممثلو الدولة بشن الحملات التفتيشية ومهاجمة أوكار الفساد واماكن الفجور ، ومستودعات الحشيش والخمور . والأمثلة على ذلك كثيرة ومتواترة فى مصادر تلك الفترة ، منها ما حدث سنة ٨٤١ هـ حين ظهر الوباء فى مصر ، وتخوف السلطان برسباى من أن يصاب ، فعقد مجلسا بالقلعة حضره بعض الفقهاء وسألهم إن كان الله يعاقب الناس بالطاعون بسبب ما يقترفونه من الذنوب ، فأجابه البعض بأن الزنا إذا تفشى بين الناس ظهر فيهم الطاعون ، وإن النساء فى مصر يمشين فى الطرقات ليلا ونهاراً بزينتهن . وأشار آخر بأن الواجب يقتضى منع النساء من المشى فى الأسواق. ونازعه ثالث فى ذلك وطالب بمنع المتبرجات فقط . ولكن السلطان أمر بمنع النساء من الخروج مطلقا « . . ظنا من السلطان أن يمنعهم يرتفع الطاعون . . » (٣) . ومن الطريف أن السلطان برسباى قد أصيب فى هذا الوباء بحيث اختلطت قواه العقلية ، وكان يعيش فى غيبوبة طوال الوقت .(٤)

ولعل هذه المناقشة دليل جيد على المفاهيم التى كانت سائدة فى تلك العصور والتى فى ضوئها كانت تعالج الأمور أثناء هذه الأزمات . ومثل هذه المجالس كانت تعقد دائما للتشاور فيما يجب اتخاذه إزاء الكارثة . بل إن المناقشات كانت تدور أحيانا حول جواز التضرع والدعاء والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى حتى يرفع المجاعة أو الوباء عن البلاد والعباد . (٥)

---

(١) ابن الصيرفى ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٩٠ – ص١٩١ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ص ٧٥٨ – ٧٦٠ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٦ (كاليفورنيا) : ص ٢٧٠ ، ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ٤٠٤ – ٤٠٥ .

(٤) ابن الصيرفى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٥ .

(٥) ابن حجر ، أنباء الغمر ، جـ٢ ، ٢٥٩ .

وكانت مثل هذه التصرفات العاجزة سمة بارزة ونغمة مشتركة فى مواقف الدولة ورجالها الذين يتمسحون برداء الدين إبان الأزمات . وكانت مثل هذه الأجتماعات تفرز دائما الحملات التفتيشية التى تهاجم أماكن اللهو والفساد ومعاقبة من يؤمها بأشنع صنوف العقاب . ففى سنة ٧٨٩ﻫ ، لم يبلغ نهر النيل حد الوفاء ، وأعقب ذلك الاضطراب والفوضى ، فبادر نائب السلطنة (الأمير سيف الدين سودون) بمهاجمة المتنزهين على شاطىء النهر ، وقبض على جماعة منهم ووبخهم ، ثم هاجم أماكن بيع الخمور واستولى على حوالى ألف جرة خمر كسرها تحت أسوار القلعة . وبعدها بعدة أيام هاجم أحد مستودعات الحشيش واستولى على كميات كبيرة ضبطها هناك وأتلفها بالتراب تحت أسوار القلعة أيضا (١) كذلك حدث فى سنة ٨٣٢ ﻫ . أن هاجم حاجب الحجاب مواضع الفساد ، فأراق الخمر وأحرق الحشيش ، كما هاجم أماكن تجمع النساء . (٢) وفى سنة ٨٤١ﻫ . هوجمت بيوت اليهود والنصارى لأراقة مافيها من الخمور ، وقد علق ابن الصيرفى على هذا بقوله : ... **والعجب أنهم فى كل سنة عندما يعرفون أوان عصر الخمر يساعدونهم بأن يدفعوا لهم العسل ويأخذوا منهم الثمن . فانظر إلى هذه الأمور المتناقضة ..** »(٣) كما حدث فى سنة ٩١٠ ﻫ أن أصدر السلطان قنصوه الغورى أوامره بمهاجمة بيوت الأقبـــاط وكسر مالديهم من جرار الخمر . وحرق أماكن الحشيش والبوزة (٤) .

بيد أننا ينبغى أن نلاحظ الصفة الغالبة على مثل هذه الإجراءات أنها كانت مؤقتة ومرهونة بظروف الأزمة ، فإذا ما زال الخطر وارتفع الوباء ، أو خفت حدة المجاعة ، وهبطت الأسعار عادت الأمور سيرتها الأولى .

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ، ص ٩ .
(٢) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ١٤٤ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٠٦ .
(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص ٤٧٦ — ٧٧ .

ومن الأمور ذات الدلالة فى موقف الدولة أن السلاطين والأمراء ومن يلحق بهم من كبار موظفى الدولة والفقهاء كانوا يفرون إلى مناطق نظيفة من الوباء تاركين عامة الناس لمصيرهم التعس فى مواجهة الجوع والموت. وعلى الرغم من أن مصادر ذلك العصر كانت تركز على وصف مظاهر الوباء أو المجاعة فى العاصمة، بحكم تواجد المؤرخين بها، فإننا نستطيع أن نقرر أن المظاهر كانت تفرض نفسها على الحياة خارج العاصمة، بل إن ما أوردته المصادر من إشارات قليلة عن تأثير المجاعات والأوبئة فى الريف يؤكد أن الصورة هناك كانت أشد إظلاماً وكآبة.

على أية حال، كانت سرياقوس هى المكان الذى يفر إليه السلاطين بحواشيهم هرباً من الطاعون فى أغلب الأحوال(١)، كما كان الأعيان من المتعممين وأرباب الوظائف يرسلون أولادهم إلى الأماكن غير الموبوءة حين تنزل بالبلاد كارثة من هذا النوع، مثال ذلك ما حدث سنة ٩١٩ هـ، إذ أرسل قاضى القضاة الحنفية، آنذاك، أولاده إلى ناحية جبل الطور وحذا حذوه جماعة من أمراء المماليك والأعيان، فأرسلوا أبناءهم أيضاً إلى الطور «... خوفاً عليهم من الطعن ...» (٢)

ومن المهم، ونحن بصدد موقف الدولة أثناء الأزمات، أن نشير إلى أن السلاطين والأمراء لم يحاولوا التخلى عن بعض امتيازاتهم أو مظاهر العز والرفاهية التى عاشوا فى ظلها على الرغم من تساقط العديد من الضحايا، بل إن منهم من كان يحرص على تنمية ثروته باستغلال ظروف الأزمة. ففى سنة ٨٣٣ هـ، وعلى الرغم من ثقل وطأة الوباء، طلب الاستادار تجار السكر فى الفسطاط والقاهرة ليطرح عليهم السكر الذى كان السلطان يحتكر إنتاجه، ففروا. وأغلقوا حوانيتهم «... وصار السكر لا يوجد والمرضى محتاجون

(١) المقريزى، السلوك، جـ ٢، ص ٧٧٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ ١٠ ص ٢٤؛ العينى، عقد الجمان، جـ ٢٤، ق ١١٨.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ٤، ص ٢٩٦ – ص ٢٩٩.

إليه ،، ولم يجدوا مايعللونهم به... » (١) . كما كان السلاطين يحرصون على مظاهر البذخ دون النظر إلى ما تعانيه البلاد من ضيق وعسر ، فيقيمون المنشآت التى ينفقون عليها الكثير من الأموال حرصاً على الظهور بمظهر التدين (٢) . أو يخرجون للنزهة فى أنحاء البلاد حيث تقام الاحتفالات الهائلة وتمد الموائد الحافلة . وكان بعض سلاطين المماليك يشتهر بكثرة رحلاته التى ترهق ميزانية البلاد ، فضلا عن المتاعب التى تسببها هذه الزيارات لسكان الأقاليم التى يزورها الموكب السلطانى (٣).

ومن الأمور اللافتة للنظر أن الكثيرين من أمراء المماليك كانوا يخلفون ، عند موتهم ، تركات هائلة من النقد والخيول والثياب والسلاح والبضائع والغلال والمماليك والضياع وغير ذلك . ففى وفيات سنة ٨٣٩ هـ يذكر ابن الصيرفى أن أحد الأمراء قدرت تركته بمبلغ ستمائة ألف دينار ، والآخر بما يساوى مائتى ألف (٤) . وإذا ما تذكرنا مدى التدهور الذى كانت تعانيه البلاد فى ذلك الحين أدركنا مدى صحة الفرض الذى ذهبنا إليه فى السطور السابقة . وهو أمر يمكن تفسيره فى ضوء الحقيقة القائلة بأن العلاقات بين السلطان والرعية كانت علاقات أفرزها النظام الإقطاعى العسكرى الذى فرض نفسه على البلاد بقوة السلاح وبفضل قيامه بالدفاع عنها ضد عدوان الصليبيين والمغول . وبمرور الوقت فقد النظام قدرته على حماية البلاد فى الخارج ومع ذلك يظل يفرض نفسه عليها فى الداخل . فلا غرو ، إذن ، أن يحرص الحكام على جمع الثروات وزيادتها فى ظل ظروف البؤس المحيقة بالمحكومين .

---

(١) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص١٨٥ . وأنظر دراستنا عن الأسواق لشرح نظام طرح البضائع .

(٢) ابن إياس ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٧ – ص ٨ ، ص ٤٣ – ٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ٥٣ – ٥٥ . حيث يتحدث عن رحلات الأشرف قايتباى .

(٤) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٣٥٨ – ٣٥٩ .

أما النتائج والآثار التى ترتبت على هذه السلسلة المتوالية الحلقات من الأوبئة ، فكانت فادحة فى كافة جوانب الحياة المصرية آنذاك .

فمن الناحية الاجتماعية تجلت هذه التأثيرات السلبية فى ذلك التدهور الواضح والمطرد فى أعداد السكان . وثمة من الدلائل ما يساعدنا على الوقوف على مدى التقلص السكانى الذى عانت منه البلاد نتيجة للأوبئة والمجاعات التى ألمت بها . فقد ذكر المؤرخ تقى الدين المقريزى فى خططه أن كثيراً من أسواق العاصمة التى عاصرها عامرة بالبضائع ، وشاهدها تموج بالحركة والنشاط، قد خربت بعدالعقد الأول من القرن التاسع الهجرى (١٥م)، كما ذكر اثنين وخمسين سوقاً قد خربت فى غرب القاهرة فقط ومن هذه الأسواق ما كانت حوانيته تصل إلى ستين حانوتاً ، ثم يعلق على ذلك بقوله : « ... وهذه من جملة ظاهر القاهرة الغربى فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر؟ . . »(١) . ولا شك أن الأسواق الداخلية ترتبط ، فى رواجها أوكسادها ، بالتجمعات السكانية ، ولعل هذه النسبة الكبيرة من الأسواق التى خربت ، فضلا عن الأسواق التى تقلصت مساحة وحركة ، تعطينا انطباعاً عن مدى التدهور السكانى الذى أتت به تلك المجاعات والأوبئة فى العاصمة .

أما الريف ، فقد تقلصت أعداد القرى نتيجة لموت أعداد كبيرة من الفلاحين من ناحية ، وهروب كثيرين غيرهم إلى المدن بحثاً عن الطعام من ناحية ثانية ، فضلا عن الفرار من الزراعة وظلم الحكام من جهة ثالثة(٢).

وتذكر المصادر العديد من الأمثلة الدالة على ذلك . كما تقدم لنا الأعداد التقريبية لعدد الضحايا فى كل وباء ألم بالبلاد . وعلى الرغم من رائحة المبالغة التى تفوح من بعض التقديرات ، فإنهـا تكشف عن أن

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(٢) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٣٣ — ٣٥ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ٢٤١ .

التناقص فى أعداد السكان كان مستمراً بصورة مطردة . ففى سنة ٦٩٤ هـ على سبيل المثال ، تناقص عدد السكان ، ونزل عدد الفلاحين بصفة خاصة إلى درك رهيب من القلة مما سبب استمرار الاضطراب الاقتصادى فى مصر فترة غير يسيرة . فقد قدرت المصادر المعاصرة عدد ضحايا الوباء الذى حدث فى تلك السنة واستمر إلى السنة التالية بسبعة عشر ألفاً وخمسمائة فى أواخر سنة ٦٩٤هـ غير الفقراء والغرباء الذين ذكرت لمصادر نفسها أنهم أضعاف هذا العدد ، ونتج عن هذه المجاعة الرهيبة والوباء الذى صحبها أن القرية التى كان بها مائة شخص لم يبق بها سوى عشرين تقريباً ، كما تخلخل البناء السكانى فى المدن أيضاً (١) .

أما « الفناء الكبير » الذى بدأ ينشب مخالبه فى البلاد منذ خريف سنة ١٣٤٧ م ، فقد قضى على أعداد كبيرة من السكان بحيث لم يستطع الأحياء دفنهم أو تغسيلهم . وفى الريف لم تجد الأرض من يزرعها ، كما لم تجد المحصولات من يضمها نظراً لكثرة الموتى بين الفلاحين . وتوقفت أعمال للصيد، إذ كان الصيادون يخرجون بمراكبهم للصيد فيموت بعضهم فى أثناء الرحلة ويموت الباقون بعد العودة .

كما قضى هذا الوباء المروع على كثيرين من المماليك الذين خلت منهم ثكنات القلعة ، وتذكر مصادر تلك الفترة أن « الفناء الكبير » قضى على ثلثى جمهرة السكان(٢) .

وفى الوباء الذى حدث سنة ٨٣٣ هـ قدر عدد الضحايا بمائة ألف إنسان

---

(١) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٣٧ – ٣٨ ، السلوك ، جـ١ ص ٨٠٨ – ٨١٥، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ق ٨٢ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ٢، ص٢٩٧– ٢٩٨ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ص ١٣٤ .

(٢) العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٤ ، حوادث سنة ٧٤٩هـ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

على الأقل(١) . وقضى هذا الوباء على طائفة كاملة من«التكرور السودان» عددهم حوالى ثلاثة آلاف ، كما قضى على عدد كبير من المماليك السلطانية . وذكر ابن الصيرفى أن النعوش فى النهار كانت كثيرة جداً «... فتراها فى الشوارع كأنها قطارات جمال لكثرتها متواصلة بعضها فى أثر بعض ...»(٢) .

كذلك قضت الأوبئة الثلاثة التى تعرضت لها البلاد فى أثناء حكم السلطان الأشرف قايتباى على أعداد كبيرة من السكان قدرهم المؤرخون بحوالى مائتى ألف شخص ، كما قضت هذه الأوبئة على ما يقرب من ثلث المماليك(٣) .

وفى بعض تلك الأوبئة كان الضحايا من الأطفال والرقيق والغرباء بصفة خاصة . وفى تصورنا أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن هذه الفئات هى أقل الناس قدرة على مقاومة الأمراض . فالأطفال ، بطبيعة الحال ، لا تستطيع أجسامهم الغضة مقاومة العدوى ، ولاسيما أن ذلك العصر لم يعرف التطعيم ، أو غيره من وسائل الوقاية . أما العبيد والخدم ومن على شاكلتهم من الغرباء المعدمين فكانوا غير قادرين أيضاً على مقاومة الأمراض الوبائية بسبب سوء التغذية والإنهاك الذى كان يتمكن من أجسادهم الضعيفة نتيجة لما يقومون به من أعمال شاقة تفرضها عليهم طبيعة وضعيتهم الاجتماعية .

ويمكن أن نلاحظ أن الأوبئة والمجاعات التى كانت تبدأ بالقضاء

---

(١) العينى ، المصدر السابق ، جـ٢٥ ، ق ٦٣٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ (كاليفورنيا) ، ص ٦٦٢ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٣٠٩ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ — ٢٠٢ .

(٢) ابن الصيرفى ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٣) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ١٢ ، ص ٥٥ —٥٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١٢٢ ، ص ١٢٥ .

على أعداد كبيرة من الأطفال والرقيق والغرباء أخذت تشكل ظاهرة فى الحياة المصرية منذ مطلع القرن الخامس عشر الميلادى تقريباً . فقد تكررت هذه الظاهرة المؤلمة فى سنوات ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) ، ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ م) ، ٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م) ، ٨٣٣ هـ (١٤٢٩ م) ، ٨٤١ هـ (١٤٣٧ م) ، ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) ، ٩١٩ هـ (١٥١٣ م) .

وإذا ماتأملنا كيفية ارتفاع أسعار المواد الغذائية فى تلك الآونة بشكل مطرد فى ذلك الحين ، أدركنا أن ارتفاع أسعار المواد الغذائية من جهة ، واختفاء بعضها أحياناً من جهة ثانية ، جعل من الصعب على عامة الناس آنذاك أن يجدوا كفايتهم من الغذاء . وهو مايعنى بالضرورة أن فرصة الرقيق والغرباء والمعدمين فى الحصول على كفايتهم الغذائية كانت أقل كثيراً ، ومن ثم كانت هذه الفئات هى الفريسة السهلة للأوبئة والمجاعات التى تفتك بالكثيرين منهم ، ثم لاتلبث أن تنال من بقية الناس . ولعل المثال الذى يقدمه الجدول التالى يكشف كيفية ارتفاع الأسعار باستمرار

السنة	القمح سعر الأردب بالدرهم	الشعير بالأردب	الفول بالأردب	الخبز بالرطل	أنواع اللحوم بالرطل
٨٢٦ هـ	٦٠ـ٩٠ درهما	٦٠ـ٦٥ درهما	٧٠ـ٧٥ درهما	٨ر٠ درهما	٥ـ٨ دراهم
٨٢٧ هـ	٢٢٠ »	١٠٠ »	١٠٠ »	١ ١/٤ »	٦ـ٨ »
٨٢٨ هـ	٣٠٠ »	٢٨٠ »	٣٠٠ »	١ ١/٢ »	—
٨٣٢ هـ	٥٠٠ـ٣٠٠ »	٣٠٠ـ١٣٠ »	٣٠٠ »	—	٤ـ٦ »
٨٣٩ هـ	٣٦٠ »	٢٠٠ »	٢٠٠ »	درهمان	٥ـ٨ »

وعلى أية حال ، فإن الأوبئة قد استطاعت أن توقف النمو السكانى الذى شهدته البلاد فى بداية ذلك العصر ، ثم تسببت فى التناقص المستمر فى أعداد السكان حتى وصلت أعدادهم إلى الثلث تقريبا حسب تقديرات حوليات ذلك العصر .

بيد أن التدهور السكانى لم يكن هو الأثر السلبى الوحيد للمجاعات

على الصعيد الاجتماعى ، إذ تخلخل البناء الاجتماعى بشكل حاد نتيجة لهبوط المستوى الاقتصادى لكثير من الشرائح الإجتماعية ، كما اتخذت حركة المجتمع إتجاها هابطا بشكل واضح :

وكان من الطبيعى أن يتخلخل بنيان المجتمع فى أعقاب هـذه الأوبئة والمجاعات ، فقد كانت أعداد الذين لا يملكون تتزايد عقب كل من هذه الأزمات ، إذ يضطر الناس إلى بيع ما يملكون لشراء ما يقتاتون به ، ومن ثم يدخلون فى عداد المعدمين(١) . ومع توالى الأزمات تكثر أعداد أولئك المعدمين ، وتقل بالتالى قوة البناء الاجتماعى إذ تزيد القاعدة المعدمة إتساعا ، على حين تضيق دائرة الأثرياء الذين تقل درجة ثرائهم أيضاً . ومن الآثار الخطيرة على البناء الاجتماعى ما ذكرته المصادر من أن البعض كانوا يضطرون إلى بيع أبنائهم أثناء هذه الأزمات(٢) . وهو ما يعنى أن يزيد عدد الرقيق على حساب عدد الأحرار . صحيح أن مثل هذا الأمر لم يشكل ظاهرة بحيث تترك تأثيراً ملموساً على المجتمع ككل ، بيد أنها مؤشر هام على مدى التدهور الذى عانى منه المجتمع المصرى بسبب هذه الكوارث المتوالية .

ومن دلائل تخلخل البناء الاجتماعى أيضاً تلك الأعداد المتزايدة من أبناء الريف الذين كانوا يتوافدون إلى العاصمة لكى ينضموا إلى جمهرة المعدمين والشحازين الذين كثرت أعدادهم فى العاصمة بشكل لفت نظر زوارها من الأجانب فى ذلك الوقت(٣) . ويبدو أن الوافدين كانوا يشكلون عبئا على البلاد حتى تضطر السلطات أحيانا إلى الأمر برحيل الغرباء

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ٢١٨–٢١٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢٣ – ١٣٤ .

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ١٤٩ .

(٣) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٣٧ – ٤٠ .

عن القاهرة . والجدير بالذكر أن بعض هؤلاء الغرباء كانوا من أبناء بلاد الشام الذين فروا من بلادهم لسبب أو لآخر(١) . ومن الطريف أن بعض الناس كانوا يدعون الحاجة والفقر حتى ينالوا حظهم من الصدقات التى توزع أحياناً زمن المجاعات ، فقد ذكر ابن تغرى بردى فى أثناء الغلاء الذى حدث سنة ٨٥٥ هـ ما نصه : « . . . تمفقر خلائق كثيرة ممن ليس لهم مروءة »(٢).

كذلك كانت الأوبئة تقضى على الكثيرين بحيث يتخلف عنهم أملاك لانجد من يرثها . فمن نتائج « الفناء الكبير » ، على سبيل المثال ، ما ذكره المقريزى فى خططه من أنه « ... **كان يوجد بالحارة الواحدة ما يزيد على عشرين داراً خالية لا يعرف أربابها** ...(٣) » . كذلك كانت الأملاك تنتقل بسرعة غريبة بين خمسة أوستة أشخاص فى اليوم الواحد نتيجة لسرعة الموت . وحدث فى هذا الوباء أن أستولى كثيرون من العامة على إقطاعات أجناد الحلقة (٤) كما حدث فى وباء سنة ٨٣٣ هـ أن انتقل إقطاع أحد أجناد الحلقة بين تسعة أشخاص فى مدى أيام قليلة(٥) .

وثمة عبارة تجسد مدى تخلخل البنيان الاجتماعى فى مصر آنذاك ، ذكرها ابن الصيرفى تعليقا على حوادث سنة ٨٧٥ هـ ، وتقول كلماتها « **أما الناس فصاروا ثلاثة أثلاث : الغنى افتقر ، والمتكسب مايفى بنفقته ، والفقير فبعد أن كان يسأل فى الرغيف صار يطلب لقمة أو لبابة**»(٦) .

ومن الطبيعى أن يكون لهذه الأوبئة المتوالية أثرها على أخلاقيات الناس ،

---

(١) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج٢ ، ص ٩٧ — ١٠١ .

(٢) ابن تغرى بردى، المصدر السابق ، ج٧ ، ص ٢١٩ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٢١ .

(٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٧٠٥ — ٢٠٩ .

(٥) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج ، ج٣ ، ص ١٨٩ .

(٦) ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ١٨٨ .

وعلى شكل حياتهم اليومية . فقد كانت الأزمة تدفع بالكثيرين إلى الحرص على ما لديهم من الأطعمة ، وتشح النفوس ، إذ كان الأمراء و الأعيان والأثرياء لا يستقبلون أحداً فى وقت تناول الطعام(١) .

وفى الشوارع يتصارع عامة الناس فى سبيل الحصول على القوت ، فيتزاحمون على الأفران وحوانيت بيع الخبز والدقيق ، وربما يقتتلون فى سبيل الحصول على شئ من هذا أو ذاك . وهنا تتوقف كافة مظاهر حياتهم اليومية ، وتركد الأسواق ، ويتوجه بعضهم إلى الأفران من منتصف الليل، على حين يتوجه البعض الآخر إلى ساحل النيل عند بولاق فى محاولة للحصول على بعض القمح « ... **فمنهم من يجد بعض شئ ومنهم من يرجع خايباً** ... » وفى أثناء التزاحم على الأفران كان الناس ينهبون الخبز جهراً ، بل إن الجوع كان يدفع بالبعض إلى اختطاف العجين إذا أرسله أصحابه إلى الفرن ، وهو ما جعل البعض يرسلون العجين إلى الفرن فى حراسة عدد من الأفراد المسلحين بالعصى «**لحمايته من النهابة**» ، ولكن الجوع كان يدفع ببعض الناس إلى إلقاء أنفسهم على الخبز أو العجين دون أن يبالى الواحد منهم عما ينال رأسه وبدنه من الضرب « ... **لشدة مانزل به من الجوع** ... » . وفى مثل هذه الأحوال كان المحتسب أو الوالى يضطر لتعيين الحراسات على أبواب الأفران وحوانيت الخبز ومعهم العصى الغليظة لدفع الجياع إذا ما حاولوا نهب الخبز(٢) .

ومن المنطقى أن العامة هم الذين كانوا يقومون بمثل هذه الهجمات ، ولاسيما ذلك القسم الذى عرفته مصار ذلك العصر باسم « سواد العامة » . أما « بياض العامة » ، أو « مساتير الناس » ، فلم يكن بهم حاجة لمثل هذه التصرفات لأن حاجتهم إلى الطعام فى مثل هذه المرحلة المبكرة من المجاعة كانت تقل كثيراً عن حاجة المعدمين .

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٧٢٨ .

(٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ ٢ ، ق ٨٥ ؛ العينى ، عقد الجمان، جـ٢٥، ق٤١،

أما المراكب التى كانت تصل إلى ميناء القاهرة النهرى على ساحل بولاق، فكانت تربط بالمرسى بعيداً عن الشاطئ خوفاً من النهب ، ويتوجه من يريد الشراء إلى هذه المراكب فى القوارب الصغيرة ، وربما تقع الحوادث ويسقط الضحايا أثناء تصارع الناس وتزاحمهم لشراء القمح(١) .

ويبدو أن كثرة الأوبئة والمجاعات التى تعرضت لها البلاد فى تلك الفترة قد جعلت الناس يعتادون عليها ويتوقعون حدوثها فى كل حين ، بل ويتقبلون الأمر الواقع ببساطة مذهلة ، فقد ذكر المقريزى وابن الصيرفى فى حوادث سنة ٨٣٣ هـ أن الناس فى العاصمة كانوا يتوقعون الوباء « . . . حتى إن الصغار فى المكاتب يتكلمون بذلك ، ويودعون بعضهم بعضا .. »(٢). وهو ما يكشف عن أن الحياة قد باتت كريهة ومليئة بعوامل الإحباط بحيث لم يعد الناس يتوقعون من غدهم سوى ما يكرهون. ومن ثم كان طبيعيا أن يتعاملوا مع هذا الواقع المرير بقدر من اللامبالاة والإستسلام المميت . بيد أن طبيعة الإنسان المصرى الذى يسخر على الدوام من متاعبه ، عبرت عن نفسها فى بعض ألوان الأدب الشعبي التى بقيت لنا من ذلك العصر ، فقد كتب أحد الشعراء عندما تأخر الفيضان فى إحدى السنين :

إن عجل النيروز قبل الوفا ... عجل للعالم صفح القفا
فقد كفى من دمعهم ماجرى ... وما جرى من نيلهم ما كفى (٣)

وإذ زادت مياه النهر بحيث أغرقت الحقول فى إحدى السنين ، بحيث بعثرت زراعتها وتفشى الخوف والقلق بين الناس وباتوا يتوقعون المجاعة ، أخذ الشاعر يخاطب النيل كأنه انسان يفهمه ، فيقول :

(١) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٣٣ –ص٣٥ ،ص٣٩؛ العينى، عقد الجمان، جـ٢٥ ، ق ٤١٤ ؛ إبن حجر، إنباء الغمر، جـ ٣ ، ق٩٢ .

(٢) المقريزى، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٨٢٢ ؛ ابن الصيرفى، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ١٨٢ – ١٨٣ .

(٣) السيوطى ، كوكب الروضة ،ق ٣٦ .

أبحر النيل لا تشره ولا تأت بما نكره
فقد وفيت بالحسنى ولكن زدت فى كره
ولا تترك قفا الخباز يوما يأكل الدرّه
كم من خازن للقمح أمس يظهر العُذره
ألم تعلم بأنك إن نزلت تركته عِبْرة
فشهر دمعه حتى تراه فى الورى نهر
وسرعن مصر فى خير فقد طولت فى العِشره(١)

وحينما عز وجود الخبز فى الأزمة التى ألمت بالبلاد فى سنة ٨٥٣ ﻫ رثاه أحد الشعراء بهذه الأبيات :

قسما بلوح الخبز عند خروجه ... من فرنه وله الغداة نوّار
ورغائف تروقك وهى فى ... سحب الثفال كأنها أقمار
من كل مصقول السوالف أحمر ... الخدين للشونيز فيه عذار
كالفضة البيضاء لكن يغتدى ... ذهبا إذا قويت عليه النار
تلقى عليه فى الخوان جلالة ... لا تستطيع تحده الأبصار
فكأن باطنه بكفك درهم ... وكأن ظاهر لونه دينار
ما كان أجهلنا بواجب حقه ... لو لم تبينه لنا الأسعار
إن دام هذا السعر فأعلم أنه ... لا حبة تبقى ولا معيار (٢)

ومن الأشعار التى قيلت أثناء أحداث « الفناء الكبير » ، الذى قضى على أعداد كبيرة من المصريين وكان بداية للتخلخل الذى بدأ يهز أركان البنيان الاجتماعى منذ ذلك الحين فصاعدا ، ماقاله أحد شعراء العصر فى سخرية مريرة :

ياطالبا للموت قم واغتنم ... هذا أوان الموت مافات

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٣٥٩ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣٢ . (بولاق) .

قد رخص الموت على أهله ومات من لاعمره ماتا (١)

ويضيق بنا المقام عن محاولة تتبع الأشعار التى من هذا النوع ، بيد أن النماذج التى أوردناها فى السطور السابقة يمكن أن تكشف عن كيفية معايشة المصريين لواقعهم على الرغم من مرارة هذا الواقع .

ومن ناحية أخرى ، فإن الأوبئة والأزمات المتوالية فى الشطر الأخير من عصر المماليك أضفت مسحة من الكآبة على الحياة اليومية لجماهير المصريين فاختفت مظاهر كثيرة من مظاهر البهجة والسرور والإهتمام التى كانت تصاحب احتفالاتهم وأعيادهم بحيث تواضعت مظاهر هذه الأعياد والاحتفالات إلى أدنى حدودها . (٢)

أما النتائج والآثار الاقتصادية لهذه الأوبئة والمجاعات ، فيمكن أن نلمس أهم مظاهرها فى حقيقة تدهور الإنتاج الزراعى ، وما كان ينتج عن ذلك بالضرورة من ارتفاع الأسعار بشكل مطرد ، فضلا عن أختفاء الكثير من السلع والضرورة فى كثير من الأحيان . وهنا ينبغى أن ننبه إلى أن الأسباب كانت أيضا نتائج لأسباب وعوامل أخرى ، مما يجعل الأسباب والنتائج تتشابك فى بعضها البعض بحيث يتعذر الفصل بينهما . إلا أن التدهور الاقتصادى بات واضحا تمام الوضوح فى قصور الإنتاج الزراعى عن الوفاء بحاجة البلاد من ناحية ، وفى كثرة اختفاء الخبز والقمح بشكل كاد أن يكون سنويا من ناحية أخرى . كما تجلى هذا التدهور الاقتصادى فى انخفاض الإنتاج الصناعى بشكل ملحوظ ، وتقلص النشاط التجارى الداخلى وانكمشت الأسواق تبعا لذلك ، فضلا عن إنهيار النظام النقدى واختفاء الذهب والفضة تقريبا فى السنوات الأخيرة من العصر ، وسيطرة العملات الأجنبية على السوق المحلية . (٣)

---

(١) المصدر نفسه ، جا ، ص ١٩١ ، يتبع .

(٢) أنظر ما سبق فى دراستنا للأعياد والاحتفالات .

(٣) تتحدث مصادر عصر المماليك كثيراً عن أوامر السلاطين بمنع تداول العملات الآجنبية سواء الذهبية منها أو الفضية . (أنظر على سبيل المثال ، ابن الصيرفى ، نزهة=

ومن نافلة القول أن نكرر ماسبق أن ذكرناه فى الدراسات السابقة عن مظاهر التدهور الاقتصادى ، ولكننا نكتفى بالإشارة بأن هذا التدهور كان من أسباب الأزمات الاقتصادية والمجاعات المتوالية بقدر ما كان من نتائجها . والحقيقة أن التداخل بين العوامل والنتائج واستمرارها بشكل حلزونى فى متابعة كل منها للأخرى يجعل من الصعب أن نحدد مدى تأثير السبب فى النتيجة التى لاتلبث أن تصبح من الأسباب المؤدية إلى مزيد من التدهور . وإذا كنا قد عرضنا لبعض النتائج والآثار التى نجمت عن الأوبئة والمجاعات على الصعيد الاجتماعى ، فإنه ينبغى أن نشير إلى أن التدهور السكانى والاختلال الاجتماعى كان أيضا من أسباب المزيد من التدهور الاقتصادى ، وتضاؤل الإنتاج الزراعى والصناعى .

وفيما يتعلق بتدهور الإنتاج الزراعى ، فإن ذلك يمكن تفسيره فى ضوء الحقيقة القائلة بأن إهمال وسائل الرى ، من جسور وترع وغيرها ، وارتفاع الأراضى الزراعية عن منسوب مياه النهر بدرجة كبيرة (بفعل التراكم المستمر لطمى النيل مع إهمال شبكة الرى) جعل المساحة التى تروى من مياه الفيضان تقل تدريجيا . ومن الجدير بالذكر أن معظم الأرض الزراعية آنذاك كانت تعتمد على نظام رى الحياض الذى يعتمد بدوره على مياه الفيضان وتزرع الأرض بمحصول واحد فى العام . (٢) ومن ناحية أخرى ، فإن توزيع إقطاعات الأمراء فى أنحاء مختلفة من البلاد ، ثم تغييرها المستمر مع تغير وظائف الأمراء جعلهم يحرصون على أن يجنوا منها أكبر قدر ممكن من الأرباح ، دون أن يبذلوا جهداً يذكر لتحسين انتاجيتها أو رعايتها . وهو ما أدى فى النهاية إلى

النفوس ج ٣ ، ص ٢٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٠ ، ص ١٠٥ — ١٠٦ ، ص ١٢١) كذلك كان التلاعب بأسعار العملة يخلق المزيد من المتاعب ويعقد الأزمة الاقتصادية (ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص ١٤٣ ، نزهة النفوس ، ج٢ ، ص ٢٨٤ ، ص ٢٨٧ — ٢٨٩ ، ص ٢٩٠ ، ج٣ ، ص ٢١٥ — ٢١٧ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٢١ .) ولمزيد من المعلومات أنظر دراستنا عن الأسواق.

(٢) قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى ، ص ١٨ يتبع .

الكثير من جوادث انقطاع الجسور ، وعطش الأراضى وبوار مساحات كبيرة منها .

أما الصناعة ، فقد تسببت سياسة سلاطين المماليك الضريبية الظالمة ، وطرح البضائع على الصناع ، ثم احتكار السلاطين لبعض السلع ، فى القضاء على الرواج الذى كانت تتمتع به بعض الصناعات ؛ وتدهور أعداد أصحاب الحرف والصناعات . كما أن التدهور الاقتصادى العام قد اضطر الناس إلى الاكتفاء على الضروريات ، مما أدى بالتالى إلى ضمور وذبول كثير من الصناعات التى ترتبط بالرواج الاقتصادى والرفاهية التى يحيا المجتمع فى ظلها .

وتتفاعل هذه العوامل جميعاً لتخلق مزيداً من الأزمات التى تساهم بدورها فى المزيد من التدهور وترتبك أمور السياسة الداخلية ويتخبط الحكام ويحاولون الحصول على الأموال من شتى الطرق وبكل الوسائل ، فيلجأون إلى الاحتكار فى الداخل وفى الخارج ، ويزيدون من وطأة الضرائب « المظالم » على الرعية ، ويصادرون أموال كبار الموظفين ، ويستولون على أموال الأوقاف . بيد آن ذلك لا يكفى لسد مطالب المماليك الذين بات اعتمادهم على ما يأخذونه من أموال من السلطان كبيراً بعد أن صارت الأرض الزراعية غير قادرة على سد مطالبهم . ويسبب ذلك كثيراً من الفتن والاضطرابات ، ويفقد السلاطين سيطرتهم على مقاليد الأمور حتى حتى تصبر السلطنة عبئاً يتهرب الجميع من تبعاته .

وهكذا تنهار دولة سلاطين المماليك من الداخل حتى إذا ما دهمتها جيوش آل عثمان الأتراك تسقط بعد معركتين فاصلتين فى مرج دابق والريدانية وبعض المناوشات ضد شراذم المماليك بقيادة طومانباى الذى يحاول ، عبثاً ، أن يقيم جسداً مات قبل أن يسقط بزمان .

تم بعون الله وحمده

قائمة المصادر والمراجع

١ – س . ك : مجموعة وثائق دير سانت كاترين ، نسخة على ميكروفيلم بالمجلس الأعلى للفنون والآدب والعلوم الاجتماعية .

٢ – ب . ا : مجموعة وثائق بطريركية الأقباط الأرثوذكس ، نسخة على ميكروفيلم بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

٣ – ابن أيبك الدوادار (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري) :

– الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية

(وهو الجزء الثامن من حوليته « كنز الدرر وجامع الغرر » ، تحقيق أولرخ هارلمان ، القاهرة ١٩٧١)

– الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر

(وهو الجزء التاسع من « كنز الدرر » ، نشر هانس روبرت رويمر ، القاهرة ١٩٦٠)

٤ – ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفى المصرى ت ٩٣٠ هـ) :

– بدائع الزهور فى وقائع الدهور :

(طبعة بولاق ١٣١١ هـ ، جـ ٣ – جـ ٥ تحقيق د . محمد مصطفى ، جمعية المستشرقين الألمانية ، القاهرة ١٩٦٠ – ١٩٦٣ م) .

– نشق الأزهار فى روض المعطار

(مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٤٣٩ جغرافيا) .

– نشق الأزهار فى عجائب الأقطار

(نشرة لانجلى L· langlé ، باريس ١٨٠٧) .

— نزهة الأمم في الغرائب والحكم

(مخطوط مصور بجامعة القاهرة ، ١٩٦٣) .

٥ — ابن أبي الفضائل (المفضل بن أبي الفضائل) .

— النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد

(نشره بلوشيه .E. Blouchet ضمن مجموعة .

(patrolagia orientalis,Tams.xII, xIv, xxII, paris 1919).

٦ — ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي ت ٧٢٩ هـ) :

— معالم القربة في أحكام الحسبة

(نشره ليفي R. Levey ، كمبردج ١٩٣٧ م) .

٧ — ابن بسام (محمد بن أحمد بن بسام المحتسب) :

— نهاية الرتبة في طلب الحسبة

(نشره حسام الدين السمرائي ، بغداد ١٩٦٨) .

٨ — ابن بطوطة (عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي ثم الطنجي :

— تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

(طبعة باريس ١٨٨٠ م ، وطبعة دار التراث ، بيروت ١٩٦٨) .

٩ - ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ت ٨٧٤ هـ) :

— النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

(طبعة دار الكتب في ١٦ جزءاً ، وطبعة كاليفورنيا تحقيق بوبر W. Papper) له

— منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور

(٤ أجزاء نشرة وليم بوبر ، كاليفورنيا ١٩٣٠) .

١٠ - ابن تيمية (تقي الدين احمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، ت ٨٢٨ هـ) :

– الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
(أربعة أجزاء فى مجلدين ، القاهرة ١٣٢٣ هـ) .
١١ – ابن حجر (الحافظ ابن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ) :
– أنباء الغمر بأنباء العمر
(مخطوط فى جزئين بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٤٧٦ تاريخ
وج ١ – ج ٣ تحقيق الدكتور حسن حبشى ، المجلس الأعلى
لرعاية الشئون الإسلامية ، القاهرة ٦٩ – ١٩٧٢ م) .
١٢ – ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبورى الفاسى ت ٧٣٧ هـ) :
– المدخل إلى الشرع الشريف
(٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٤٨ هـ) .
١٣ – ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ هـ) :
– المقدمة
– (المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣٢١ هـ) .
١٤ – ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى
ت ٨٠٩ هـ)
– الانتصار لواسطة عقد الأمصار
(الجزءان ٤ ، ٥ ، نشرهما فولر ، بولاق ١٣١٤ هـ)
١٥ – ابن زين (أبو محمد عبد الله بن أحمد بن زين القاضى ، القرن
التاسع الهجرى) :
– شروط النصارى
(مخطوط بدار الكتب ، رقم ١٢٠٩ تيمور)
١٦ – ابن طلحة (أبو سالم محمد بن طلحة القرشى الوزير ت ٦٥٢ هـ) :
– العقد الفريد للملك السعيد
(القاهرة ١٣٠٦ هـ)
١٧ – ابن ظهيرة (غير معروف بالتحديد)

– الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة
(تحقيق ونشر مصطفى السقا وكامل المهندس ، القاهرة ١٩٦٩)
١٨ – ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين بن خليل بن شاهين الظاهرى ت ٨٢٧ هـ)
– زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .
(باريس ١٨٩٤ م) .
١٩ – ابن عبد الظاهر (محيى الدين بن عبد الظاهر ت ٦٩٢ هـ) :
– تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور
(تحقيق ونشر د . مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١)
٢٠ – ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ) :
– تاريخ الدول والملوك
(جـ٧ – جـ ٩ ، نشره د . قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٤٢) .
٢١ – ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين ابن فضل الله العمرى ت ٧٤٩ هـ) :
– التعريف بالمصطلح الشريف
(القاهرة ١٣١٢ هـ)
٢٢ – ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر – ٧٥١ هـ) :
– أحكام أهل الذمة
(نشره د . صبحى الصالح ، دمشق ١٩٦١) .
٢٣ – ابن النقاش (أبو إمامة محمد بن على ت ٧٧٣ هـ) :
– المذمة فى استعمال أهل الذمة
(مخطوط بدار الكتب ، رقم ٣٩٥٢ تاريخ) :

٢٤ – ابن الوردى (زين الدين عمر ت ٧٥٠ هـ) .
– تتمة المختصر فى أخبار البشر
(القاهرة ١٢٨٥ هـ)
٢٥ – البلاذرى (أحمد بن جهجها بن جابر) :
– فتوح البلدان
(نشرة M. J. Goeje ، ليدن ١٨٦٦) .
٢٦ – بنيامين التطيلى (الرحالة الربى بنيامين بن يونه التطيلى الأندلسى) :
– رحلة بنيامين .
(ترجمة وتعليق عزرا حداد ، بغداد١٣٨٤ هـ)
٢٧ – جمال الدين الشيال (دكتور) :
– تاريخ مصر الإسلامية
(الجزء الثانى ، دار المعارف ١٩٦٧)

٢٨ – حسن ظاظا (دكتور) :
– الفكر الدينى الإسرائيلى – أطواره ومذاهبه
(معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧١) .
٢٩ – الخالدى (بهاء الدين محمد بن لطف الله) :
– المقصد الرفيع المنشأ الحاوى إلى صناعة الإنشا
(مخطوط مصور بجامعة القاهرة ، رقم ٤٢٠٤٥)
٣٠ – الخطيب الجوهرى (على بن داود الصيرفى) :
– إنباء الهصر بإنباء العصر
(تحقيق الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠)
– نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان
(تحقيق الدكتور حسن حبشى ، ٣ أجزاء ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤)

٣١ – السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٣ هـ) :

– التبر المسبوك فى ذيل السلوك
(بولاق ١٣١٥ هـ)
٣٢ ـ السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) :
ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة.(جزءان ، القاهرة ١٢٩٩هـ)
– تاريخ الخلفاء .
٣٣ ـ السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ت ٧٧١ هـ) :
– معيد النعم و مبيد النقم
(ليدن ١٩٠٨) .
٣٤ ـ سعيد عاشور (دكتور) :
– العصر المماليكى فى مصر والشام (القاهرة ١٩٦٥)
– المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٦٢)
٣٥ ـ العينى (بدر الدين محمود العينى ت ٨٥٥ هـ .) :
ـ عقد الجمان فى التاريخ أهل الزمان
(مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٨٤ تاريخ)
– السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى
تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ١٩٦٧)
٣٦ ـ قاسم عبده قاسم (دكتور) :
– أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى
(طبعة ثانية ، دار المعارف ١٩٧٩ م)
– النيل و المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك
(دار المعارف ١٩٧٨ م)
– الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث
(بالاشتراك مع د . أحمد الهوارى ، القاهرة ١٩٧٧) .
٣٧ ـ القلقشندى (شهاب الدين أحمد بن على ت ٨٢١ هـ) :
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا

(١٤ جزءا ، طبعة دار الكتب إبتداء من سنة ١٩١٣)

٣٨ – الكتبي (محمد بن إبراهيم بن يحيي بن على الشهير بالوطواط الكتبي ت ١٢١٨ هـ) :

– مباهج الفكر ومناهج العبر

(مخطوط فى أربعة أجزاء ، نسخة مصورة بدار الكتب ، رقم ٣٥٩ علوم طبيعية)

٣٩ – لويس شيخو :

– المخطوطات العربية لكتبة النصرانية (بيروت ١٩٢٤ م)

٤٠ – ماير (ل . ا) :

– الملابس المملوكية

(ترجمة صالح الشيتى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢)

٤١ – محمد مصطفى زيادة (دكتور) :

– حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة (القاهرة ١٩٦١)

٤٢ – مراد فرج

– القراءون والربانون (القاهرة ١٩١٨)

٤٣ – المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ) :

– المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار (بولاق ١٢٧٠ هـ)

– السلوك لمعرفة دول الملوك

(جـ١ ، جـ٢ نشرهما د. محمد مصطفى زيادة ، جـ٣ ، جـ٤ نشرهما د . سيد عاشور ، دار الكتب)

– الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ١٨٨٥ م)

– الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك

(نشره د . جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ م) .

– إغاثة الأمة بكشف الغمة

(نشره د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٤٥٦ هـ)

– النقود القديمة والإسلامية . أو شذور العقود في أخبار النقود

(القسطنطينية ١٢٠٨ هـ)

٤٤ – النويرى (شهاب الدين بن عبد الوهاب ت ٨٣٣ هـ) :

– نهاية الأرب فى فنون الأدب

(١٨ جزءا طبعة دار الكتب المصرية ، وابتداء من ج ٢٧ مخطوط بدار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة .

Ahmed Abd Arraziq: (٤٥)

– La femme au temps des Mamlouks en Ègypte (Institut Français D. Archeologie Orıentale du Caire, 1973.)

Atiy (A. S.): (٤٦)

– The Crusades in the Latter Middle Ages (London 1938).

Ashtor (E.): (٤٧)

– A social and ecomic history of the Near East in the Middle Ages.

(Collins, London 1976).

Bosworth (C. E.): (٤٨)

«Christian and Jewish religious dignitaries in Mamluke Egypt and Syria)

(reprinted from The Journal of MiddleEast studies, Jan. 1972).

Dopp (p.H.) (٤٩)

L,Egypt au commencement du quanzième siécle (Le Caire 1650)

Giovanni Boccasio (٥٠)

Decameron (transl. by J.M.Rigg, George Rautledge and son Londone 1905)

Ibraham S. Halkine: (٥١)

«The Arab Jewish Litrature» An essay in the book published by Finkelstein titled The Jewish : Their history culture end religion. (New York)

Mann (J.) (٥٢)

The Jewish in Egypt and palestine under the Fatimid caliphs (2 vols. Oxford 1920)

Norman F. cantor: (٥٣)

The Medieval History (n nd ed. NewYork 1969)

Rabie(H.): (٥٤)

The financial system of Egypt (Oxford 1972)

U.J.E.: universal Jewish Encyclopoedia (٥٥)

رقم الإيداع ٣٧٣٦ لسنة ١٩٧٩

مطابع سجل العرب
٩ شارع عماد الدين - ت ٩٣٢٧٠٦



ص
١٣٠